

# الجزء الأول

## المحتويات للجزء الأول

- بين يدي الكتاب ..... 11

### الفصل الأول لمن تعطى المقاليد

- مفتاح المعرفة ..... 21
- من مفاتيح المعرفة الإيمان
- بما نزل على محمد (ص) ..... 53
- روح القرآن : الدعوة إلى الله ..... 58
- الدماغ - الزيتونة أو المفاعل النووي المعجز ..... 79
- روعة الإنسان بين العقل والنفس والدماغ ..... 83
- حقيقة الإدراك من الذرة إلى المجرة ..... 85
- الإنسان مثلث النفس ..... 87

### الفصل الثاني

#### أطراف الجنة في الحياة الدنيا

- سلطنا الله على ما في الكون ..... 91
- أقوى من المركبات الفضائية وأقوى
- من الصواريخ ..... 93
- إنسان حضارة اليوم ، طغى في الميزان ..... 95
- هل يعدم القرآني فاعلية المفاتيح ..... 104

### الفصل الثالث

#### لباس التقوى

- اللباس إثنان : مادي ونوراني ..... 113

### الفصل الرابع

- من هم أصدقاؤك ..... 125

### الفصل الخامس

- 135 ماء السماء .....
- 137 من أصول المعرفة : اليقين بإدارة الله للكون وما فيه ...
- 145 الكون حيٌّ عاقلٌ : .....

## الفصل السادس

- 149 { .. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ } .....
- 151 إنما يخشى الله من عباده العلماء .....
- 152 فماذا في السماء ؟ .....
- 155 شمس بعيدة عن الأرض ملايين السنين : .....

## الفصل السابع

- 161 أهمية القائد عند الله .....
- 163 كما تكونون يولّى عليكم .....

## الفصل الثامن

- 173 أالله خير أمّا يشركون ؟ .....

## الفصل التاسع

- 179 فهم الوجود : بين موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام ....

## المحتويات للجزء الثاني

- 196 ما لا يقبله القرآن .....

## الفصل الأول

- 201 هل الأنبياء كانوا في الدنيا أحياء بعد موتهم؟! .....

## الفصل الثاني

- 209 هل المحبة والرحمة تعليم إلهي لجميع ما خلق الله؟! .....
- 212 تناقض يحسمه القرآن الكريم .....

## الفصل الثالث

- 229 ..... بين المقهى وملعب كرة القدم
- 234 ..... بين اللعب العثي والرياضة المفيدة

## الفصل الرابع

- 239 ..... دروس حوزوية تزور القرآن

## الفصل الخامس

- 247 ..... إخلع نعليك
- 253 ..... ماذا قيل في النعلين ؟
- 255 ..... الحزن بين الخاصة والعامة
- 258 ..... بين أبطال كربلاء وأبطال مؤتة
- 262 ..... بين الغضب المقدس وغير المقدس
- 269 ..... دفاعاً عن معرفة الله
- ..... تناقضات في كتاب :
- 275 ..... هل نرى الله
- ..... هذا نور ما يرى فأين نور
- 289 ..... ما لا يرى
- ..... ما الهبولى ؟!
- 298 ..... وما الفناء في ذات الله المقدسة ؟!

## الفصل السادس

- 305 ..... يدبر الأمر من السماء إلى الأرض
- 307 ..... بين العرفان التقليدي والعرفان العملي
- 309 ..... نموذج عن العرفان الإلهي في التشريع
- ..... يدبر الأمر من السماء إلى الأرض
- 319 ..... - طبعاً - مروراً بأمريكا
- 321 ..... حقائق إلهية تحكم الوقائع
- 326 ..... أميركا المقهورة المعذبة
- ..... أفغانستان
- 334 ..... بين أميركا وطالبان وقوات التحالف الشمالي

- 337 ..... بين حضارة طالبان وحضارة أميركا وحلفائها
- القيامة على الأبواب .. لمحات
- 340 ..... عن العالم في ظل آيات

## بين يدي الكتاب

منذ فتح الله جلّ شأنه ، عينيّ وقلبي وعقلي ، على حب الإطلاع ، وتتبع ذخائر تراثنا العربي والإسلامي ، وأنا أزداد إعجاباً ونشوة وفخراً ، بهذا التراث الزاخر بالعلوم والفتوحات الفكرية ، والإبتكار في كل علم وفي كل فن .

ولاحظت أكثر ما لاحظت ، كتب التاريخ وكثرتها — رغم بعض الطعون في أكثرها — وكذلك كتب السيرة النبوية المباركة ، وغيرها من السير ، من الخلفاء الذين اتفق على تسميتهم بالراشدين ، إلى سير القادة العسكريين والسياسيين والأئمة الميامين .

كذلك كتب المفاضلة بين المذاهب ، وأئمة المذاهب ، والشيع وكثرة الشيع ، التي اندثر أكثرها ، وما بقي منها إلا اسمؤها المنسية والقابعة في زوايا كتب التاريخ ذات الإختصاص .

ثم الأهم من ذلك كله ، كتب تفسير القرآن الكريم ، وهي على كثرتها وعظم أهميتها ، وضخامة بعضها ، وحتى فنون تبويبها ، والحرص الشديد على تعظيم القرآن وحفظه وضبط قراءاته ، والدقة الرائعة في توخي المحافظة على كل نقطة وكل حركة ، فضلاً عن المشهور في القراءات وتعداد القراءات ، وحصر الشاذ منها ، وصولاً حتى إلى مدارس تجويد القرآن والإهتمام بأدق أجزاءه وجزئياته .

ثم ، مجلدات الحديث ، كالصحاح المشهورة الستة والتي هي عبارة من عشرات المجلدات ، كذلك أحاديث الأربعين ، حيث نجد منها ربما المئات ، لولا أن بعضها يستقطبه التشابه والتكرار .

ويقابل الصحاح ، كتب الرواية عن الأئمة الأطهار مثل الكافي للكليني والبحار للمجلسي ، وهي كتب تشمل عشرات المجلدات ، وغيرها وغيرها لعلماء أقطاب أمثال الشهيد الأول والشهيد الثاني والحر العاملي ، والمحقق الكركي ، والشيخ البهائي وأسماء كثيرة منيرة ومستنيرة قد نحتاج لحصرها إلى كتاب كبير ولا سيما في مجال الفقه والإجتهد والاستنباط لأحكام الشريعة من مصادرها ، إلى رسالات المراجع وتصنيفاتهم ، ولو كان أكثرها في قضايا الفقه في مجالي العبادات والمعاملات .

إلا أن هذه الكتب بمعظمها ، شديدة التشابه ، ولولا علم أصول الفقه قد يجوز لغير العارفين بفنون الإجتهد والاستنباط أن يقولوا إن هذه الكتب والمصنفات يقلد بعضها بعضاً .

وعلى كل حال ، تبقى الحقيقة القائمة هي كون هذه الكتب التي هي بالمئات ، يمكن اليوم لكمبيوتر مجهز ببرنامج للفرز وإسقاط المكرّر ، والمقلد ، والمتشابه ، أن يحصر فقهاً كله بكتاب من عدة مجلدات للخاصة ، وبكاتب عادي للعامة ، مما يسهل على الفريقين كثيراً من التعقيد الذي بدون طائل .

حتى بحار المجلسي رضوان الله عليه على كثرة أجزاءها وضخامتها قد اختصرت بما سمي " سفينة البحار " حيث تحاشى فيه مجرد التكرار والعنغنا ، فجاء هذا المختصر ، ليقول فيه من يقرأه : ما أجله وما أجمله .

بقي أن نسأل : هل فقهاء الإسلام ، الذي لم يطبّق ، هو بهذه الضخامة وبهذا التعقيد في اجتهاد الكتب المكررة . والتي لاحظنا أنها تكاد تفرض على طالب العلم فريضة . في الوقت الذي يعاني فيه الفكر الإسلامي الحوزوي من نقصين أساسيين :

— الأول: تعلّم وتعليم روح القرآن .

— والثاني: تتبع العلوم الحديثة ، وممارسة ما يمكن منها.

وكذلك هذان النقصان ، هما حاصلان بشكل عام ، عند أكثر الكتاب المتأخرين ، الذين ما زالوا يأخذون عن المبتكرين الأوائل ، وما زالوا يراوحون مكانهم بطرق التحليل والتعليل والمواضيع إياها ، مع بعض الفساد في اللغة والصياغة ليزيد الطين بلة .

نقول هذا ، ونستدرك احتراماً لبعض النّيرين ، الذين هم في مواقع القيادة لهذه الأمة المباركة ، والذين ما زالوا يكتبون مجددين ومبتكرين ، ومجاهدين على أكثر من صعيد ، ولكنهم في الحقيقة قلة قليلة جداً بالنسبة لما هو مطلوب عدداً ونوعية في المجالين الأنفي الذكر : روح القرآن والإنخراط في الحداثة . وكذلك في مجالات أخرى تكاد تكون فريضة ، في شن حرب على البدع وعلى روح الوثنية ، ولزوم تبني واعتماد الأسلوب الذي يصدم ليقظ ، وليصدم العامة وبعض من يعتقدون أو يعتقد فيهم أنهم من الخاصة ، أي من العلماء الحقيقيين وما هم كذلك . وما أكثرهم شكلاً ، وما أفقرهم علماً وعدالة .

ورد في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ . سورة السجدة الآية ٢٢ } .

وفي القرآن الكريم آيات الله المكتوبة المنزلة وحيّاً على قلب رسول الله محمد (ص) فالقرآن كله آيات ألزم الله المسلمين بتذكرها وتدبرها والعمل بها .

يعني بإختصار ، ألزم الله الأمة كلها بالقرآن الكريم ، هذا بشكل عام ، وألزم القياديين فيها إلزاماً أشد بشكل خاص .

أما التشدد على القياديين ، فلأنهم لو لم يكن الله قد أعطاهم وميزهم بطاقات ومواهب ومقدرات عقلية ونفسية وبدنية أكثر من غيرهم من عامة الناس ، لما استطاعوا أن يكونوا قياديين . وحيث أن الله سبحانه { .. لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا.. سورة الطلاق الآية ٧ } فلذلك جاء تكليف القياديين خاصة أكلف وأكثر تحمياً للمسؤولية أمام الله وأمام عباده ، في الدنيا وفي الآخرة .

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . سورة الأحزاب الآية ٧ } .

وهنا نقطتان : الأولى أنه سبحانه أخذ من الأنبياء ميثاقاً غليظاً بشكل عام لأنه سبحانه هو نَبَاهِم وجَهَّزَهُم بمستلزمات الثبات والتحدي والتصدي لأنواع الكفر والبدع . وبشكل خاص كان الميثاق الغليظ

أكد من رسول الله محمد (ص) ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عليهم السلام حيث أنه سبحانه خاطب محمداً (ص) مباشرة وسمى زملاءه الباقيين ولم يسم غيرهم .

وأما النقطة الثانية المستفادة ، فهي أنه "على قدر أهل العزم تأتي العزائم " كذلك من كان من الناس قد آتاه الله قدرات وميزات ومواهب أكثر من عامة أقرانه في عصره ومجتمعه ، فهو مطالب أمام الله بمقادير ما وهبه وأعطاه . وهنا أول ما يخطر بالبال الكتاب الموهوبون ، والمفكرون ، والشعراء ، والرسامون ، وكل من أوتي موهبة شريفة أصلاً ، فهؤلاء جميعاً مطالبون أمام الله تعالى بنسب ما أعطاهم سبحانه :

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . سورة الزلزلة الآيات ( ٧ - ٨ ) . }

وقد يكون أبلغ الموثيق وأكدها بعد الأنبياء والرسول ، هي على العلماء المتصدين لحمل الدين وتبليغه من مواقع القيادة والموعظة ، قولاً وكتابة إلى الناس ، في كل عصر وفي كل جيل وزمان ومكان .

يعني سيكون أصحاب المواهب أكثر الناس مسؤولية أمام الله ، وبالتالي سيكون سبحانه أكثر تشدداً عليهم .

كذلك سيكون العلماء أكثر أصحاب المواهب مسؤولية ، وبالتالي سيكون سبحانه أكثر تشدداً عليهم من بين جميع الخلق بعد الرسل والأنبياء والذين عصمهم الله سبحانه عن الخطأ والزلل .

فلا يفرحن متعمم بعمامته ولا يزهون بقيافته ، ولا يطمئنن َ إلى كونه يتصدر المجالس ويُحنى له إجلالاً وإكباراً ، إذا كان فاجر القلب ، صياد مواقف ومصالح وصدقات . فإن ربك لبالمرصاد ، له أكثر من غيره من عامة خلق الله . وكونه متصدياً لدين رب العالمين ، ينبغي أن يكون ربيب هذا الدين ، فتى الله عز و علا ، تابعاً له سبحانه ، عبر أنبيائه ورسله وأوليائه ، وكتبه التي لخصها الله تعالى وزاد عليها ، وجعل خلاصتها والزيادة في كتاب ، ليس على وجه الأرض وتحت السماء كتاباً أصدق منه وأكمل منه وأغنى منه وأعلى منه شأناً ، في تعليمه وتشريعهِ وكنوزه المفتوحة ، وكنوزه المغلقة بانتظار الفاتحين ، وأسراره ، وأدبه وتربيته للسالكين والناجين والإنس والجن أجمعين . ذلك هو القرآن الكريم :

{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . سورة الواقعة الآيات ( ٧٧ - ٨٠ ) . }

أما مسُّ القرآن هنا فيعني إدراك روحه وحقائقه وكشف كنوزه وبلوغ أسرارهِ ، نهلاً نهلاً ، ثم عباً عباً ، ثم استنارة ثم إضاءة :

{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغُورُنَا إِنَّا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم الآية ٨ . }

و { نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } في الدنيا قبل الآخرة : { .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } . هؤلاء الذين آمنوا مع النبي (ص) وأمثالهم في التاريخ ، إذا أكمل

الله عليهم نورهم ، طهرهم به ، فيصبحون أهلاً لمس القرآن في شغافه ، وبين حروفه وثنايا آياته ، متنقلين من عباراته إلى إشاراتِهِ إلى معانيهِ إلى حقائقهِ العليا التي فيه ، والتي إليها يشير في عالمي الغيب والشهادة بإذن الله .

من هنا روح القرآن ومن هنا الابتكار .

أما روح القرآن ، فهي باختصار شديد الدعوة إلى الله .

وأما الابتكار ، فهو عدم اجترار المعاني المستهلكة ، وعدم تكرار التفاسير التقليدية المبتوثة في مئات الكتب . والتي لا يعيد الكتابة فيها إلا فاشل أو تاجر أو سارق أفكار . وهؤلاء ظلمانيون .

الابتكار ، أولاً هو تنظيف وعاء التلقي ، ووعاء التلقي هو القلب ، وهذا لا يلهمه الله سبحانه إلا إذا استنار بنوره ، وهاجر إليه يريد قربهِ ، ولا يلتفت لشيء دونه من مكاسب الدنيا حتى ولا الآخرة . طبعاً وإذا جعل هذا القلب كله لله لا يشاركه فيه أحد سبحانه .

فإذا لم يطهر القلب ويتهيأ لتلقي الإلهام الكريم من الله جلت عظمتُهُ ، فلا يتصدى للقرآن بحثاً وتقيباً ، وصيد لآلئهِ ، لأنه لن يرى من اللآلئ إلا أصدافها ، ويزيد الأمر سوءاً إذا كان من غلف القلوب .

وثانياً من أراد الابتكار كتابة ، فليجعل من القرآن الكريم ساحة جهاده : ساحة جهاد قلبه وعقله ، وسمعه وبصره ، ولا يتخطاه ، إلا قليلاً ما ، ولضرورات ، مثل الإستئناس بأحاديث أو روايات صحيحة ، وأهم شرط في صحتها أن يقبلها هذا القرآن المجيد .

والابتكار ثالثاً : أن ينظر إلى الكون بمنظار القرآن : في العلوم الإنسانية ، في الفلسفة وعلم الاجتماع ، وعلم الإقتصاد الذي هو رزق الله لعباده ، والسياسة والأخلاق . ثم في الفلك ، ثم النظريات العلمية الظنية . ثم فيما يعلم الله لعباده في مجالات التكنولوجيا والعلوم النووية ، وثورة الإتصالات ، والأشعة وأنواعها وفاعليتها في الأنفس والأبدان والجراحة ، والطبابة ، والعلم بشكل عام .

ولا تنتهي حقول العلم ومواضيع البشر في حياتهم على صعيد الأفراد أو المجتمعات أو هذا الكون الفسيح ، العميق بكنوزه وأسرارهِ . ويظل القرآن هو المرصد لجميع هذا الخلق ، في البر والبحر والجو والسموات العلى .

وجُلّ مسار العالم ، أن يستنبط ، غادياً من روح القرآن ، أي الدعوة إلى الله ، ماراً بالكاشف النوراني ، في جزئيات وأفراد وتجمعات هذا الخلق العظيم راجعاً إلى روح القرآن : داعياً إلى واسع الرحمة عظيم المغفرة ، محذراً من غضباته ونقماته ، التي لا يقوم لها شيء ، لا في مفاجئات الخزي في الدنيا ، ولا في الشقاء الأبدى في الآخرة .

{ .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. . سورة الحج الآية ٤٠ } .

أما في أنصار الله فقولهُ سبحانه :

{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة السجدة الآية ١٧ } .

من هنا ، فإن منهاج بحثنا ، بإذن الله تعالى ، سيكون ، كما كان في كتابينا السابقين " العقل الاسلامي " و " دعوة إلى الله " انطلاقاً من القرآن الكريم متوكلاً على الله وحده لا شريك له ، مهتدياً بهديه ، مستتيراً بنوره ، داعياً إلى التظلل بظله وحده ، وإلى الإستنارة بنوره وحده ، والاستنصار بقوته وحده ، والاعتزاز بعزته وحده .

اللهم وإني أسألك المزيد من كل خير أحاط به علمك ، لي ولجميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها ، وإنهاضاً لهذه الأمة ، ونصراً مؤزراً لها ، وأنت سبحانك قد قلت في أهلها :

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. } . سورة آل عمران الآية ١١٠ .

فيا ربنا الحبيب ، يا لا إله إلا أنت ، يا حي يا قيوم ، أنت السميع وأنت البصير وأنت على كل شيء قدير :

{ .. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . سورة البقرة الآية ٢٨٦ } .

عبد الكريم آل شمس الدين  
عربصاليم – لبنان الجنوبي



## الفصل الأول

### لمن تُعطى المقاليد

{ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الشورى ( ١١-١٢ ) . }

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مفتاح المعرفة

قيل لرسول الله (ص) كيف عرفت الله ، قال : بالله عرفت الله .

المعرفة في هذا العصر ، قضية خلاف بين السماويين والأرضيين ، وسيستمر حولها الجدل بين الفلاسفة وعامة أهل الفكر ، من حيث تعريفها وتحديد عناصرها ، ومضامينها .

وكوننا مسلمين ، أهل دين منزل ، بكتاب منزل ، على نبي مرسل ، فنحن أحقُّ الناس بالتعامل مع هذا الموضوع ، موضوع المعرفة ، تعاملأ واعياً لا لبس فيه ولا شك ولا تعقيد .

#### المعرفة بالمنظور الإسلامي :

=====

المعرفة هي مجموع الحقائق التي يحتاج الإنسان إلى التألّف معها ، ليجد نفسه ، مستقراً ، نفسياً وبدنياً ، وبالتالي حياتياً وأبدياً .

والحقائق العليا هي المطلب الأعلى .

وهذه الحقائق العليا يستحيل التوصل إليها دائماً بالتجارب ، سقوطاً وارتفاعاً ووصولاً وفشلأ ، ولو بعد آلاف الأجيال من عمر البشرية . لسبب واحد ، هو أن الكون الذي أمام الإنسان معظمه مغلق ، أو غائب عن حسه وبصره ، وضمنأ عن أدواته وأرقامه واختراعاته . يعلم ذلك الإنسان العادي ، ويؤكد أفذاذ العلماء في مخابرتهم ومراصدهم ، وأجهزتهم التي هي على مستوى الإنسان المحدود ، مذهلة ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لما هو مدهل أكثر منها ، وبلا قياس : الكون المرئي ، والفلك المرصود ، وسياسة المجرات الهائلة المعقدة على سبيل المثال ، فكيف بالنسبة لما هو غير مرئي .

أما عن التجربة في مجال الكشف العلمي والبناء العلمي ، فهي من أجمل الضرورات وأجلّها وفي الضرورات جمال وجلال .

وأما عنها في مجال الغيب ، غيب ما فوق السماء الظاهرة ، وحتى غيب ما في النفس البشرية ، ثم الأهم الأعمم بلا قياس ، غيب علام الغيوب ، المتقن لهذا الكون المحكم ، شكلاً واتساعاً وجمالاً ، والمحكم روحاً وأسراراً وجلالاً . فإن التجربة لا تؤتي علماً ولا فهماً . قال تبارك وتعالى :

{ الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. } . سورة البقرة (آيات ١-٢-٣) .

فـ { ألم } مفتاح من مفاتيح المعرفة ، من مفاتيح الكتاب ، أي القرآن الكريم ، والقرآن الكريم كون يفهم به الكون الخارجي ، والعكس صحيح ، أي كذلك يفهم القرآن الكريم بدراسة الكون الخارجي ، شكلاً

وروحاً ، فـ { آلم } كذلك من مفاتيح السماوات والأرض . وهذا أمر يمكن التوصل إليه حتى بالتجربة . وقد سبق أن جرب ذلك الدكتور رشاد خليفة المصري ، الذي كتب في ذلك دراسة حول هذا الموضوع ، يوم كان مبعوثاً في الأمم المتحدة . ولعلها أول دراسة عن القرآن استعمل فيها الكمبيوتر .

وقوله تعالى : **{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }** أي لا شك فيه منزلاً يقيناً من لدن رب العالمين وفيه من المعارف عن الحقائق العليا الكثير الوافي والكافي شهد الله بذلك ، وشهد أولوا العلم منذ أربعة عشر قرناً وما زالوا يشهدون وكفى بالله شهيداً . وكذلك **{ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }** وكونه **{ هُدًى }** و**{ لِّلْمُتَّقِينَ }** هذا أمر حاصل بالتجربة . كما إنه بالتجربة حصل اليقين بأنه **{ لَا رَيْبَ فِيهِ }** . أما سبب الثناء على هؤلاء المتقين ، وهو قوله تعالى : **{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. }** هو هذا الباب الأعظم من أبواب المعرفة ، أنهم يؤمنون بالغيب ، وبدون هذا الباب تبقى المعرفة ناقصة ، وقد يتزايد هذا النقص مع الغرور العلمي التكنولوجي ، وينعكس سلباً على أصحابه ، قال تعالى : **{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . }** سورة التين الآيات ٤ و ٥ و ٦ .

وفي قوله تعالى : **{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. }** إعلام يتضمن مدحاً ، أو مدح يتضمن إعلاماً ، مفاده أن الإيمان بالغيب وإقامة الصلوة ، هما ركنا الهداية الأساسيان . أما الغيب ، ففي مقدمته غيبه هو سبحانه ، أي احتجابه عن خلقه ، وذلك لأسباب أهمها أن خلقه لا يتحملون مواجهة نوره الذاتي : **{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِن نُنظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . }** سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

وأما الصلوة فهي لاستمرار الصلة به سبحانه من قبل عباده ، وذلك لإدامة تلقيهم الفيض من نوره وعطاءاته ونعمه ، هداية وسداداً ورشاداً ورعاية للأنفس والأبدان ، ولجوءاً إليه من آفات الدهر وآفات الفقر في الدين والدنيا . وبدون هذه الصلة أو الصلوة يحصل الإنقطاع . كمثل انقطاع التيار الكهربائي أو انطفاء السراج : فأنه يُعرض بنوره وعزته وجلاله وكبريائه ، والإنسان يقع في الكارثة : في ظلامه وضلاله وضياعه ، بمجرد الإعراض عن ربه وعن آياته وكتبه . قوله تبارك وتعالى :

**{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ — سورة محمد آية ١١ }** . ومعنى **{ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا }** أي كافلهم وضامنهم وكافيتهم وشافيتهم ومشرّفهم بإحدى الحسنين النصر أو الشهادة .

فإذا كنت تسترزق الله وحده ، وتخافه وحده ، وتحبّه الحب الأعظم وحده ، ولا تظن ألوهة في غيره ، تولاك الله سبحانه ، أي رعاك وحفظك وأجارك ، ورزقك علماً وعملاً ، وكفاك شر ما يرى وما لا يرى ، وكلما زاد ولاؤك لربك ، زادت رعايته سبحانه لك ، حتى ليصبح سمعك الذي تسمع به وبصرك الذي تبصر به وحتى يدك التي تبتطش بها : **{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . }** سورة الأنفال آية ١٧ .

أما قوله تعالى : **{ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ }** أي لا ولاية لهم من قبل الله سبحانه أي لا رعاية ولا حصانة ، ولا حفظ ، يكلهم لأنفسهم ولمن يتولون هم من خلقه ، ومن يتولّ المخلوقين من دون الله ، يخذله الله ، ولا يبالي به في أي وادٍ هلك . لذلك نرى الأمراض النفسية والبدنية تستشري على مستوى العالم رغم التقدم المزعوم للطب النفسي والعضوي ، ونجد كثرة من أنواع الشياطين تعبت بأجسام الناس وتحير الطب

والدواء والمختبرات ، وهي بين الميكروب والفيروس وأنواع الإيدز والسرطان ، وقائمة المستجدات الفتاكة طويلة ، حتى إنها أخذت تهدد الإنسان من داخل غذائه ، ولا سيما من الأبقار البريطانية المجنونة ، وهي تصدر إلى بلاد العالم بأعداد وفيرة . وقضية التآثر العضوي بما يأكل الإنسان ويشرب ، قضية علمية متفق على صحتها .

فإذا لم يكن هناك حصانة من الله ، فالكوارث واقعة لا محالة ويكفي استعراض أعداد المرضى في المستشفيات التي أصبحت بهم مزدحمة ، واستعراض أمراضهم ، ثم أعداد الموتى المتزايدة بهذه الأمراض .

وهل حصانة الله للمؤمن ، تجنبه هذه الكوارث ؟ يقيناً تجنبه ، ويقيناً تحفظه ويقيناً ترفع منزلته عند ربه وعند الناس وفي منجاة من الشياطين مما دق وصغر أو كبر وعظم . قال تبارك وتعالى :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآيات ( ١٧٥ - ١٧٦ ) } . فهذه الآية الكريمة من المعارف العالية ، عن الحصانة ، وعن ماهية الحصانة ، وكيفية الحصانة ، ضد الشياطين ، ما دق من أنواع الميكروب والفيروس وما عظم من أنواع ما يرى من البشر وما لا يرى من غير البشر .

تلزم نفسك بآيات الله ، توقن بها ، تعتمد عليها عملياً ، فأنت في حصانة ، وكل ذي قوة شريرة في خوف منك أو في شغل عنك . وأنت في رضى من الله تعالى ، يعني في عافية . لولا بعض العقوبات أو البلاءات للمؤمنين التي هي دائماً في مصلحتهم ، سواء كانت عقوبة بعدها الراحة والفرج ، أو كانت امتحاناً بغية النجاح ورفع الدرجة .

أما إذا انسلخت من الآيات ، يعني صددت عنها وأعرضت ، أو استهزأت بها وكفرت ، وهي تدعوك لرحمة الله ورأفته ورعايته وعنايته وحفظه ، فأنت مكابر ، وأنت مستكبر ، وأنت كما قال الله في الآية العظيمة ، فراجع الآية وتمعن بمعانيها ، لعلك ترجع من الآية معافى ، فتعود إنساناً سوياً .

من أراد مفاتيح المعرفة ، فليصدق مع الله ، يؤته إياها ، أو يؤته منها : { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الشورى آية ١٢ } .

وفي معنى الآية : له مفاتيح السماوات والأرض ، فمقاليد جمع مقلاد وهو المفتاح والسماوات والأرض مجمل الكون جملة وتفصيلاً . و { يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ } أي يُكثِرُ وَيُقِلُّ من كل عطاء فيه خير ومنفعة ومصلحة وحق وجمال ، والمعرفة من جملة الرزق : معرفة الحقائق ، الفصل بين ما هو حق وبين ما هو باطل ، بين ما هو ضار وبين ما هو نافع ، بين ما هو محي وبين ما هو قاتل . وفي خانتي الثواب والعقاب : التعليم من الله عز وجل والتقريب إليه ، أو الإبعاد عنه انتقاماً ومقتاً . قال تبارك وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . سورة غافر آية ١٠ } .

تقرب إلى الله ، يتقرب إليك ، ادعه تجده قريباً مجيباً ، ادع غيره يعرض الله عنك ويكلك إليه ، والغير فقير ضعيف عند الله ولو كان جبريل أو كان رسولاً نبياً ، أو إماماً ولياً . قوله تبارك وتعالى : { .. دَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . سورة فاطر الآيات ( ١٣ - ١٤ ) . }

أو قوله تبارك وتعالى : { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . سورة الجن الآيات ( ١٨ - ٢٢ ) . }

والآيات مشرقات المعاني واضحات ، لولا كلمة { قِطْمِيرٍ } ومعناها ذلك العرق الأبيض الذي في شق النواة ، نواة التمر ، دلالة على أن المخلوقين لا يملكون حتى أقل وأرخص الموجودات . وكذلك أبسط الإمكانيات ، فمن كان لا يملك القوة ولا يملك السيطرة على أنواع الرزق ، فكيف يجيب أو يلبي إذا دعاه أحد مستنجداً أو مستغيثاً أو مسترزقاً .

أما مجموعة آيات سورة الجن فيزيد فيها عن المنع الواضح والحاسم عن دعاء غير الله . قوله لرسوله محمد (ص) : { قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } . فبموجب مجموع هذه الآيات ، إن محمداً (ص) لا يملك من قِطْمِيرٍ في مجال الرزق ولا يملك القوة لينفع أو يضر ، فالمالك لكل ذلك هو الله وحده ، وناصية محمد بيده ، وكذلك نواصي جميع خلقه . فمن أين إذن قدرة محمد على التبليغ ، وعلى الصبر ، وعلى الجهاد الأرواح في سبيل مولاه رب العالمين ؟ كل ذلك من الله تبارك وتعالى . إسمع قوله سبحانه له (ص) :

{ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . سورة الإسراء آية ٧٤ } .

وكذلك قوله تعالى له :

{ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . سورة الزمر آية ٦٥ } .

وهكذا صنع الله محمداً (ص) وأعلاه ونصره بعد أن جعله يقود أعظم ثورة في تاريخ البشرية على الظلم والفساد وألوان الكفر وألوان الشرك في التاريخ العالمي .

رباه وبناه هذا البناء المحكم الفذ ، وعرفه الحقائق الناصعة في نفسه وفي ربه سبحانه ، وفي الخلق وفي الكون ، ومدحه ، قال سبحانه يثبته :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . سورة القلم الآيات ( ١ - ٤ ) } .

وهل يكون الإنسان على هذا الأساس ، فقط أداة للتلقي ، لا يملك حتى الاختيار والأهلية لأن يكون شيئاً مهماً أو لا يكون؟! .

## نعمة التخيير من مفاتيح المعرفة :

=====

لنسمع عن الاستعداد الشخصي ، وعن ضرورة أن يكون الإنسان مختاراً ، وعن مدى ما يترتب على الاختيار والاعتقاد والبذل من أهمية ، قوله تبارك وتعالى :

**{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . سورة الليل الآيات ٥ - ١٠ } .**

فقضية الاختيار الشخصي ، والاعتقاد بعد التفكير والتأمل ، وبلا إكراه ، والأهلية الأخلاقية من حيث البخل والكرم ، والتصديق بالنفس الطيبة ، أو التكذيب ولؤم السجية ، وما يترتب على ذلك من جزاء هو التيسير بلوغاً إلى أعلى درجات الفلاح ، أو التعسير هبوطاً إلى الدرك الأسفل من النار نجد كل ذلك في ثنايا كلمات هذه الآيات .

ومن وجوه معانيها كمفاتيح للمعرفة :

**{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى }** أي من ماله وجهده ووقته في سبيل الله ، حياً وتكرماً ، **{ وَاتَّقَى }** أي على رجاء وتخوفٍ من تقبله سبحانه أو إعراضه ، إضافة إلى الحرص على الاستقامة وعدم التلبس بمعصية ، والمداومة على الذكر ، والتوبة النصوح في حال الذنوب . ثم أضاف إلى هذا ، العلم والفهم ولا سيما في معرفة الله سبحانه وذلك هو معنى **{ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى }** أي بأسماء الله الحسنى وأمثاله العليا وما تتضمن هذه الأسماء من معانٍ تستقطب الكون ونشاطاته والإنسان ومعطياته وأسراره التي فيه وفي محيطه ، وفي ماضيه ومستقبله . هذا النموذج ، يجزيه الله سبحانه بمقدار ما نوى وما عمل أحسن الجزاء ، بدءاً بإصلاح نفسه ، مروراً بتيسير أموره في الحياة الدنيا ، وصولاً إلى **{ الْيُسْرَى }** النهائية في الآخرة ، بين الزحزحة عن النار ، وبين عليين وسدرة المنتهى .

وأما من بخل بكل مكرمة ، وأعرض عن الله وعن آياته وكلماته ، واستقل أو استغنى عن الله تعالى معتمداً على قوته وعلى القوى المزعومة الأخرى ، مكذباً ، جانحاً إلى الغدر والمكر والخديعة ، أو إلى الكفر والعناد ، فجزاؤه أن يمهد له الله سبحانه الدرب إلى .. الهاوية ، بعد ضلال وضياع في الحياة الدنيا ونكبات .

ونعمة التخيير ، هي سبب التفاوت في العزم بين المؤمنين ، وبين الأنبياء وأصحاب الرسالات ، ويكفي لفهم مدى أثرها وأثر المبادرات الشخصية ، في طاعة الله جل شأنه ، أن نتذكر قول الله تعالى في أبينا آدم عليه السلام :

**{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً . سورة طه آية ١١٥ } .**

أما أعظم مفاتيح المعرفة على الإطلاق فهو الاستشعار الدائم بقوة حضور الله سبحانه . وهذا الأمر يجعله أكثر الناس ولا سيما المشتغلين بالتبليغ أو أي نوع من أنواع الدعوة إلى الله تعالى ، أو الجهاد

في سبيله . وللإمام بشيء من معنى قوة حضوره سبحانه، يجب اللجوء إلى بعض مفاتيح المعرفة التمهيدية لهذا الأمر، ولعل أهمها قوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد آية ٣ } .

هو أي الله عزت وعظمته ، الأول ، لا قبل قبله ، فمن استطاع أن يثبت قبل الله شيئاً أو أحداً فليقدمه للبشرية . وقد فعل ذلك بعض علماء الفيزياء في كلام عن المادة ، إلا أن السؤال : ومن خلق المادة ، هون من شأنهم وأثبت عجزهم . أما عن وجود أحد ، فلا بد أن يكون خالق الخلق ولا خالق غير الله ، ومعروفة عند أهل المنطق والفلاسفة قضية الدور والتسلسل وبطلانها ، ولن ندخل في ذلك لاستغنائنا بالدليل من كتاب الله المجيد : قوله تعالى:

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . سورة الرعد آية ١٦ } .

ربّ من يقول هذا استشهد بكلام الله ، وفي الناس من لا يؤمن أصلاً بالله ، أو أنه يؤمن بالله ولا يؤمن بكتبه ، أو يؤمن ببعض كتبه ولا يؤمن بهذا القرآن .

أما القول في من لا يؤمن بالله ، فهو مدان بقول الله عز وجل : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنْيَانِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . سورة الأعراف الآيات ( ١٧٢ - ١٧٣ ) } .

أما الإيمان بالله وعدم الإيمان بكتبه ، فذلك هو نوع من الكفر بقدرته الله على إرسال الرسالات مع رسل من الناس ، ففي نفس الوقت إيمان وكفر هو إيمان أخرق ، والإيمان بالـه غير قادر ، هو والكفر الأصلي سواء . وأما الإيمان بالله وكتبه ما عدا القرآن الكريم ، فهو كامل الشبه بمن يؤمن بالله ولا يؤمن بجميع كتبه ، أي هو كفر بقدرته الله على إنزال كتاب خاتم للكتب مصدق بها مهيمن عليها ، على رسول خاتم للنبيين ، خاطبه الله تعالى بقوله : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . سورة المائدة آية ٤٨ } .

أما من لا يؤمن بالله أصلاً ، فلا يضرُّ أجيال البشرية ولا أعلامها الذين هم ذوابات التاريخ وحججه من أنبياء وأولياء وعابرة وعلماء في كل سبيل من سبل السماوات والأرض كما ولا يضر حتى الذين يؤمنون إيمان العجائز بفطرتهم السليمة وقلوبهم الذكية الطيبة . أما أولئك الذين لا يؤمنون بالله سبحانه ، فقد قال هو فيهم جلّ في كبريائه :

**{ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . سورة الشورى آية ١٦ }**

ورجوعاً إلى آية سورة الحديد **{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ .. }** ، أما قوله تعالى **{ وَالْآخِرُ }** أي الأبدى السرمدى ، الذي لا شيء بعده ولا أحد إلا هو سبحانه ، مهيمناً على الكون وما فيه جملة وتفصيلاً ، محيطاً بكل شيء جملة وتفصيلاً . وأما قوله تبارك وتعالى **{ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ }** فهذه هي التي من يفهمها يكون الله قد أفرغ عليه صاعاً من نوره ، ومن عمل بها يكون قد أفرغ عليه صاعاً آخر ، ومن لزمها يكون قد استجاب سبحانه دعاءه الذي علمنا إياه **{ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا وَغُفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم الآية ٨ }** .

ونحن وباللغة الممكنة سنحاول أن نساهم في استظهارها واستبطانها بقدر ما يؤتينا الله تعالى من نوره **{ .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . سورة النور الآية ٤٠ }** عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير . ولقد تكلمنا وقد نتكلم غالباً بصيغة الجمع ، فقط لكون الإنسان له عدة أنفس وليس هو نفساً واحدة ، ولذلك تفصيل من أراده فليطلبه من مظانه .

وباللغة الممكنة سأعرض موضوعاً أصبح معروفاً ومألوفاً تقريباً عن الذرة والتركيب الذرية التي في الكون ، وسأعتبر عرضي لهذا الموضوع مداخلة نسبية تقريبية عن الظاهر والباطن المذكورين في الآية العظيمة الكريمة .

علمياً أصبح من الثوابت التي لا مجال فيها للشك ، أن جميع ما يقع تحت الحس أو البصر ، أو أية إمكانية من إمكانيات الرصد العلمي ، حتى الرصد العادي هو ذريٌّ ، أو هو بشكلٍ أو بآخر تركيب ذري ، من أدق ما في الكون إلى أعظم ما فيه من أجرام في الأرض أو في السماء .

ولكي لا نقع في مشكلة وحدة الكون ، إنطلاقاً من الآية ، يجب أن نفصل فصلاً مسبقاً في أذهاننا بين المزج بين الله وخلقهِ فيما يسمى وحدة الكون ، وبين وحدانيته واستقلاله عن مخلوقاته استقلالاً أحدياً لا يشاركه فيه شيء ولا يشاركه فيه خلق . فمن يقول بوحدة الكون ، هو جاهل حتى في معاني الظاهر ، كبرياء الله وعزته وعظمته التي لا تحاول ولا تطاول ، ناهيك بجعله عن الفارق الذي يستحيل قياسه بين الله الذي لا إله إلا هو وبين خلقه.

فبين الآية الكريمة وبين المفهوم الذري علاقة تبدأ من جزئيات الذرة في بواطنها ، ما عرف منها وما يمكن أن يعرف بعد ، إلى أعظم الأجرام في الكون بما فيه السماوات والأرض ، سواء بلغها أو لم يبلغها الرصد البشري ، وسواء بلغها بالقوة أو بالفعل ، فيجب أن نوقن أنها محكومة بهذه الآية العظيمة **{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية ٣ }** وبالآيتين التاليتين حيث تعتبران من روافدها ، وهما قوله عز وجل **{ دَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . سورة الأنعام الآيات : ( ١٠٢ - ١٠٣ ) }** وقوله سبحانه **{ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . سورة فصلت آية ٥٤ }** .

الشاهد في الآية الأولى قوله تعالى **{ .. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }**

**شَيْءٍ وَكَيْلٍ . {** وهذا يعني استقلاله تعالى في خلق الأشياء وكذلك استقلاله بكفائتها وتدبيرها . والشاهد في الآية الثانية قوله تعالى : **{ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . }** والإحاطة ، تعني تفاصيل الباطن والظاهر ، لأن كل جزيء من الشيء هو شيء كذلك ، وهكذا تكون إحاطته بالأشياء إحاطة المراقب الفاعل في بواطن الأجزاء وظواهرها وفي كلياتها ، لا يفوته منها من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . قوله تبارك وتعالى : **{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .** سورة يونس آية ٦١ .

ومما يساعد كذلك في تفسير الآية التي نحن بصددتها التي هي : **{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ .. }** الآية التي بعدها مباشرة ، وفيها قوله تعالى : **{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .** سورة الحديد آية ٤ .

هذه المعاني التي واكبناها حول آية سورة الحديد ، تؤكد قوة حضور الله وإحاطته وإشرافه على الكون والإنسان والجن والملائكة وجميع ما خلق سبحانه ، حضوراً وإحاطة وإشرافاً ظاهراً وباطناً يتناسب مع عظمته وجبروته وكبريائه من جهة ، ومن جهة ثانية مع درجات الشرف في أصل خلقته للناس وبقية الخلق ، ثم كذلك في تحولاتهم .

ولفهم ذلك بشكلٍ أوضح نذكر قوله تعالى : **{ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .** سورة التحريم آية ٤ .

وهو قول موجه حسب السياق لامرأتين من أزواج النبي (ص) هذا حسب الظاهر والتفسير المتداول ، وهو ممكن وصحيح ، إلا أنه حسب الباطن والحقيقة فهو موجه للتقلين : الإنس والجن ، ومفتاح التأويل فيه ، قوله تعالى : **{ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ }**  وهي بصيغة الجمع ، والقلوب تكون لأكثر من اثنين أو اثنتين ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فإن الخطاب يتناسب أكثر فأكثر مع هذين المجموعين من الخلق ، ربطاً بقدرة الله وهيمنته سبحانه . وهكذا فإن هذا التدرج في قوله تعالى : **{ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . }** هو حجة على ما قلناه عن التناسب في قوة حضوره سبحانه وإحاطته وإشرافه على خلقه . بسبب جلاله وكبريائه ، ولولا ذلك لكان تولى كذلك هو سبحانه الأمور التي يوليها لجبريل ثم حسب الأهمية لصالح المؤمنين والملائكة على درجاتهم . فإنه على كل شيء قدير ، وهو سبحانه ليس بحاجة لأحد من خلقه ، وفي جميع أصنافهم ومستوياتهم .

حتى إن هناك أمور وأشياء يربأ بأن يعهد بها حتى لهؤلاء المكرمين من خلقه : جبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، فهو يوظف لها أصنافاً من الشياطين تحت سلطة القهر والقوانين التي تمسك بنواصيهم ، وتحت الرقابة الشديدة وجهوزية العقوبات لمن يتلأأ منهم أو يزيغ عن أمر الله جلّت قدرته . نستفيد هذه المعاني وأكثر منها من قوله تعالى في سياق عرضه لملك سليمان وما آتاه سبحانه من عجائب التسخير في شتى الميادين :

**{ وَاسْلُيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . وَمِنْ**

الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .. سورة الأنبياء الآيات ( ٨١ - ٨٢ ) . { (

فعبارة { وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ } فيها إشارة إلى أنه سبحانه يعهد إلى الشياطين قاهراً ، مطاعاً ، حافظاً لهم وحافظاً منهم ، بأمور وأعمال وأشياء ينزه عنها كرام خلقه .

أما قول رسول الله (ص) : " بالله عرفت الله " . فهو كذلك أول وأعظم مفاتيح المعرفة . وإنما للتوصل إليه ، ينبغي في البداية الإذعان مختاراً ، بعد تأمل وتفكر ، هما أبرز شيم الإنسان ، وهما اللتان تميزانه على أنه إنسان عاقل ، وإذا أهمل الإنسان هاتين الشيمتين ، كان إنساناً غير عاقل .

فالإيمان بالله تعالى ، هو الإذعان لوجوده اعتماداً على آثار عظمته ، وهو إيمان غيبي بالنسبة لقدسية ذاته واحتجابه عن الأبصار ، ثم هو التصديق بما يصدر عنه سبحانه من إرسال رسل وإنزال تعاليم . قال تبارك وتعالى :

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة التغابن آية ١١ } .

#### التفكير والتأمل من مفاتيح المعرفة :

=====

قال سبحانه عن التفكير والتأمل مشيراً إلى كونهما من المفاتيح الأساسية للإيمان والمعارف ، وكذلك إلى كونهما الميزتين الأصليتين لأولي الألباب ، أي الناس العقلاء :

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . سورة آل عمران الآيات ( ١٩٠ - ١٩٤ ) } .

في الحقيقة ، إن في هذه الآيات الأربع ، للمتفكر والمتأمل ، ثروة معارف . فأولاً قرر سبحانه أن آثار عظمته وعجائب خلقه التي يسميها آيات ، لا يفهمها إلا العقلاء ، أي أولوا الألباب . وهؤلاء إنما كانوا عقلاء بذكرهم الله عز وجل سواء بقلوبهم أو ألسنتهم . وما داموا يذكرون الله ، فإن الله سيذكرهم بأحسن من ذكرهم ، بأن يفتح لهم بالمفاتيح التي يسرها لهم أبواب السماوات والأرض ، فيرون ببصائرهم من خلال التأمل والتفكير والاستنتاج ، كما بأم العين : حقائق فيها القيامة والحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار . كما ويسمعون نداء المنادي من أعماق قلوبهم وكذلك من أعماق الكون : أن آمنوا بربكم ، فيؤمنون ، ويجأرون إلى الله سبحانه بالدعاء ، رهبة وخشية من الحقائق التي يدركونها وأكثرها حقائق غيبية ، وإنما لها قوة الحضور ، وقوة المعاينة ، وكثيراً ما تكون المعاينة بالعقل أقوى وأثبت من

المعاينة بالعين (\*) ، وهذا أمر قد ثبت علمياً وبالتجربة بالنسبة لما يسمى خداع البصر ، أو عمى الألوان ، أو سرعة أو بطء الحركة أمام العين مما يؤثر على نسبية ضبط الحقيقة بالنسبة للمرئيات . أما الحجج والبراهين العقلية التي يتوصل إليها بالتفكير والتأمل ، لا سيما في مواجهة هذا الكون الهائل في اتساعه وعمقه وأبعاده ، وجماله وإتقانه ، ودقة ضبطه ودورانه ، ثم قصور الإنسان . رغم كل تقدمه ، عن إدراك اليسير اليسير من ظواهره فضلاً عن غيوبه وبواطنه ، فتكون حاسمة تطمئن إليها النفس أكثر من اطمئنانها للعين المجردة .

أما قوله تبارك وتعالى على لسان العقلاء ، أولي الألباب : **{ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ . سورة آل عمران الآية ١٩٣ }** . سمع هذا النداء رسول الله (ص) من جبرائيل قرآناً ، ثم أسمعه للخلق آياتٍ وحججاً هي على الأعناق . فأما أولوا الألباب فيقولون آمنا ، وأما من لم يؤمن فهو قد تخلى عن عقله ، ورهن نفسه بالطواغيت ، حتى لتعدو النفس كذلك طاغوتاً . كلما ابتعدت عن العقل الحقيقي ثم عن الله تبارك وتعالى . وذلك في قوله عز وجل ، وهو من مفاتيح المعارف الكبرى :

**{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة ( ٢٥٦ - ٢٥٧ ) }**

لا حجة للإنسان على ربه سبحانه وتعالى ، فقد خلقه مخيراً في قبول ربه وحبه بعد استعراض نعمه ، وبعد أن هداه وناداه بكل صوت ونغم ، من حنجرة الكنار أو البلبيل إلى صوت الرعد وأصوات القذائف الصاروخية ، إلى أصوات عالية فوق مستوى سمعه إذا سمعها تفجّر دماغه ، مثل صوت دوران الأرض أو اندفاعها واندفاع أقرانها في الفضاء ، ولكن الإنسان علم هذا الصوت بما علمه الله ، فكذلك كان عليه حجة مع ما

---

(\*) انظر ( الصورة الإبصارية في العقل والدماع ) مجلة العلوم - المجلد ١٠ العدد ٥ مايو / أيار ١٩٩٤ م .  
يسمع من الأصوات .

وناداه بكل منطق ، نادى سمعه وكذلك نادى بصره وجميع أحاسيسه ، وفوق كل ذلك نادى عقله .

فعلام الصمم وعلام العمى وعلام الموت ، والسمع متاح والبصر متاح والحياة متاحة .

**{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. }**

هذا القرار " اللاإكراه " هو على الإنسان حجة بالغة ، فهو في نفس الوقت تكريم له حيث لا يقاد بالغريزة قود من دونه من القرده وأنواع المسوخ وبقية أنواع الحيوان . كرمه الله عزت عزته ، وسخر له ما في السماوات والأرض جميعاً منه . قوله تبارك وتعالى : **{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . سورة الإسراء آية ٧٠ }** .

وقوله عز وجل : { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الجاثية آية ١٣ } .

ولنلاحظ قوله تعالى في آخر هذه الآية : { .. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } وفي القرآن الكريم تتكرر كلمة { يَتَفَكَّرُونَ } بلفظها أحد عشر مرة سوى مشتقاتها ، ومثلها تقريباً { أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ } ومشتقاتها ، وهذا غير العبارات والألفاظ التي تدعو إلى التدبر والنظر والتأمل ، وهي جميعاً متقاربة المعاني . وعلى هذا الأساس نعود للتدبر قوله عز وجل :

{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة الآية ٢٥٧ } .

ولفهم هذه الآية كفاية نستأنس بقوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . سورة الشمس الآيات ( ٧ - ١٠ ) } فنجد أن النور والظلام أرادهما الله تعالى رمزين للخير والشر والصلاح والباطل والحق والباطل والفجور والتقوى وغير ذلك من الأضداد التي خلق الله عليها هذا العالم ، ذلك كله إضافة إلى الحقيقة التي تعني عينية النور وعينية الظلام . وقد خلق الله مصاديق لهذين الضدين . سواء على سبيل الأصالة كالليل والنهار أو على سبيل الإمكان والتحول كما هي الحال في الإنسان .

وعلى هذا الأساس ، نجد أن هذه المتناقضات جميعها ، تتعاور الإنسان في حياته ، فهو يتعرض دائماً لمواجهات نورانية أحياناً وظلمانية أحياناً أخرى ، تتراوح بين الرمز والحقيقة . هنا يتضح التركيب الرائع للآية الكريمة : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. } فكلمة أخرجهم من ظلام أبدلهم مكانه نوراً ، يضاف إلى نور متاح ، وهكذا تتناقض مساحات الظلام بالنسبة لتدرج المؤمن في إيمانه ، ثم في تقربه ، ثم في يقينه ، إلى حين وصوله . حتى تنعدم ظلمات النفس فتصبح النفس نورانية مشرقة ، ويستمر الأمر كذلك إلى يوم القيامة ، حيث يبدو أنه يسود على الناس ظلام دامس ، فمن كان من المؤمنين لم يستكمل نوره في الدنيا ، فيدعو كما ذكر الله تعالى : { رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم الآية ٨ } . وهنا يشرق أكثر فأكثر معنى الآية الكريمة قوله جلَّ شأنه : { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . سورة الحديد الآيات ( ١٣ - ١٤ ) } .

كما ويتضح الشطر الآخر من الآية والذي هو قوله تعالى :

{ .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . سورة البقرة الآية ٢٥٧ } .

فكما أقبل المؤمنون على مساحات النور ، وتلافوا مساحات الظلام ، فأعانهم الله على ذلك وزادهم نوراً وهدى . كذلك ، ولكن بعكسهم أقبل الطاغوتيون على مساحات الظلام وتتكروا لنور الله ، لأياته وطاعته وتعاليمه ، فأصبح مثلهم كما قال سبحانه فيهم :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . سورة النور الآيات ( ٣٩ - ٤٠ ) } .

وفي نفس منهجية الأمر بالتفكر ، ينبغي التوقف أمام قوله تعالى : { .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ .. } مقابل قوله تعالى : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ .. } . فالله عز وجل ليس هو الذي يضل ويربك أحداً من خلقه إذا اختار هذا المخلوق ربّه وهدايته وطاعته ، إن الذي يضيّع الإنسان وقد يمزقه ويحرقه مؤبداً في الآخرة ، وقد يحصل له ذلك في الدنيا والآخرة ، هو طاغوته ، أو طاغيته ، وقد يكون طاغوته نفسه الأمّارة ، فضلا عن كثرة الطواغيت في ترادف المجتمعات البشرية ، متمثلة في مراكز القوى التي غالباً ما يكون بيدها السلطان الدنيوي :

الحكومات ، الأثرياء ، المتنفذين ، اللصوص القانونيين ، أعني المشرعين لأنفسهم ولأتباعهم قوانين تبيح لهم سرقة الناس وإفقارهم ومنع حقوقهم والإثراء غير المشروع ، وبناء القصور على القبور ، ولا سيما قبور الضعفاء الذين لا يتقنون فن السقوط مع الساقطين ، من المافيات المحلية أو العالمية .

طلاب الدنيا هؤلاء يخرجهم طواغيتهم من النور المتاح إلى ظلمات الجهل والكفر والطمع والبهيمية ، ولو كانوا يحملون أعلى الشهادات التي تمنحها الجامعات الصهيونية أو المبطنة بالصهيونية . وهؤلاء يتخلى عنهم الله سبحانه ويمقتهم . وبخليته عنهم ومقتهم لهم يصبحون بلا هادٍ ولا معين ، ولا مرشد ولا نصير .

ولأنه ممنوع عليهم حتى أن يضلوا بدون إذنه سبحانه ، وممنوع عليهم أن يتخذوا قراراً قبل قراره ، أو حكماً قبل حكمه ، لذلك تسبقهم مشيئته ، فيضلهم ويتركهم في ظلماتهم يتزاحمون . ذلك معنى قوله تعالى : { .. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ . سورة الزمر الآيات ( ٣٦ - ٣٧ ) } . وهي معادلة إلهية منطقية على الفريقين : طلبة النور الذين ينصرهم الله ، وطلبة الظلام الذين يخذلهم الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

## الصدق والتصديق من مفاتيح المعرفة :

جاء في لسان العرب لإبن منظور : صَدَقَ : الصِدْقُ نقيض الكذب ، صدق يصدق صدقاً وصدقاً وتصدقاً : وصدقته : قبل قوله . وصدقته الحديث : أنبأ بالصدق . وفي التنزيل : { وَآمُوهُ هُ صِدْقَةً } أي مبالغة في الصدق والتصديق .

وفي معاني الإيمان ، أنه التصديق بالله وبكلام الله والصدق في الإخلاص له سبحانه ، أي عدم خيانتة ، بإهمال قول من أقواله ، أو بالإصرار على ذنب أو على معصية . هذا بشكل عام ، ولكن لاستفادة أهم مفاتيح المعرفة في هذا الباب ، ينبغي التوقف عند الآيات القرآنية ، التي تستقطب معاني وموضوعات لفظتي الصدق والتصديق .

قال تبارك وتعالى في جملة استعراضه لعناصر الإيمان وشروطه لقبول صلاة المصلين : { وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيُّومَ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ . سورة المعارج الآيات ( ٢٦ - ٣٥ ) } .

والتصديق بيوم الدين أو يوم الفصل أو يوم القيامة والحساب ، شرط أساسي قرآني يتوقف عليه تصنيف الناس بين مؤمن وكافر . فمن يشك في قيام الساعة وما يرافقها من حساب ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار ، يخرج من التصديق إلى الكذب ، حتى ولو كان يؤمن بالله تبارك وتعالى ، فشأنه شأن المشركين ، الذين يرفضون أخبار الله بواسطة كتبه ورسله . وقد ضرب سبحانه مثلاً على هذا الصنف من ( المؤمنين ) في سورة الكهف : رجلاً أتاه الله حرث الدنيا : حدائق ومالاً وأولاداً وجاهاً بين الناس وأنصاراً . أفصح عن معتقده ، وهو يحاور صاحباً له ، كما جاء في التنزيل العزيز :

{ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . سورة الكهف الآيات ( ٣٥ - ٣٨ ) } .

فالرجل في حالة شك وتردد ، فيما يتعلق بعقيدته ، غير مستقر في طاعته لربه ولا مصدق بكلام الله عن قيام الساعة ، وفناء الأرض ومن عليها ، وهو أعلن بصريح العبارة عن شكه بالقيامة بقوله : { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. } علماً أن الإجماع على القيامة في الكتب المنزلة أمر شائع ومعروف عند جميع الناس ، وهو في القرآن الكريم يتكرر ذكره عشرات المرات . وهذا سياق من السياقات التي يذكر فيها دمار الأرض ثم مصير الإنسان بعدها إما إلى عذاب محتوم أو إلى نعيم محتوم ، قوله تعالى في آخر سورة الفجر :

{ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يَا لَئِنِّي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا . يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وادْخُلِي

**جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات ( ٢١ - ٣٠ ) .**

والرجل الذي شكك بقيام الساعة ، خسر بتكذيبه الآيات ، وتكذيبه منطق التأمل في النفس والفطرة والكون ، ومنطق التأمل في أقوال الله ، ومن أصدق من الله قيلا وأصدق حديثا ، كفر وطمع فوق ضلالته ، بمزيد من العطاء والإنعام ، إذا قامت الساعة وردَّ إلى ربه الذي يؤمن به على مزاجه وبحسب هواه ، قائلاً : **{ .. وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا }** .

هذا إنسان حَكَمَ الله عليه بالكفر وكذلك بالشرك على لسان صاحبه الذي رضي الله حكمه ، قال : **{ أَكْفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ... لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا }** ، أما الكفر ، فهو برِّ قول الله عز وجل أو بتجاهله أو بعدم تصديقه . وواحد من هذه الأمور الثلاثة يكفي لهدم إيمان المرء وتخليده في العذاب ، وأما الشرك الذي يوصل إلى نفس النتيجة ، فهو إقحام رأيه الشخصي في الحكم على الأمور ، وكذلك الاستجابة لهوى نفسه . أما الخلاصة القرآنية الرائعة لهذه الواقعة — المثل ، فهي أن الرجل فوجيء يوماً بانهيار دنياه وأماله وأحلامه دفعة واحدة ، وذلك بخسران مواسمه وخسران ماله ، مع إشارات إلى أن هذه النكبة التي عوقب بها تستقطب دنياه وأخرته . ويعقب سبحانه على نكبة الرجل ، بهذه الكلمات التي هي خلاصة الخلاصة ، وعاقبة التجبر والوثوق بغير الله من مراكز القوى الدنيوية ، قوله تبارك وتعالى :

**{ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا . سورة الكهف الآيات ( ٤٣ - ٤٤ ) . }**

وصحيح أن التصديق باليوم الآخر ، أو قيام الساعة ، هو شرط أساسي لقبول الإيمان عند الله سبحانه . إلا أن هناك مقدمات واجبة من أنواع الصدق والتصديق ، تستقطب حياة الإنسان وعواطفه وأفكاره وأعماله ، فضلاً عن اعتقاده ومنهجيته المترتبة على هذا الاعتقاد .

من ذلك ، التصديق بأسماء الله الحسنى ، وبفاعلياتها ، لا سيما ما ذكر منها في القرآن الكريم تصريحاً ، أو ما خبيء في بعض آياته وفي أحرفه النورانية ، لغة عالم الملكوت . على أن الله سبحانه يكشف الغطاء عن العبارة وعن الإشارة ، ويبيد ما يشاء من الحقائق ، لمن يشاء ويختار من عبادته الأكثر صدقاً وتصديقاً . لكلٍ بنسبة صفائه وإخلاصه ، وجهاده، والله أكرم ، والله أعلم وأحكم ، وهو أرحم الراحمين . قال تبارك وتعالى :

**{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . سورة الليل الآيات ( ٥ - ٦ ) . }**

نذكر بهذه الآية كمثال على الواجب الإلزامي بمقدمات الصدق والتصديق ، بعد أن تعرضنا لها كفاية بفضل من الله أنفأ .

ولمدى أهمية الصدق في المواقف ، وفي المقدمات والحيثيات والنتائج فإن الله عز وجل ، تعليماً لرسوله (ص) ولكل مؤمن ومؤمنة ، ورحمة منه سبحانه ، قد أنزل إلينا في جملة روائع ما أنزل . هذا الدعاء : **{ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا . }**

سورة الاسراء آية ٨٠ { فِي ظِلِّ إِخْطَارِهِ لِلْجَمِيعِ : { قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي أَوْلَىٰ دُعَاؤِكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا . سورة الفرقان آية ٧٧ } . وهذا من مفاتيح المعرفة .

ومن مفاتيحها أيضاً في مجالات العرفان عامة وضمنها الصدق والتصديق ، وبصيغة الدعاء الذي جعله كذلك أسلوباً من أروع أساليب التعليم والتذكير ، قوله عز شأنه ، حديثاً عما دعا به عبده ورسوله إبراهيم (ع) :

{ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . سورة الشعراء الآيات ( ٨٣ - ٨٩ ) } .

فمن وفقه الله سبحانه لمثل هذه المفاتيح من مفاتيح السماوات والأرض ، فيكون فضل الله عليه عظيماً . أولاً لأنها لغة القرآن ، يعني كلام الله بعزته وعظمته ، ومعلوم أن الفارق بين كلام الله جل شأنه وبين كلام المخلوقين ، هو كالفارق بينه سبحانه وبين المخلوقين ، أي فارق عظيم بغير قياس . وثانياً ، ولأن الكلام كلام الله فهو يختزن إضافة إلى المعاني الغزيرة المباركة ، أسراراً من الطاقات الفاعلة المحركة في ذات الداعي وفيما حوله ، نفعاً ودفعاً ، وشفاءً ، وغير ذلك من المصالح التي هي نعم الله تعالى ، التي لا تعد ولا تحصى { .. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. سورة إبراهيم الآية ٣٤ } .

وصفات هذا الكلام القرآني يستحيل أن تتوفر في كلام أي مخلوق ، مهما كانت درجة هذا المخلوق في نفسه وعند ربه . ذلك لأن المخلوق ، مهما عظم ومهما علم ، فإنه يبقى فقيراً إلى رحمة ربه ، محدوداً في ذاته ، محدوداً في صفاته وطاقاته .

فقوله { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . سورة الشعراء الآية ٨٤ } أي في الناس وفي الجن والملائكة ، ابتداء من نفضلك عليّ بالإيجاد أو بالإيجاب وإلى قيام الساعة وبعد قيام الساعة في الخالدين .

وقد ذكر سبحانه في كتابه المجيد ، أمثالاً من تفضله على أهل طاعته ، واستجابته لهم . فقد عقب بعد توصيف المخلصين من أوليائه بقوله عز من قائل : { وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا . سورة مريم الآية ٥٠ } . وقوله تبارك وتعالى : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ . سورة يونس الآية ٢ } . وقوله عز شأنه : { .. أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . سورة البقرة آية ١٧٧ } .

فقوله تعالى : { .. أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ .. } وقوله : { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا .. } يؤيدان إلى نفس المعنى والنتيجة ، فقد ورد كذلك { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ . سورة القمر الآية ٥٥ } وكل ذلك كناية عن قيمة الصدق في المواقف والإخلاص في الولاء والحب له سبحانه ، والثبات على الجهادين الأكبر والأصغر : مجاهدة النفس ومجاهدة أعداء الله . وبما أنه سبحانه له الأسماء الحسنى وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، فجزاؤه يتناسب مع كرمه ، وقدرته ورحمته ، لذلك هو يثبتهم ويزيدهم تثبيتاً ونصراً في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فبسبوغ النعم وإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وأما في الآخرة فالمستفاد من

قوله عز وجل: { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة السجدة آية ١٧ } .

فإذا كانت مفاتيح العرفان أو المعرفة ، تؤدي إلى مضامين هذه الآية الكريمة { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. } فكم هو جدير بالإنسان أن يحكم عقله ويفكر ويتأمل ليجد نفسه وبالضرورة ، أحرص ما يكون على أن يكون من أهل العرفان ، أي من أولياء الله الموحدين ، الناجين من كلا الشركيين : الظاهر والخفي ، المتمسكين بكتاب الله وحبلة المتين ، العاملين بآياته ، الواعظين أنفسهم وهم يشهدون هيجان طوفان الحضارة ، والأمواج المتلاطمة بالصراع على المكاسب والأموال والعقارات ، والتزامم والتحاسد والتنازير حتى بين أدياء الدين فضلاً عن الغافلين والمستدنيين .. وكتاب الله ينذرهم :

{ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . سورة الذاريات الآيات ( ٥٠ - ٥١ ) } أما وعده سبحانه الذي اتخذ أهل العرفان نهجاً وديناً فهو قوله : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . سورة القصص آية ٨٣ } .

إلا أنه دون الوصول إلى رضى الله ورضوانه ، وقبوله وحيه ، مخاطر ومحاذير ، وهو سبحانه قد نوه بهذا في سورة يدل اسمها على خطورة مضامينها ، وعلى الشباك والفخاخ التي تنصبها للإنسان نفسه قبل كل شيء ، ثم شياطين الجن ثم شياطين الإنس ، والنفس هي الأدهى في الثلاثة ، وليس شياطين الإنس ، فهم غالباً تحت السمع والبصر وعامة الأحاسيس . وليس شياطين الجن ، ولو كان خفاؤهم يصعب الصراع معهم كما يخيل لغير القرآنيين ، ولكن من يعلم ولو القليل عن قوة حضور الله عز وجل مع الإنسان وقوة حضور ملائكته بإذنه ، ومدى رعب الشياطين من مجرد ذكر الله أو ذكر أي اسم من اسمائه الحسنی ، أو مجرد قراءة شيء من القرآن ، يطمئن بالأعلى على نفسه ومتعلقاته ، يدرك الحقيقة التي أثبتتها لنا الله سبحانه ، وهي قوله تعالى : { .. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . سورة النساء آية ٧٦ } .

وقد تكلمنا في فصل سابق عن الحصانة التي يحصن الله بها عبده ووليّه ما دام ذاكراً شاكراً لربه متمسكاً بكتابه متديراً آياته ، مقلعاً عن الذنوب والمعاصي ، تائباً منيباً والله يحب التوابين .

أما إذا كان من مصاديق الآيتين المخيفتين ، قوله عزّ شأنه : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَسَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآيات ( ١٧٥ - ١٧٦ ) } . فلا تنفعه شفاعة ولا فدية ، وكفى بالآيتين المخيفتين به تعريفاً .

أما السورة التي ذكرنا أنها تتضمن خطراً على المسافر إلى الله ومحاذير ، إذا هو سقط أو رسب في الامتحانات الدنيوية ، فتلك هي سورة العنكبوت .

وقبل أن أتناول الآية أو الآيات ذات الصلة بالموضوع ، أريد بإذنه تعالى ، من جهة أن أجلو اعتقاداً عند العامة ، عن فوائد العنكبوت واستلطافهم لها . وهو بخلاف حقيقتها ، إذ أن حقيقتها تستدعي الذم ومن أصدق من الله قبلاً ومن أصدق من الله حديثاً ، حيث ذمها ممثلاً بها أهل الشرك ، أسوأ الشرك ، الذين هم

في لعنة الله وسخط الله وعاقبتهم عذاب الجحيم مخلدين فيه ، وذلك قوله جلّت قدرته : **{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .** سورة العنكبوت آية ٤١ { ولو كانوا يعلمون أيسط العلم عن العنكبوت وهو أنها تصطاد في شباكها في جملة ما تصطاد زوجها وأولادها ، وأكثر ضحاياها من الحشرات المفيدة والجميلة مثل النحل وأنواع الفراش . ومن جهة ثانية أن أردّ سبب اعتقادهم البريء بلطفها وربما بقدسيتها ، وهو أنها - كما ثبت في الأخبار - نسجت على باب الغار الذي اختبأ فيه رسول الله وصاحبه أبو بكر الصديق ، نسيجاً سريعاً جعل المطاردين لرسول الله (ص) يحسمون أمرهم أنه لو كان دخل الغار أحد لكان هتك هذا النسيج العنكبوتي فرجعوا خائبين . وأنجى الله رسوله وصاحبه .

والمفارقة هنا ، هي أنهم جعلوا الفضل للعنكبوت ، أو أنهم جعلوا لها من الفضل شيئاً ، والحق أنه ليس لها من الفضل شيء ، إلا إذا كان للشياطين الذين سخرهم الله لسليمان يصنعون له ويبنون ويغوصون ويعملون عملاً دون ذلك ، مقهورين لا يملكون خياراً ، ويقول فيهم : **{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ .** سورة سبأ آية ١٢ .

أما ما له صلة بالمخاطر والمحاذير التي تعترض المسافرين من أهل العرفان عبر الدرجات والمعارج ، إلى ربهم العظيم الحليم الكريم ، فهو مطلع السورة ، قوله تعالى : **{ الم . أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .** سورة العنكبوت الآيات ( ١ - ٣ ) .

قبل أن أتناول بداية الآيات ، ألفت الانتباه إلى أن في قوله تعالى : **{ فَلَيَعْلَمَنَّ }** ثلاث قراءات : الأولى هي القراءة المتداولة ، أي لكي يعلم الله أي يحصل عنده العلم وسواء كان لها تخريج معنوي أو لا ، من حيث أنه سبحانه يعلم ما بين أيديهم ، وما خلفهم ، وما قبلهم وما بعدهم وما بين ذلك كله ، فإن القراءة الثانية والثالثة أولى من الأولى ، وهما : **{ فَلَيَعْلَمَنَّ }** الله ، بوجهيها : تعليمهم العلم ووضع علامات عليهم تعرفهم بها ملائكة الله سبحانه . والثالثة **{ وَلَيَعْلَمَنَّ }** كذلك بوجهيها : الإعلام أي إعطاء العلم والإعلام أي جعل المرء معلماً أي ذا علامة أو سمة . وهكذا عظمة القرآن وعمقه وغناه .

أما قوله تعالى : **{ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }** ففيها قراءة واحدة إضافة إلى القراءة المتداولة هي : **{ فَلَيَعْلَمَنَّ }** : من وضع العلامة أو السمة ، وهذه تكون لتمييز الأشقياء والمجرمين بأنواعهم وأصنافهم من حيث الكفر أو الشرك أو النفاق أو الكذب . قال تعالى : **{ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ .** سورة الرحمن آية ٤١ .

وقوله تعالى يفتنون ، هنا معناها يمتحنون بأنواع الامتحانات فيكون معنى الآية الكريمة ، أحسب الناس ، أي أظنّ الناس أن يتركوا على دعواهم في الإيمان ، أو على ادعائهم الإيمان ، دون أن تجري لهم امتحاناً بعد امتحان ، ويفتنون هنا من فتن الدرهم ، أي فركه بيده أو فتن الشيء في النار ليعلم معدنه . وهي من أطف الكلام تعبيراً عن أنواع البلاءات التي يعرض الله لها المؤمنين في تدرجهم إلى حبه ورضوانه . والحقيقة أن الصدق والتصديق في المسار ، هما المعيار الأساسي لإمكان الاستمرار بدون هفوات

وسقطات كبيرة ، من قبل المؤمن المبتلى . على أن الله تعالى يعين على الصبر بلطفه وبتسديده ، ولا يترك عبده فريسة للظن أو الشك أو الارتباك ، إذا كان حزم أمره وعزم على الهجرة إلى ربه الكريم من بيت نفسه المظلم ، إلى عالم آخر سرعان ما يتبين له اختلافه الشديد عن العالم الذي كان فيه .

على أن العالمين هذين لا يختلفان مكاناً ولا تركيباً من حيث ناسهم والأرض والبيوت والشوارع ، وإنما تختلف الرؤية والاحساس والمشاعر . ففي العالم العادي السابق على عزيمة السفر ، ظلمة في النفس وضيق ، وشعور بتفاهة كل ما يحيط بالإنسان من عادات الناس ، ومجالسهم وطموحاتهم ، وطرق تفكيرهم .. إلى العالم الآخر يسافر أو يهاجر ، فيختلف كل شيء ، حتى الصحبة ونوعية الصحبة ، يبسر الله لمحبه وقاصده ، صحاباً آخرين ، خلصاً ، يذكرون الله ، أصفياء أنقياء ، حتى ليعجب من وجودهم في المجتمع ، بعد إذ كان يظن الفساد والسطحية والعمى في جميع من يعاشر من الناس ، ولا سيما الطبقة التي تسمى مثقفة ، وهذه من المفارقات ، التي إنشأها الله ، نحاول أن نعقد لها فصلاً خاصاً بها تحت عنوان : لماذا الخلل في الطبقة المثقفة . طبعاً حسب العرف العادي والأكاديمي للمعرفة .

وينبغي أن نوضح أن ما نعنيه من كلمة السفر أو الهجرة ليس المقصود بهما الانتقال من مكان إلى مكان ، فقد يسافر الإنسان إلى ربه أو يهاجر قاصداً إياه سبحانه ، من مترٍ مربعٍ هو واقف فيه ، فيهاجر أو يسافر ويبقى في نفس المتر المربع الذي هو فيه . فالمعول في هذا السفر أو الهجرة ، على المعاني والتوجه النفسي والفكري ، والانخلاع تدريجياً أو دفعياً ، من دوائر الجذب والمسطحات الحضارية بمفهومها العرفي المبني على فقاعات الاعتقاد ، وعلى برامج هجينة في مجالات التعليم الأكاديمي ، ما زالت تمضي نزولاً إلى حضيض الكفر ونسيان مجد الله وعزة الله وحاكمية الله ، وهو سبحانه لها بالمرصاد ، فنكأ بالأمراض والحروب ورعونة الاستعمار المادي والفكري ، وابتدال التبعية للقوى الغاشمة في جميع أو في معظم أنحاء العالم ، إلا من رحم ربك .

وكل هذا يندرج على صعيد المجاميع الإنسانية والأفراد ، تحت رصد آيات سورة العنكبوت قوله تعالى : { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } . وهنا ، وعلين هذا الأساس ، وعملاً بالغنى القرآني ، يفهم معنى يفتنون أنه الابتلاء بالفتن ، مثل الحروب والويلات الاقتصادية والغلاء وأنواع الظلم والقهر من قبل طغاة العالم .

وعوداً إلى معنى السفر أو الهجرة ، أو حتى الرجوع إلى الله تبارك وتعالى ، نذكر بأن الله عز وجل لا يحدُّه مكان ولا زمان ، ولنتأمل بهذا الصدد في قوله عزت عظمته : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } . سورة الزخرف آية ٨٤ { وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : { .. وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . سورة الحديد آية ٤ { وَقَوْلِهِ عَزَّ شَأْنَهُ : { .. مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ .. سورة المجادلة آية ٧ { ولنأخذ آية النفس مطمئنة نحاول بها أن نلقي الضوء على مفهوم السفر إلى الله أو الهجرة أو الرجوع إليه سبحانه . قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخُلِي جَنَّتِي } . سورة الفجر ( ٢٧ - ٣٠ ) .

هذه الآية الكريمة لها مفهومان تستفاد منهما قضية المسافرين إلى الله : المفهوم الأول ، وعلى أساس أن تكون النفس مطمئنة أي صِدِّيقَةٌ يعني صادقة ومصدِّقة ، صادقة اليقين ، ثابتة على عهد الله

ومواريقه ومصدقة بأنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه ووعدته ووعدته ، كمثل قوله تبارك وتعالى : **{ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .** سورة القصص آية ٦١ } ثم كانت مطمئنة إلى عملها وصلاحتها وإخلاصها لله عز وجل ولدينه ، تائبة منيية ، مشتاقه إلى ربها والحياة الآخرة . صابرة بالله ، واثقة به ، متوكلة عليه ... هذه النفس وبالمفهوم الأول للآية : **{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... }** تدعى من قبل الله وهي في الحياة الدنيا تمارس نشاطها ولو في زهرة العمر وقمة الصبا والشباب ، تدعى إلى ربها : **{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . }** فهو معك قريب رقيب وحافظ ومجيب ورحمان وراحم ، ودافع عنك ومدافع ، أرجعي إليه لا تنسي ذكره وشكره والثقة به ، حاولي أن لا تنسيه ما دمت يقظة ، وإياك أن ترجعي إليه أو تلجئي إليه وأنت مضطربة ، إعتدي عليه واهدئي ، وهدي من انفعالك وتأزمك وغضباتك لغير الله ، هو الله سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد ، هو معكم أينما كنتم ، وعلى هذا الأساس أرجعي إليه راضية بحكمه وحكمه العدل ، وحكمه الرحمة للمسترحمين ، وحكمه الكرم لسائليه ، وحكمه أن يمتحنك حتى بشتى البلاءات لتتجحي وتفوزي بالدرجات العلى ، في الدنيا ، وفي ما ينتظر في الآخرة ، ولو وجدت في ذلك صعوبات ، فكوني بها راضية ، ولو عانيت من أوجاعٍ عارضة ، فكوني بها راضية ، ولو عانيت من بعض الحاجة ، إذا قدر عليك الرزق فكوني راضية ، لأنه هو سبحانه معك وهو حسبك ، وأيُّ غنىٍّ أعظم من هذا الغنى الحاضر الناظر الجاهز للعون والغوث والإعزاز ، بوجود الله وحضور عزته ، اعتقدي بذلك ولن تشعري بجوع مع عدم الطعام ، ولن تحتاجي لمتاع أو أي ضرورة مع قلة المال ، **{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ .. }** سورة الزمر آية ٣٦ } وعلى هذه الأسس كذلك أرجعي إليه وتوجهي إلى وجهه الكريم القريب الحبيب **{ مَرْضِيَّةً }** منه ، راضياً هو عنك ، استغفريه واسأليه العفو والعافية ، تجديه راضياً عنك فعودي إليه سبحانه ، أرجعي إليه ، وادخلي في عباده في الحياة الدنيا ، عباده الصالحين ، وعباده المخلصين ، ونعم الصحاب ، إذا كانوا ممن تصاحبين وأكثرين من قولك ، ومن القلب : **الحمد لله رب العالمين .**

أما المفهوم الثاني للآية الكريمة ، فهو المفهوم المتداول عرفاً وليس عرفاناً . وهو أن مفعول هذه الآية ومضامينها ، وخطابها ، إنما يكون بعد الموت . وهذا صحيح ، إلا أن اعتماده فقط يشكل بترأ للحقيقة ، التي فرضت في الآية ، أن تكون مستقطبة للحياتين : الدنيا والآخرة ، بفضلٍ ورحمةٍ وكرمٍ من ربنا الله **رب العالمين .**

وهكذا ينبغي أن نفهم أن مواكبته سبحانه للأنفس ، كذلك كما هي في الآخرة ، هي في الحياة الدنيا ، وهي ما بينهما ، وإنما على مستويات عزته وكبريائه ورحمته . ولكل مقام مقال . فهو في المفهوم الثاني ، وبقية المفاهيم وبدون حصر : **{ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .** سورة غافر الآيات ( ١٥ - ١٦ ) .

هكذا ، وبدون نفس مطمئنة ، لا يُنال رضى النفس ولا يُنال رضى الله ، بل النقيضان اللذان يشكلان خسارة الأبد وندامة الأبد وعذاب الأبد ، وهما نزاع النفس بدون موت ، حالة من الإختناق المستمر أو الإحتراق المستمر — نعوذ بالله وبه نستجير — ، وغضب الله أو سخطه ، وذلك يعني الجحيم . **{ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ .** سورة الأحقاف آية ١٩ } وبدون صدق وتصديق ، صدق مع الله سبحانه وتصديق لمضامين قرآنه المجيد ، فلا نفس مطمئنة .. ولا راضية ولا مرضية .

أما الصدق مع الله ، فهو في قلب لا يزاحم عزة الله فيه مخلوق ، ولا يكون فيه لغير الله حب ، حب الآخرين ، يكون بما يفيض على جوانب القلب من حب الله . وأما التصديق بمضامين كتابه ، فيكون بتدبر آياته كما أمر وبفهمها وليس ببغاوية تلاوتها وتجويدها .

التجويد ، هذا المرض المستشري ، الذي يحتل مكانة العقل والفهم والتأمل والتدبر ، وهو اختراع ما أنزل الله به من سلطان . بلى للخشوع في التلاوة ، وبلى للترتيل ، وأما تعليم التشدق والتعثر بالآيات والكلمات والحروف بدون فهم ولا توقف ولو يسير أمام المعاني فهو ديدن قوم قصرت علومهم وهمهم عن تدبر القرآن كما أمر الله سبحانه ، فراحوا يتنافسون بفتح مدارس لتقديم هذا البديل الضحل الذي اسمه التجويد أو التغني باللسن ببغاوات .

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . سورة محمد آية ٢٤ } .

وصفة الصدق التي يريد الله تعالى في عباده ، ليست من الصفات العادية عند المؤمنين ، وإنما هي من صفات أهل اليقين . فقد لا يصدق المؤمن في عهد من عهوده مع ربه فيغدو من الفاسقين . قال تبارك وتعالى : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... سورة الأحزاب آية ٢٣ } ولم يقل سبحانه : المؤمنون صدقوا ما عاهدوا الله ، . والحقيقة أن جميع الناس ذوا عهود مع الله ، ولا سيما منهم المؤمنون .

أما الناس ففي عهدهم مع الله يوم الإشهاد : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ... سورة الأعراف آية ١٧٢ } . أما المؤمنون فجملة عهود الله عز وجل وموآثيقه معهم ، وهي جملة الدين بما فيه الأوامر والنواهي ووجوب الطاعات منها مثلاً قوله عز وجل : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . سورة يس الآيات ( ٦٠ — ٦١ ) } وعبادة الشيطان طاعته . وقوله تعالى حاكماً بالفسوق على من لا يصدق ما عاهد الله عليه ويقطع ما أمر الله به أن يوصل : { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . سورة البقرة آية ٢٧ } .

والله سبحانه إذ يعدد أركان الإيمان عند أهل طاعته المرضيين المقربين ، يقول : { وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . سورة الأحزاب آية ٣٥ } .

وعن تصديق البعث والنشور والتصديق بالجنة والنار ، يقص واقعة من وقائع الآخرة ، تأخذ بأنفاس قارئ القرآن ومشاعره ، فيزداد يقيناً وتصديقاً ، وصدقاً مع ربه الكريم ، وصدقاً مع الناس في دعوتهم إلى الله واليوم الآخر وفي كل تعامل معهم ، إذ أن نقيض الصدق ، الكذب والكفر والفسوق . يقول تبارك وتعالى في آيات جميلات الوقع في النفوس الصافية ، محدثاً عن صحاب في مجلس من مجالسهم في جنة الخلد يتذكرون فيه أخبار الدنيا ، ونحن نختصر بدءاً بكلام أحدهم :

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَبْنُكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ . أَنَذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لُتْرَدِينَ . وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . سورة الصافات الآيات ( ٥١ - ٥٧ ) }

ومطلبنا في هذه الآيات ، هو محور الواقعة ، التي تربط أحداثها بين الدنيا والآخرة وهو قول الكافر لصاحبه المؤمن : **{ أَنْتَ لِمَنْ الْمُصَدِّقِينَ }** . إذ على التصديق أو عدمه يكون المصير إما إلى جنة إما إلى نار .

أما عن نتائج الصدق ، وما يترتب عليه من عطاءات وتوفيق وكشف وتجليات وكرامات وخوارق ، فالحديث طويل ، ومنه ما يقال ، ومنه ما لا يقال . أما ما يجب قوله أو يجوز ، فهو ما كان بإذن من الله تعالى للعارفين ، ذلك بعد أن تستقر نفوسهم عبر الرحلة الصعبة الميمونة ، فيحدثون أو يكتبون ما فيه نفع وسداد ورشاد للمؤمنين خاصة وللناس عامة . وأما ما يمنع قوله ، فهو ما كان في منزلة الأسرار بين الله وبين أصفياه ، وهي أسرار لسببين : سبب اختصاص تحت عنوان الآية الكريمة قوله تعالى :

**{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . سورة القصص آية ٦٨ }** والسبب الآخر هو عدم قدرة الناس الذين لم يرتاضوا رياضة الصدق والتصديق تقريباً وتعبداً لله جل ثناؤه ، على استيعاب أو حتى على قبول الكلام عن بعض الكشوف أو التجليات أو الكرامات التي يتفضل بها الله من واسع علمه وعظيم قدرته وجليل لطفه ، ومن بروق جماله ، ورحابة ملكه وروعة مخبأته ... على عبد من فقراء عباده المطيعين والمغمورين في أكثر حالاتهم أو حتى في أسمائهم وكناهم ، إلا من أراد الله سبحانه إظهاره في جانب من جوانب تميزه ، أو سبيل أو أكثر من سبل الدعوة إلى ربه ذي الجلال والإكرام .

وقد يكسون المتحاملون على أخبار العرفانيين ، من أكثر الناس إيماناً وعلماً ظاهرياً ، وصلاحاً وتقوى ، وإخلاصاً لله وجهاداً في سبيله ، وقد تكون منزلتهم عند الله في الدرجات العلى ، وقد يكونون حتى من الأنبياء والمرسلين . وأفضل مثال على عدم قدرتهم على تحمل سلوك العارفين قصة موسى (ع) وعدم تحمله عرفان صاحبه العالم ، ثم قصة مريم (ع) ملفتين إلى أن الله سبحانه رغم كل الكرامات التي ذكرها عنها أبقى أسراراً في مثل قوله تعالى : **{ وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا . سورة آل عمران آية ٣٧ }** يأتيها هذا الأمر — كما هو فهمه الظاهري — فور ولادتها وهي نفساء ، أضعف ما تكون المرأة في هذه الحال . في وقت كان يأتيها طعامها جاهزاً وبدون أي علاج له أو عناء في تدبيره وإعداده : **{ .. كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة مريم آية ٣٧ }** يأتيها طعامها هكذا من عند الله الرؤوف الرحيم بها وهي بعد ، في كامل قواها ونشاطها ولم يكلفها من العناء شيئاً . فكيف يكلفها سبحانه مشقة هزّ نخلة بغية إسقاط بعض رطبها ، وذلك يلحق العياء حتى بالرجل القوي . ومن أجل إبداء بعض كراماتها اتخذها بعض الأقوام إلهة هي وابنها عليهما السلام ، ولذلك قال سبحانه فيهما وإنما مركزاً على أهمية الصدق والتصديق في السيدة الكريمة العذراء **{ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . سورة المائدة آية ٧٥ }** .

وفي جملة العبر التي من أجلها سقنا هذا المثل ، نذكر أن بعض العرفانيين يدعون فهم قوله تعالى : **{ وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ... }** استبطاناً للآية ومفرداتها ، مع الحفاظ على حجية الظاهر . وذلك تفضل من الله عليهم وتخصيص لا يحط من شأن العلماء ولا حتى الأنبياء الذين لم يؤتهم الله سر ذلك . كما سنرى في قصة موسى وصاحبه عليهما السلام . ولكن يجدر بنا أن لا ننسى أن الله سبحانه أتى محمداً (ص) فوق نبوته وتكليفه بالرسالة الميمونة الخاتمة ، أسراراً ، لم يبدها إلا لقلّة قليلة جداً من أصحابه ، وفي مقدمتهم

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي قال فيه : ( أنا مدينة العلم وعلي بابها ) لذلك يعتبر هذا الإمام الذي شغل الأولين والآخرين ، بصفاته الفذة ومناقبه الفريدة ، وعلمه وفقهه وقضائه وفروسيته وأسراره وزهده ، يعتبر بحق إمام العارفين وإمام الصوفيين وإمام العابدين ، وقائد الغر الميامين .

وقد عهد الإمام علي كرم الله وجهه بهذه الأسرار إلى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام وإلى جملة أهل بيته الميامين الأطهار الذين قال فيهم الله عز وجل من فوق سبع سماء : { .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . سورة الأحزاب آية ٣٣ } وقد ذكرنا ذلك وغيره مفصلاً في كتابنا " الحكمة الإسلامية - بحوث من مقتضيات العصر . " . إلا أنه لا بأس بالتذكير هنا ، بأبيات لحفيد أمير المؤمنين (ع) ، هو الملقب بالإمام زين العابدين وهو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم جميعاً أركى الصلاة والسلام : حيث أن هذه الأبيات تلقي الضوء ، على ما يجب أن يحفظه أهل العرفان من أسرار ، سواء كانوا بمستوى الأنبياء أو الرسل أو الأئمة أو أولياء الله الصالحين . وأن لا ييوحوا بذلك إلا لأهل الخاصة الذين هم أهل حمل مثل هذه الأمانات وأهل لتصديقها وعدم الإفتتان بها . يقول الإمام زين العابدين عليه السلام :

إني لأكتم من علمي جواهره      كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا  
وقد تقدم في هذا أبو حسن      إلىالحسين ووصى قبله الحسن  
يا رب جوهر علم لو أبوح به      لقبل لي أنت ممن يعبد الوثنا  
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي      يرون أفبح ما يأتونه حسنا

وهذه الأبيات من أغنى الكلام الإنساني بالرموز والإشارات إلى لباب الحقائق العرفانية ، ولا سيما البيت الأخير الذي يعرّض بأدعياء الإسلام وأدعياء الإيمان الذين يرزحون تحت أثقال البدع مكبلين بشباك الضلالات التي أبرزها الشرك الظاهر والشرك الخفي . والشرك الخفي فتح الله على وليه أمير المؤمنين علي (ع) بمقلاد من مقاليد مدينة العلم ليقول فيه : " الشرك الخفي أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . " والله عزّت عظمته يقول : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .. سورة النساء آية ٤٨ وآية ١١٦ } . وكفى بالله شهيدا .

أما قصة موسى (ع) مع صاحبه الرجل العارف الصالح ، فهي قصة غنية بالدروس والعبر ، ونحن نعول على عظيم أهميتها والحقائق التي فيها لأنها قرآنية ، ونوجب التقيد بمضامين الآيات تفسيرياً وتأويلاً ، ولا نسمي الرجل صاحب موسى الذي أمر الله موسى أن يتعلم منه ، لأن القرآن لم يصرّح باسمه .

ونحن الآن نذكر مقدمة الآيات ذات العلاقة ، متأمليين بمضامينها ، متعجبين من غرابة الحوار ، بين رجل اكتسحت شهرته الأفاق نبياً ورسولاً من لدن الله عز وجل ، أرسله إلى فرعون مصر وطواغيته ، يتحداهم ، ويذلهم بخوارق المعجزات التي أجراها الله على يديه ويقهر بقدرة ربه العظيم غلوهم وكفرهم وسحرهم ، ويكلمه الله سبحانه فيتلقى منه الألواح التي عرفت باسم التوراة . هذا الرجل ، موسى (ع) كليم الله يبعثه الله إلى رجل مغمور لا يعرفه أحد ولا يشعر به أحد وكان مع موسى فتاه الذي لم يسمه كذلك القرآن الكريم ، يسأله موسى (ع) هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ، فيقول له : إنك لن تستطيع معي صبرا . الحق ، إن ذلك من العجب العجاب . ولكن مشيئة الله وحكمته وموازينه هي الأعجب وهي الأحكم وهي الأرحم بغير قياس . وهذه هي مقدمة الآيات . قال تبارك وتعالى :

{ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَنَا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . سورة الكهف الآيات ( ٦٥ - ٧٠ ) . }

هذه الآيات لا تحتاج إلى كبير عناء لفهمها ، فوضوحها شافٍ كافٍ ، ونحن نكتفي بهذا المقدار منها وقد حصلنا على المطلوب ، وهو عدم تحمُّل موسى عليه السلام عرفان صاحبه ، وهو من هو عند ربه وبين أقرانه من الأنبياء والرسل . أما من يتشوق إلى بقية تفاصيل القصة ، فليرجع إلى سورة الكهف في القرآن الكريم ، وهنئياً له تعلمه واعتباره .

وأقصوصة ثلاثة موجزة من سورة النمل نختم بها بإذن الله فصلنا هذا ، عن سليمان وعرش ملكة سبأ فقد جاء في التنزيل العزيز :

{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . سورة النمل الآيات ( ٣٨ - ٤٠ ) . }

المجلس مجلس سليمان (ع) وفيه ما فيه من الجن والإنس وقاداتهم وعلماهم وجبايرتهم ، وسأل سليمان من منهم يأتيه بعرش ملكة سبأ ، من اليمن إلى بيت المقدس . وهنا تقع المباراة بين القوة التي تكاد تكون خارقة والتي وهبها الله سبحانه لعفاريت الجن ، والعفريت هو المارد القوي الداهية ، وبين العلم الذي به أو ببعضه فعل صاحب موسى ما فعل وبه قد تفتح أبواب السماوات لمن يريد الله أن يصعده فيها في إسرائ أو في معراج ، وهو وإن لم يكن بمستوى معراج محمد (ص) ولا بغنى معراج محمد (ص) بالآيات الكبرى ، وإنما يكون صورة من صورهِ ، ومنازل من منازلهِ ، وبهذا العلم أو ببعضه أمكن لمن يعلمه الله إياه أن يحبس مرده الجن في قمام وبهذا نفهم قول الرجل العالم الذي كان في مجلس سليمان والذي جعله الله من أهل العرفان : { .. أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. } ونفدَّ قوله على الفور ، { .. فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي .. } . ذلك ما لم يقدر عليه سليمان (ع) وهو من هو في عجيب ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، والذي وهبه الله إياه بسبب تحليه عن أجمل ماله وأغلاه - الصافات الجياد - خشية من الله وتكفيراً عن تأخير فريضة صلاة عن ميقاتها . وذلك ما لم يقدر عليه المرده من أقوياء الجن ودهاتهم .

ويبقى السؤال الذي لا بد منه وهو : هل كل عارف أو عرفاني يستطيع أو يعلم علم صاحب موسى ، أو صاحب سليمان . طبعاً لا ، فالعرفان ، عقلاً ، درجات هي رهن بقابليات أصحابها ونسب صدقهم وتجردهم لطاعات الله سبحانه وتخليهم عن الدنيا وحفرياتها ، وفخاها وشباكها ، وحتى عن التطلع إلى نعيم الآخرة ، حيث يجدون في الله وحده حبهم ودنياهم وأخرتهم ونعيمهم وجنتهم ، ومن الطبيعي أن يوجد بينهم فوارق من حيث مقادير فهمهم لحقيقة التوحيد والألوهة ، من جهة ، ومن جهات أخرى لتطبعهم على ما يحب الله ويرضى ، ويرضى ويحب من سلامة قلوبهم من الشرك والله في خلقه شؤون وهو أسرع الحاسبين .

أما نقطة الإنطلاق ، في الطريق الشائك ، الذي ينتهي إلى الوردِي فاللأزوردِي فالنوراني ، فنور  
على نور ، فهي الصدق والتصديق ، يعني أن يكون عبد الله من الصديقين : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ  
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .. سورة الحديد آية ١٩ ﴾ . والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً كما  
حمد نفسه وكما شكر نفسه وكما ينبغي لكرم وجهه .

# من مفاتيح المعرفة

## الإيمان بما نُزِّل على محمد (ص)

أصل الإيمان هو الإيمان بالله ، أي التصديق به والصدق بتولييه . والإيمان بالله والصدق معه يقتضي التسليم بشروطه ، ومن شروطه كمفاتيح لمعرفة دينه ، الإيمان بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي القرشي نبياً ورسولاً من لدنه تبارك وتعالى وإلى الناس كافة . والإيمان بالله وبرسوله محمد (ص) يقتضي بالاصالة شرط الإيمان بما نزل الله سبحانه على رسوله محمد (ص) من كتاب ومن آيات بينات . هذا الإيمان إذا تكامل يكون مفتاح الدخول إلى معرفة محمد (ص) والكتاب الذي أنزل على محمد (ص) والدين الذي أرسل به محمد (ص) . أما معرفة الله ، فبالله عرفنا ونعرف الله ويُعرف الله استقراءً واستنتاجاً ، وتبصراً وتذكراً وإشهاداً .

وإصلاح النفوس واجب إلزامي : قال تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . سورة الشمس الآيات ( ٧ - ١٠ ) } .

والنفس إذا صلحت ، خلص الإنسان من العنت ومن القلق ومن الأرق ومن المنغصات على أشكالها . وخلص من الوقوع في حبال النفس الأمارة وحبال ما يرى من شرار الخلق وما لا يرى .

والنفس إذا آمنت بالله وبرسوله وبما نزل الله على رسوله دخلت في العرفان من باب إلى باب .. فصلحت وسعدت ، ونستفيد هذه المعاني بشكل حاسم ، إذا تأملنا بقول الله عز وجل في هذا الباب من العرفان ، متيحاً لعباده مقلداً من مقاليد الدخول إلى الإيمان الحق والدين الحق والتوحيد الحق ، يعني إلى رحمته ورضاه ورضوانه ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالِهِمْ . سورة محمد الآية ٢ } .

ولقد نجا قوم محمد (ص) وتسئموا قمم البطولة والفتح والتاريخ ، بعدما استجابوا لأمر الله ونهيه ، وتشريعته وتعليمه ، وتوحيده ونفي الشركاء المزعومين عنه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، نجوا وهم مهذدون كانوا بالإبادة والإستئصال إذا لم يستجيبوا لله ولرسوله ، ونكبات الأمم والأقوام غيرهم ماثلة أمامهم ، ولعلَّ أبرزها كان الطوفان حيث لم يستجب الناس لرسول الله إليهم ، نوح عليه السلام ، وعنتوه وأذوه وكذبوه ، وأقفلوا دونه أذانهم وقلوبهم ... { فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ . وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوْحَانِ وَدُسِّرْ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا . وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . سورة القمر الآيات ( ١٠ - ١٧ ) } .

نجا قوم محمد (ص) ربما لأن أكثرهم آمن ، إذ لو أن أكثرهم بقي على كفره ، لكان الإجتثاث ، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم ، أن الله عز وجل كلما أنزل العذاب بأمة من الأمم يقول : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } . سورة الشعراء الآيات ( ٨ و ٦٧ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠ ) .

ولو أن جميع قوم محمد (ص) آمنوا وصدقوا الله ورسوله ، لكان خير الإسلام عمّ الدنيا بأسرها . ولكنّ قوماً من فراعين العرب أظهروا إيماناً واستبطنوا كفراً ، وقد عرض ببعضهم الله عزّ شأنه . وأسراً ببعضهم الآخر إلى رسوله النبي الأمين (ص) وذكر أوصافهم بشكل عام تحت عنوان : المنافقين . وهؤلاء وأبنائهم وأحفادهم وأمثالهم فيما بعد انقضوا على الدنيا وسلطانها ، فأخذ الفريق الآخر ، فريق المؤمنين الأبرار ، والأئمة الأطهار ، وأولياء الله الصالحين ، الخط الآخر ، خط المعارضة ، هذه التي كانت تحتدم أحياناً غيظاً و غضباً لله ، فتتفجر سخيةً بالدماء الغالية الزكية عند الله ، فتزلزل الأرض وتخضب بالحمرة الأفاق وتهدم العروش على رؤوس أصحابها ، وتمضي على درب الشهادة لله وفي سبيل الله كما حصل في كربلاء . أو أنها تحكم بعد بذل ودماء غزيرة ومواجهات عنيفة مع جيوش ودول . كما حصل في الثورة الإسلامية المظفرة في إيران . وهكذا ظل الخطان خط الكفر من جهة وخط الإيمان من جهة عبر التاريخ العام ، والتاريخ الإسلامي الخاص ، في مواجهة . وكأنما ذلك كان وما زال وسيبقى إلى قيام الساعة مصداقاً لقول الله عز وجل ، ينطبق على الأفراد والشعوب :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . سورة طه الآيات ( ١٢٣ - ١٢٦ ) .

ثم يفصل عن أهل الضلالة في مثل قوله عز وجل : { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . سورة الأنعام آية ٤ } أو قوله سبحانه { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . سورة الأنعام آية ٧ } .

وفي أهل الإيمان مثلاً من أقواله تعالى في أوصافهم : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . سورة الأحزاب آية ٢٣ } أو في توجيهه لعامة المؤمنين وتعليمه لهم وعنايته بهم ، وسخى تعويضه عليهم وما يخبىء لهم من العطاءات والنصر في الدنيا والآخرة ، قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ نُحِبُّنَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ . سورة الصف الآيات ( ١٠ - ١٤ ) } .

هذه المفاتيح من المعرفة التي يبسر الله منها لمن يؤمن به ربياً وبمحمد (ص) رسولاً نبياً وبالقرآن كتاباً منزلاً ، حسب درجات الإيمان ونسب الصدق ومقادير الأعمال الصالحة . هذه المفاتيح أو المقاليد ،

يفتقدها من يكفر أو يشك أو يتردد ، فيغدو مقلماً مغلقاً دون الحق والمعرفة الحقّة ، مهما تتقف وقرأ وكتب وتفنن . وأمثال هؤلاء الذين ينكرون أو يشكون بالله جلت عظمتة أو بإرساله محمداً (ص) أو بتنزيله عليه القرآن كتاباً ، تجدهم لو كشفوا عن حقائقهم ، كثرةً في المجتمعات الراهنة ، بعد هجمات الإلحاد المعاصرة ، بين الفلسفات المادية وانفلات حضارة الغرب عامة بفواحشها ، ومخالفاتها للأخلاق والقيم الدينية .

هؤلاء يغلب عليهم القلق ، والتأزم النفسي والعصبي ، والضياع ، والخوف مما يخبئه المستقبل ، والخيبة ، والشعور الدائم عند كل واحد منهم بأنه لم يحقق وجوده ، ولا آماله وأحلامه ، فهو مهزوم في داخله ، ناغم إذا كان مقدوراً عليه رزقه ، ظالم إذا كان ميسور الحال . تجد كل هذه النماذج أينما ذهبت وحيثما احتككت بعامة الناس أو بخاصتهم ، وتجد اعظم محور من محاور اهتماماتهم : الاقتصاد . فهم يعتبرونه في الحقيقة رباً ورسولاً وكتاباً مقدساً .

وهؤلاء أبرز ميزاتهم أنهم يجهلون كونهم مقللين دون الحقيقة ومغلقين . وإذا جادلوا فبالباطل ، وتراهم اكثر الناس غروراً بما يظنون أنه ثقافة وأنه تقدم ، وأنه سلوك العقلاء . قال فيهم تعالى :

**{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . سورة فاطر آية ٨ }** وقال عز وجل مظهراً حقائقهم الباطنة ومصائرهم المرتقبة :

**{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . سورة المجادلة آية ٥ }** .

ومعنى يحادون يخالفون ، فالمحادة الخلاف والعداوة ، وتجاوز الحدود التي أقرها الله لعباده . وكبتوا ، الكبت في الأصل صرع الشيء لوجهه ، ومعناه كمدوا وغيظوا وخذلوا ، من الكمد وهو الحزن الذي يثقل على الدماغ والقلب والغيظ والخذلان معروفان .

فيكون معنى الآية الكريمة أن الذين يخالفون الله ورسوله وطبعاً يخالفون ما أنزل سبحانه على رسوله ، أي القرآن الكريم ، ويتنكرون لكل ذلك أو يشكون بشيء من ذلك ، هؤلاء يحرمهم سبحانه من مفاتيح المعرفة أو العرفان ، وفي العرفان فرج ومخرج من الضيق ومن كل مشكلة . أو أن الله سبحانه يمضي حرمانهم بعد أن حرموا هم أنفسهم منها ، ومعاذ الله أن يظلم سبحانه أو أن يعتدي ، وهو لا يحب المعتدين ، وهو الأرحم وهو الأكرم ، وهو يسر السبل للهداية والخلاص بما وهب من العقل والسمع والبصر والفؤاد ، وهو سبحانه **{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . سورة الزخرف آية ١٠ }** وأوضح السبل وأهمها وأكرمها أنبيأؤه ورسله ، وكتبه المنزلة ، وقد ختم النبيين بخاتم رسوله محمد الأمين (ص) وختم كتبه ورسالاته بالقرآن المجيد مصداقاً لما بين يديه من الكتب المنزلة ومهيماً عليها كما جاء في التنزيل العزيز .

من هنا يتبين إلى أية مدينة عظيمة من العرفان يؤدي هذا الباب الذي يفتح بمحمد (ص) رسول الله ، وبالكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأطهار الميامين .

ووظيفة محمد (ص) ودينه ودينه ، وليله ونهاره ، وأنفاسه وجهاده ، وكيانه كله عاملاً ناشطاً ، كان هو الدعوة إلى الله ، تلك إرادة الله ، ورسالة الله إلى البشر مع محمد رسول الله ، { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . سورة الحج آية ٦٢ } .

# روح القرآن : الدعوة إلى الله

## في بيوتِ أذن الله أن ترفع

على محمد (ص) أنزل القرآن العظيم ، هذا الكتاب الذي ملأ الدنيا دويماً ، وملأها بركات وملأها علماء ومناهج سلامة واستقامة ، ونظماً سديدة ، ومجتمعات رشيدة ما دام الناس ، يعملون ويستترشدون بكتاب الله العظيم ، القرآن الكريم .

والقرآن الكريم لباب ما يتوخاه الناس من حصاد المعاني ، في رحلة اللغات والأفكار ، والأخلاق والنظم ، في تاريخ البشرية ، وتتويجاً لتاريخ البشرية ، وذلك جدٌ بديهي ، وجدٌ طبيعي لأنه كلام الله جل جلاله .

فأي عالم من المعارف ، وأي كون هو هذا القرآن الكريم الذي وصفه الله تعالى بقوله : **{ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ . سورة البروج آية ( ٢١ - ٢٢ ) }** وقوله عز شأنه : **{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . سورة الواقعة الآيات ( ٧٧ - ٨٠ ) }** . وإشارة إلى عظمة القرآن ، وعظيم ما فيه ، وسمو ما فيه ، وعميق معانيه ، وبلغ مراميه ، يقول سبحانه : **{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ }** ويكررها لجلاء جواهر الحكمة فيها ، عدة مرات في سورة القمر .

أما ما هي روح القرآن ، وهدف توجهاته وتوجيهاته ، وهدفه الذي يختصر كلام أهل السماوات والأرض ، وتطلعات أهل السماوات والأرض ، وشرف أهل السماوات والأرض ، فهو بين الدفتين ، وبكل وضوح : الدعوة إلى الله ، إلى كلمة **{ لا إله إلا الله }** إقراراً بنعمته وإخلاصاً لوحديته ، والتقرب إلى كرم وجهه ، والتشرف بمعرفته ، كل ذلك بالطاعة والعبادة والحب ، والجهادين الأكبر والأصغر . بهمة مستفادة من فضله سبحانه ، ومن قرأته هذا العظيم وهذا الكريم ، يخلع معها العارف ثياب الدنيا ثوباً ثوباً ، ليجد نفسه متوجهاً إلى ربه العظيم بثوب نوراني لا أثر فيه لألوان الثياب وجفاف الثياب ، وما تكشف الثياب من سوءات ، هو **{ .. نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور آية ٣٥ }** .

إذن تكامل الإستنارة بنور الله ، يؤدي إلى السعادة المطلقة في الله ، تلك هي روح القرآن .

وإذا أردنا أن نتوسع أكثر عن نورانية أهل اليقين ، من الذين يرزقهم الله من العرفان درجات ، نذكر الآية التي بعد هذه **{ .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. }** مباشرة ، وهي قوله تعالى :

**{ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهِمْ**

اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور آية ( ٣٦ - ٣٨ )  
 { فِي بُيُوتٍ } إلى قوله : { بِغَيْرِ حِسَابٍ } هو إعراباً خبر بعد خبر ، بعد قوله عز وجل :  
 { نُورٌ عَلَى نُورٍ } ، وقوله : { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ } وكان القارئ الواعي لا بد أن يسأل : { نُورٌ  
 عَلَى نُورٍ ؟ } كيف ؟ و { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ } من هم الذين يشاء أن يهديهم الله لنوره ؟ من هم ؟  
 وأين هم ، وكيف ، ومتى ... ؟ فيأتي الجواب الشافي :

{ فِي بُيُوتٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ... } .

فإن قيل هي المساجد ، كان صحيحاً ، وإن قيل هي كذلك بيوت عادية من حجر في أهل حضر ، أو  
 شعر في أهل وبر .. كان ذلك صحيحاً . وإن قيل هي أبدان العابدين التي هي بيوت نفوسهم ، كان ذلك  
 صحيحاً . إنما هذه البيوت لا يرفع شأنها إلا بإذن الله ، ولا يذكر فيها اسمه سبحانه إلا إذا أذن هو تبارك  
 وتعالى بذلك . وقوله عزت عظمته : { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } أي حالها كذلك ، أي ، لكي يأذن  
 لها أن ترفع ، ينبغي أن يكون من صفاتهم ومن نهجهم ، أن يذكروا اسم الله بالغدو والآصال أي في أوقات  
 تكاد تكون موصولة بذكره وبالتسبيح بحمده ، لا تقطعها تجارة بمقايضات وصفقات وأنواع تثمير ، لتجميع  
 المال والإنشغال بنجميعه ، زيادة عن حاجة الأسرة في مسكنها ومآكلها ومشاربها .

أما إذا قيل : واضح تفسير قوله تعالى : { رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ  
 .. } ولكن ما المقصود بقوله تعالى : { .. وَإِقَامِ الزَّكَاةِ .. } ؟ وهم ، أي هؤلاء المستتبرون بنور الله ،  
 بعد أن تفرغوا للجهاد بأنواعه وللعبادة أثناء الليل والنهار ، فمن أين لهم المال لكي يؤتوا الزكوة ؟ الإجابة  
 ذات وجهين ، قد يتفقان وقد يفترقان . ويفهم ذلك إذا عرفنا أن الزكوة لا تكون فقط بأداء المال ، وإنما قد  
 تكون زكاة علم وزكاة أبدان جهاداً في سبيل الله ، فإذا فتح الله على عبده باب علم وباب مال ، فلا كلام في  
 أن العبد الصالح يؤتي الزكوة من هذين الرزقين ، وإلا فمن العلم والجهادين الأكبر والأصغر . وقد جمع  
 الله كل ذلك بقوله عز وجل في آخر هذه الآيات ، حيث قال : { لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن  
 فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } وذلك بعد ذكر صفة مهمة من صفاتهم ، هي كونهم { يَخَافُونَ  
 يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } .

لا تستغرب ! ...

فبين يديك مصاديق كثيرة لهذه الآيات ، ولما ذكرناه في تفسيرها ، وهذا غير محصور كما قد تظن  
 بالأنبياء والأئمة المعصومين ، وإنما هو مشاع للصالحين من عباد الله في كل زمان ومكان . ولو أنك  
 تفحصت تاريخ أولياء الله وحيواتهم وما قد يصلك عن سلوكهم في الماضي والحاضر والمستقبل ، لبدلت  
 استغرابك بالإعجاب بمدى لطف الله وكرمه وحبه لأوليائه .

ولا تنس روح هذه المطالب ، وأساسها الذي هو في قوله : { فِي بُيُوتٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا  
 اسْمُهُ ... } وتوقف طويلاً عند { .. اسْمُهُ .. } فقط وتأمل ، وسافر إذا شئت - مقبولاً إن شاء الله - في فكر  
 التوحيد والحب ، فإن أخلصت القلب لله ، وتخلصت من خفايا الشرك وتأليه المخلوقين ، فأنت بإذنه تعالى  
 من الواصلين ، ترفل بقلب من نور وعقل من نور وثياب من نور .

ولا تستعجل ! ...

واسأله تعالى وحده ، اسأله لنفسك السكينة ، لتتفاهم بروية ، فإننا قد ذكرنا لك عن هذا العلم ، أنه لشرفه ، ليس كثيراً أن تخاض إليه اللجج ، وتسفك دونه المهج ، كما قال الإمام السجاد عليه السلام .

ولسنا نكتب لك لتترك دنياك ، هكذا بجرة قلم تقفل بها باب ماضيك وحاضرِكَ وتفتح بها باباً لمستقبلك . فإني وإن كنت أحبك في الإنسانية وأحب لك الهداية فإني لن أقدر على هدايتك ما لم يأذن الله ، فإن الشفاعة لله جميعاً ، أو لا تذكر قوله تبارك وتعالى :

**{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. }**

هذا القول قاله الله تعالى لمحمد (ص) عبده ورسوله ، وفحواه أن محمداً لا يستطيع أن يهدي من يجب ، لأن الله هو وحده الذي يهدي من يشاء ، فإن اهتدى بمحمد (ص) أحد ، فلا يكون ذلك إلا بإذن الله ومشية الله وشفاعة الله . فلا تسألن إلا من الله الهداية وكلّ خير . لأن بيده الخير ، كل خير ، وهو على كل شيء قدير .

ولا تخش من هذه الكتابة وهذا التفسير على الناس ، أن يتركوا قصورهم ويتخلّوا عن تجاراتهم واختراعاتهم وغزوهم الأسواق .. والأفلاك ، أو حتى عن مقعد في مقهى أو تخصص في جامعة أو بناء ناطحة سحاب .

وإياك والقعود عن الجهاد أو الدعوة إلى الجهاد ، جهاد الفرد وجهاد الأمة ، فإن ههنا دليل الجهادين ، وبغير هذا الدليل وأمثاله ، يبقى الجهاد كما هو مطروح في الساحات ، محلياً وعالمياً ، جهاداً تعديداً للتراب والصخر ، والأرض والعزة والكرامة ، والوطن والإقتصاد ... إلى آخر حلقة من حلقات الحياة الدنيا . وصحيح أن كل هذا مطلوب الحفاظ عليه ، إنما — إن لم تكن من المتبجّرين — ستصدمك الحقيقة التي نسوقها إليك ، وهي أن كل ذلك الذي ذكرناه ، إذا لم يكن مقروناً بالإيمان بالله ، سيكون عملاً حابطاً ، أي مردوداً على أصحابه ، وسيحاسبون عليه حساباً عسيراً . فأين هم من الله ، من ملك الله وحكم الله وقيومية الله وحق الله ؟ جلّ وعلا تعالى عما يشركون .

لن يتأثر بهذه الكتابة ، ولن ينتفع بها ، إلا من أراد الله هدايته ونقله من درجات الإيمان إلى درجات اليقين ، ومن أدنى درجات الجنان إلى عليين . فإن هذه الكتابة فقط لأهل الإيمان ، وتحت عنوان قوله تبارك وتعالى : **{ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . سورة الذاريات آية ٥٥ }** .

أما كيف يصبح ما في رأسك نورانياً ، وقلبك نورانياً ، ودمك نورانياً ، فمعاً فيما وفقنا الله تعالى إلى تأويله في بعض وجوه آيات النور ، التي ذكرنا بعض انعكاساتها ، والآن نعود إلى أصلها ، وهو قوله تبارك وتعالى : **{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور آية ٣٥ }** .

لن أتكلّم عن أنوار الله تعالى ، التي بها نرى حمرة الورد ، وبياض الياسمين وغير ذلك من الألوان والأشكال ، في الأرض وفي السماء وما بين الأرض والسماء ، حيث أنه ثبت علمياً كما أنه ثابت بالنظر العقلي والنظر الظاهري ، أنه لولا أنوار الله التي بها نرى ، وعلى أساسها نحيا ونتحرك ويعمر هذا الوجود ، لكان الناس عمياناً والكون ظلام دامس . إنما سأتكلّم عن نور هو أعجب مما نرى وندرّك في ظواهر الأشياء ، هو نور الإنسان الذي يجتبيه الله أو يصطفيه نبياً أو ولياً ، أو صالحاً في الصالحين ، في كل زمان وإلى يوم الدين ، وهذا النور هو في قوله جلّ شأنه: **{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... }** .

قوله تعالى : الله نور السماوات والأرض ، واضح المعنى ، فلا نور في السماوات والأرض إلا نوره ، وهو إما مادي وإما معنوي ، فأما المادي فكنور الشمس ونور الفجر وأنوار النجوم والأقمار ثم أنواع النور التي علم الإنسان استنباطها من الزيت إلى الطاقات النووية ، وأما المعنوي فدينه سبحانه ، ودينه الإسلام ، أرسل به الأنبياء تنزيهاً ، منذ آدم عليه السلام إلى نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد صلوات الله عليه وعليهم ، وغيرهم من الأنبياء كثير ، ودليلنا التمهيدي على أن المراد بـ **{ مِثْلُ نُورِهِ }** : الإسلام دينه الحنيف ، قوله عزت عظمته :

**{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . سورة الزمر آية ٢٢ } .**

ويعني أن من لم يشرح الله صدره للإسلام ، فليس على نور من ربه ، يعني هو في ظلام ، ومعلوم أنه كذلك يكتئى بالظلام عن الضلالة والجهالة والعمية ، والتلبس بالباطل والبعد عن الحق ...

ودين الله تعالىمه . يقول رسول الله محمد (ص) في بعض الدعاء : " وبنور وجهك الذي صلح عليه أمر الدنيا والآخرة " . فتعالىمه سبحانه لأهل السماوات وأهل الأرض نور من نوره .

وقبل أن نستبطن بعض رموز آية النور التي نحن بصددنا ، من البديهي أن تشرح ظاهر الألفاظ : مشكاة ومصباح ، زجاجة ، كوكب دري ، شجرة ، زيتونة ، أمثال ... فالمشكاة هي الطاق أو الجسم المتعدد الأشكال الذي يوضع فيه المصباح ، والمصباح كل ما يستنار به في الظلام ، قلّ ضوءه كمصابيح الزيت أو الغاز ، أو كثر كمصابيح الكهرباء . والزجاجة ، ما شفّ وصفاً من القوارير ، وهي لحماية قيس النور من الريح والمطر وهي كذلك لحصر الضوء ونشره في كل الاتجاهات . والكوكب واحد الكواكب التي في السماء ، ودريّ لعله يفهم هذا العصر أكثر من العصور السالفة ، حيث عرف أن مادة الكواكب بشكل عام ترابية أو صخرية ، ومع ذلك فهي تتلألأ وتضيء ، بما ينعكس عليها من ضوء الشمس ، فكيف إذا كان أحد الكواكب درياً أي من الدرّ .

والدرّ واحدته درّة ، وهي الجوهرة التي تؤخذ من المحار الذي يغاص عليه في البحار ، ويقال لها لؤلؤة ، فإذا كان الكوكب درياً فسيكون نقيّ الجوهر من داخله وخارجه . وشجرة ، كل ما اشتجر بأصول وفروع ، وكثيراً ما يتداخل فيها الرمز أو المجاز بالحقيقة ، فنقول شجرة الأخلاق ، وهو مصطلح عند علماء الأخلاق يدعى معه أن الشجرة التي نهى عنها القوم - آدم ، أو آدم النوع ، إنما كانت شجرة مفاسد الأخلاق . ويقال شجرة الأنساب **{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... سورة إبراهيم الآيات ( ٢٤ - ٢٥ ) }** وزيتونة ،

يعني خضراء نضرة مثمرة بزيتها يستضاء ، وبثمرها الطيب ينتفع . وأمثال ، واحدها مثل ومثل ، وتستعمل للتشبيه ولتقريب المعاني العميقة إلى الأذهان ، وكثيراً ما يستعمل معها الرمز للدلالة على الحقيقة : **{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .** سورة الرعد آية ١٧ } و **{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِثَّةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .** سورة البقرة آية ٢٦١ } و **{ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .** سورة البقرة آية ٢٦٥ } .

نلاحظ في هذه الأمثلة أن الله سبحانه لكي يقرب إلى الأفهام المعاني المجردة ، والكبيرة ، والعظيمة ، وأحياناً غير المحدودة ، أي المطلقة ، فهو يعرض لها أمثالاً من الملموس والمجسم ، ومن الأشياء التي يتداولها الناس أو يتداولون بها بكثرة في حياتهم اليومية ، ولا شك أن هذا الأسلوب أسرع في إيصال المعاني إلى القلوب والأذهان ، إنما يزداد تعقيداً وحماً للوجوه ، كلما كانت المعاني أعظم وأقدس ، وكلما كان المخاطبون أفهم وأعلم ، وبالتالي أمك لأدوات التحليل والتعليل ، والاستقراء وسبر الأغوار والإستنتاج . وذلك بما يعلمهم الله ، واتقوا الله ويعلمكم الله ، فـ **{ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .** سورة يوسف آية ٧٦ } .

ففي الآيات الكريمة التي أوردناها بين يدي قوله تعالى : **{ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... }** نجد في الآية الأولى ، المعنى المجرد الذي أراد سبحانه تعليمه للناس ، هو الكلمة الطيبة ، ضرب لها مثلاً بما هو محسوس ومتعارف : شجرة طيبة . وفي الآية الثانية ، المعاني المجردة التي أراد ، المذكورة في الآية : الحق والباطل ، والمجردة المستفادة من كلمات النص وما بين الكلمات : هي العقول والأفهام ، وقد تمثل سبحانه لكل ذلك ، بالأنهار والجدول على اختلاف أعماقها وأحجامها من جهة ، ومن جهة أخرى ، على ما تحمل ، أي على مضامينها ونتائجها ، والمحسوس جداً في هذا النص الكريم ، هو الماء الصافي والنمير الشافي أصلاً ، وهذا مثل أولوا الأبواب من أهل الحق ، وما تكون صدورهم وما يقولون وما يفعلون ، ثم الزبد ، أي غشاء السيل وما فيه من قش ونفايات ، وكذلك ، حتى ما يستخرج من الأنهار من ذهب وغير ذلك مما يوقد عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ، هو كذلك كالزبد وغشاء السيل لا قيمة له عند الله تبارك وتعالى ولا نفع له في الحقيقة عند أولي الأبواب يفتتن به أهل الدنيا ، وهو بمنزلة الباطل يذهب جفاءً .

وفي المثل الثالث الآية الكريمة تتعرض لمعنى البركة والخير الكثير المعنوي والمادي وفي الدارين الدنيا والآخرة ، مثل لذلك بالسنبلة والقمح الذي فيها وهو في مفهوم الناس وفي الحقيقة رمز خير وبركات . وكذلك في المثل الرابع عن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيئاً من أنفسهم وهما معنيان تجريديان ، فيهما من الجمال المعنوي الخير الشيء الكثير ، ولم يترك سبحانه في هذه الآية قضية النسبية ، إذ ليس كل الصالحين يتقربون إلى الله تعالى بنفس المقدار من الحب والولاء والبذل ابتغاء مرضاته وإخلاص أنفسهم له سبحانه وتثبيئتها على صراطه . فجاء المثل الرائع المعجز ببلاغته ، التي هي من السهل الممتنع ، قوله تعالى : **{ .. كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ .. }** وجعل الجنة في هذا المثل وهو ما نسميه نحن في العادة الروضة أو الحديقة أو البستان ، جعلها في ربوة ، أي في مرتفع من الأرض لا صعباً كالجبل ولا منخفضاً ، دلالة على مكانة المنفق ابتغاء مرضاته عنده سبحانه ، والوابل المطر الغزير الذي يتضاعف منه نتاج الأرض ، وهذا لمن يسخون

ويكرمون ببذلهم حباً بالله وتقرباً إليه ، وقوله : فإن لم يصبها وابل فطلّ ، كناية عن الإنفاق قد يكون قليلاً أو إخلاص العبد لربه ، قد لا يكون كاملاً ، فيعطيه الله سبحانه ما يتناسب مع نيته وقدرته ، من حيث كثرة ماله أو قلته ...

هكذا نكون قد قدّمنا لفهم قوله عز وجل ، { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... } ما يساعدنا على الكشف عن وجه من وجوه تأويلها ، وهي الآية التي ما زال يتصدى لتفسيرها وتأويلها أهل الفضل من العلماء ممن تفضل عليهم الله سبحانه بألوان من أنواره ، سواء كانوا من الصوفيين أو العرفانيين أو عامة أولياء الله الصالحين ، وبنور وجهه الكريم أهتدي وبه أستعين ، وعليه أتوكل ، وهو وحده ربي وحسبي وحيي .

## بين المشكاة والمصباح والزيتونة :

=====

قلنا إن { .. نُورِهِ .. } في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ... } هو دينه وتعاليمه ، أما التجريد والإطلاق الذي لا يحده عقل ولا واقع ، فهو قوله تبارك وتعالى أول الآية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. } نقول هذا تجريد مطلق ، والتجريد كما نوهنا هو اللامحسوس ، واللامدرك ، إلا بآثاره ، وآثاره كذلك فيها المجرد وفيها المحسوس نجد ذلك في نفس الآية بعد قوله عز وجل : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. } قوله : { .. مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. } فقوله تعالى : { .. مَثَلُ نُورِهِ .. } فيه تنويه عن آثار النور المطلق ، فإن قلنا — كما قدمنا — إن المقصود بالمثل هو دينه ، فهذا صحيح ، وإن قلنا — بناءً على مفردات الآية — هو مجسم دينه ، فهذا كذلك صحيح ، وإن قلنا إنه الإبداع في دينه أو الإبداع في نوره أو الإبداع في خلقه ، فهذا كله كذلك صحيح . وإن قلنا أنه سبحانه قصد بذلك محمداً (ص) أو قصد بذلك النموذج البشري الأول السوي آدم ، أو نوحاً أو موسى أو عيسى أو كل نبيٍّ أو رسولٍ أو وليٍّ من أوليائه المنتجبين وعباده الصالحين ، كان كل ذلك صحيحاً .

فخلاصة القول في الآية الكريمة : { .. مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ .. } أنها حمالة وجوه نورانية غنية بالدلالات واضحة الظهور ، كثيرة الإشارات ، بليغة الرموز ، نستخلص منها عبر قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْأَلَىٰ إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . سورة الشورى الآيات ( ٥٢ — ٥٣ ) } عامة حقائقها : بعد أن فسّرنا مفردات الآية بالمتعارف في حقيقة اللغة ، علينا الآن أن نعرض مجازاتها المقصودة بإذنه تعالى :

فالمراد بالمشكاة ، الإنسان المجتبي ، المؤمن الموقن الصالح ، شكلاً ومضموناً ، عرضاً وجوهراً .

{ .. فِيهَا مِصْبَاحٌ .. } المصباح قلبه المستنير المنير بالإيمان المكتوب فيه ، لا يمّحي ، لأن الله سبحانه هو الذي كتب فيه ، أي في القلب المخلص لله . ومن الأدلة المشرقة ، قوله تبارك وتعالى : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . سورة المجادلة آية ٢٢ } .

هؤلاء الموصوفون في هذه الآية تجردوا لله ، إخلاصاً وطاعة ، وجهاداً في سبيله وحباً ليس فوقه حب .

رهنوا أنفسهم بالشروط الثلاثة المنجية : الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، وأما الثالث فمستنتج ، إذ من أعلى الأعمال الصالحات ، أن تضحي بمحبتك ، تلك التي تربيت عليها طفلاً وصبياً حتى كادت أن تمتلكك ، ما هو مكنون منها أكثر مما هو ظاهر ، وهي لأقرب الناس إليك نسباً وتعاملاً واحتكاكاً يومياً ، في عشرة العمر ، هم الأهل أباً وأماً وأبناءً وإخوةً وعشيرة ، هؤلاء إن خرج أحد منهم على حدود الله ، إن { .. حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. } ، أخرجت من نفسك حبه ، وإذا توافق أنهم جميعاً حادُّوا الله ورسوله ، تجاوزوا حداً من حدود الله أو أكثر ، كذلك تخرج محبتهم جميعاً من نفسك ، ولا أقول من قلبك لأن القلب كله لله ، كم هو صعب ذلك !؟

كم يلزم من التصفية ثم الصفاء ، كم يلزم من التحليل والتعليل والمقارنة ، التي تنتهي إلى أن تختار الله ، أو أن تختار أباك أو أمك أو ابنك أو أخاك أو عشيرتك على فسوق منهم أو إخلال في دين الله ، خروجاً على حدوده أو على حد من حدوده ، والله يأبى عليك أن تكن لهم مع ذلك وداً أو محبة . إخترت الله عز وجل ؟ وأخلصت له قلبك وحبك وطاعتك ؟ إذن كتب الله في قلبك الإيمان .

وما يكتبه الله عزت عظمته لا يمحي أبداً . وأكثر من ذلك وأعظم ، أيديك بروح منه ، لا يؤيد به إلا أمثالك على درجاتٍ من تقدمهم عليك أو تأخرهم عنك ف { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . سورة الأحقاف الآية ١٩ } .

ثم ما هو هذا الروح الذي يختص الله سبحانه هذا النمط من الناس به ؟ أهو الروح الذي في آية الشورى : قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا... } إلى قوله : { .. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نُّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا .. الآية ٥٢ } هل هو أم أنه روح آخر ونور آخر ؟

المهم أن أهل اليقين المخلصين ، الذين يريدون وجه الله وحده ، يؤيدهم سبحانه — إضافة للملائكة الذين يصحبون كل إنسان في العادة — بروح منه ، هو أعلى درجة ، وأميز نوراً ، وبالضرورة أكثر خيراً وبركات وتسديداً ، وتجنيب عثرات .

فالقلب الذي يكتب الله فيه ، لا بدَّ أن تكون كتابته بحروف النور ، فكلامه نور وحروفه من نور ، ولذلك هو سبحانه ، وفي أكثر من آية ، سمى القرآن الكريم نوراً ، لأنه كلامه . هذا إضافة إلى الروح الذي يؤيد ويختص به عبده الصالح ، وقد جعله الله نوراً كذلك ، كما في آية الشورى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا... } : فاجتمع في القلب المخلص لله ، ما كتب سبحانه بحروف النور ، مع الروح النوراني المنوه عنه ، فكيف يغدو هذا القلب وفيه كتابة من الله وروح منه نوراني ، يغدو أبهى وأزهى وأزهر المصابيح ، بل أين منه المصابيح العادية ؟ يتلألأ نوره بحروف نور الله ، فهو فوق المصابيح التي من صنع البشر ، مهما تقدمت الصناعة ، وتصفى الضوء ، وأين في مصابيح البشر ما قاله الله عز وجل . عن مثل هذا القلب ، حيث تابع سبحانه قوله : { .. الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةِ كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. سورة النور الآية ٣٥ } .

في تقدم صناعة المصابيح ، كان لا بد لكل مصباح مهما كان نوع وقوده ، من زجاجة تحمي الوقود من عاديات الجو ، وتزيد في قوة انعكاسه وشفاء إشعاعه . وما لم يكن من المصابيح في زجاجة ، سرعان ما يخبو وينطفئ .

وحتى يظهر الله عز وجل الفارق بين مصباح المؤمن الذي هو قلبه ، وبين المصابيح المصنوعة المتطورة ، وفي زجاج متطور ، أعطى هذا المثل عن قلب المؤمن المصباح ، الذي يستحيل على البشر ، تصنيع مثله .

وكيف يستطيعون ، وهو في زجاجة كأنها كوكب دري ؟ هم قد يحصلون على الدرّة من محارثتها ، ولكن أن يحصلوا أو يصنعوا كوكباً درياً ، مثل الذي يصفه الله تعالى وقد يكون أكبر من حجم الأرض ، هكذا وببساطة ، تلك هي اللغة عن الكواكب . إذن هو التميّز النوراني ، في قلوب أهل اليقين .

ضوء القمر الجميل الهاديء ، هو انعكاس لأشعة الشمس عن جرم القمر ، والقمر تبين أنه صخري ترابي ، وكذلك ضوء الشمس يصدر عن جرم غازي مركب متفجر ملتهب بدرجات الحرارة الهائلة . فلا ضوء إذن يمكن أن يكون أصفى من نور يصدر عن كوكب دريٍّ من داخله وخارجه ، هكذا وصف الله تعالى له : { .. الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةِ الرُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. } .

فلا أبهى ولا أصفى ولا أروع ولا أجمل ، ولا عجب فهو من نور الله ، تبارك وتعالى وعزّ وجل .

هل في هذا الوصف لقلب المؤمن الموقن المخلص لله ، ثناء على المؤمن ؟ بلى ، لأن الله يقول الحق ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ومن أصدق من الله حديثاً ؟ فما دام الحق كذلك فهو من أجمل الثناء من مقام عزته سبحانه ومن مقام كرمه ورحمته ، وهنيئاً للمؤمنين أنوار الله ، المصابيح التي في صدورهم .

أما الزجاجة التي كأنها كوكب دري ، فهي في صدر المؤمن الموقن الواهب نفسه وكل كيانه لله عز شأنه . كناية عن ندرته بين الناس العاديين ، وعن صفائه وشفافيته وفوق ذلك كله عن قيمته المميزة عند الله . مقارنة مع الكثرة التي لا تفقه ولا تعي أو التي اتخذت نهج أصحاب الشمال ، أو التي قست قلوبها عن ذكر الله ، فأظلمت ووقعت في خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

وصدر المؤمن الصديق ، كونه كأنه كوكب دريٍّ ، فهو لشفافيته ورقّة نوره وصفائه ، مهبط أو مقام أو مزار للملائكة ، ملائكة الرحمة ، يقول تبارك وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . سورة فصلت الآيات ( ٣٠ - ٣١ ) } .

والمؤمنون الموقنون ، فعلاً ، كأنهم كواكب دريئة في الأرض ، ليس غيرهم يلوح للملائكة مضيئاً متألقاً ولأهل السماء . هكذا ، قلوب ذات جمال متوقد أخذ ، كلما ازداد واحد منهم من الله قريباً والله حياً ، زاده الله نوراً وجمالاً وألقاً . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة ، فبحسبك قوله تبارك وتعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة السجدة الآية ١٧ } .

وإلا فما هو الشيء الذي مثّل له الله عزوجل وقال فيه هذه الآيات النيرات ، إذا لم يكن الإسلام لله والإيمان بالله والعرفان بجميل الله وجماله وجلاله ، وأثار نوره في الألباب وأولي الألباب !...!

## الدماغ هو الشجرة المباركة :

=====

قوله تبارك وتعالى : { .. يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. سورة النور الآية ٣٥ } أي المصباح يوقد . وإذا كان المصباح هو قلب الرجل الصالح ، فالتركيب الفسيولوجي للإنسان يقضي بأن يكون تفعيل القلب من الدماغ ، كما هو المحسوم في علم الطب والتشريح . فالدماغ إذن هو المرموز إليه ، في جملة ما ترمز إليه كلمة { شَجَرَةٍ } في الآية الكريمة . وليس أبلغ من وصف الدماغ وجملة الجهاز العصبي بكلمة { شَجَرَةٍ } فهو يشترج في جميع انحاء الجسم انطلاقاً من الرأس وعبر النخاع الشوكي ، حتى أنه لا يوخز موضع في الجسم برأس دبوس إلا أصاب فرعاً من فروع هذه الشجرة التي هي الدماغ والجملة العصبية ، التي تتفرع منه وتستقطب البدن كله ، وتديره - انطلاقاً من الرأس الرئيس - ضمن هيمنة رب العالمين ، هي { .. لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. } .

أما لماذا هي مباركة هذه الشجرة ؟ فلأنها شجرة الإنسان الصالح ، ولأنها على هذا الأساس { مَثَلُ نُورِهِ } تبارك وتعالى . فإذا فسد الإنسان ، فسدت شجرته ، أي نزلت منها البركة . وهذا تراه حولك في كل مجتمع : فساد في الأدمغة وتبعاً لذلك فساد في القلوب ، والعكس صحيح . فإذن ، ليست كل شجرة هي مباركة ، فقط أدمغة الصالحين ، يباركها الله ، وينورها ، ويجعلها في عافية من كل فساد مادي أو معنوي .

أما قوله تعالى : { زَيْتُونَةٍ } ففيها ثلاث دلالات على دماغ الرجل الصالح : الصبغ ، والدهن أو الزيت ، والخضرة الدائمة .

وهذه الصفات هي مشتركات بين الدماغ الصالح والزيتونة المباركة ، نستفيدها من المداخلة مع قوله تعالى : { وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٌ لِلْأَكْلِينَ . سورة المؤمنون الآية ٢٠ } الحقيقة أنها في باب التفسير ، زيتونة حقيقية وفي باب التأويل ، زيتونة مجازية ، إنما هي كأنها زيتونة بسبب دهنها وصبغها للأكلين .

ثم إن في هذه المداخلة ، مقارنة لطيفة مستفادة ، وهي أن الزيتونة الحقيقية صبغها للأكلين ، أما الزيتونة المجازية المباركة فصبغها : { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً .. سورة البقرة آية ١٣٨ } .

بقي أن نقول إن التأويل في قوله تعالى : { وَشَجَرَةً .. } هي زيتونة النبوة التي خرجت من طور سيناء . يعني هي قطعاً دماغ موسى عليه السلام ، الذي تفاعل معه قلبه ، ضمن هذه الرموز :

{ اللَّهُ نُورٌ ... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ... }

وهنا لا بدّ للمتأمل أن يلاحظ هذه الأبهة وهذا الجمال ، في اللغة والرموز ، فلو افترضنا أن هذه الأشياء سميت بأسمائها كما يفعل علم التشريح : قلب ودماغ وكتلة عصبية ... لافتقدنا أولاً نعمة المجاز وعمق التأويل ، وثانياً هذا الرونق الأخاذ لأولي الألباب ، في اللغة والرموز ، وهذا مثال كذلك ، في جملة الأمثلة التي تكاد لا تعدُّ عن إعجاز هذا القرآن العظيم .

أما قوله تبارك وتعالى في وصفها : { .. لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. } .

فالقول فيه :

إن موسى حين تلقى كلام الله على الطور ، غدا لا شرقياً ولا غربياً ، أي انفصل عن الزمان والمكان ، وخرج هكذا من طور سيناء حاملاً الألواح ، منعتقة نفسه من جهات الكون ومن حدوده ، فصح في دماغه ونفسه العصبية المشتجرة فيه ، أن يقال في وصفه وقد تمكنت منه النبوة : { **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلِينَ .** } أما الدهن أو الزيت الذي قال عنه سبحانه في آيات النور { **.. يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ..** } فسيأتي ذكرها إن شاء الله في كلام علمي عن الدماغ . وأما الصبغ ، فهو لعباد الله ، صبغة الإيمان ونور اليقين في وجوههم وسلوكهم . والصبغ أو الصبغة في الإيمان والسلوك والأخلاق بشكل عام ، هي ما يتمكن من الإنسان بدءاً بالإقتناع فالخشوع فالحب لعزة الله ، بحيث تصبح هذه الأمور عند صاحبها عادة ثم تصبح ملكة ، لا تختلف عنه ولا يختلف عنها .

فقوله تعالى : { **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ..** } هو موسى خرج من هناك بنبوته وكامل ألواحه .

وقوله تعالى : { **... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ..** } هي تخصيصاً نبوة محمدٍ (ص) وتعميماً عامة الأنبياء والصالحين .

إذن هي النبوة ..

تلقاها موسى من عزة الله الذي لا إله إلا هو على طور سيناء .

وتلقاها محمدٌ (ص) من عزة الله الذي لا إله إلا هو من فوق سبع سماء .

موسى أكمل الله له نبوته على الجبل الذي في سيناء .

ومحمدٌ (ص) أكمل الله له نبوته فوق السماء السابعة .

موسى أكتبه الله التوراة في أربعين ليلة .

ومحمدٌ (ص) أقرأه الله القرآن في ليلة واحدة فحفظه . ثم أنزله عليه نجوماً مدة نبوته على الأرض .

تلك الليلة هي ليلة القدر ، وهي لا شرقية ولا غربية ، بل هي على مستوى الكون ، متضمنة عشر ليالٍ على مستوى أرضنا الدنيا ، هي العشر الأخر من شهر رمضان من كل سنة .

فنبوة محمدٍ (ص) التي استكملها فوق سبع سماء ، كانت هنالك لا شرقية ولا غربية ، ومن أين الشمس ومشارقها ومغاربها وقد أصبحت دونه تفصل بينه وبينها السماوات السبع ، وبلغت هذه الأيام ، مليارات السنين الضوئية .

وعاد محمّد (ص) إلى الأرض ، بالشجرة المباركة الزيتونى اللاشرقىة واللاغربىة ، مسامراً بها (ص) سراجاً منيراً إلى أن قبض إلى الرفىق الأعلى .

{ .. لآ شَرْقىةً وَلَا غَرْبىةً .. } من مفامىح العرفان :

الله عز وجل بكأىر من آىاته البىنات ، ىساشرف للإنسان مسامبله { .. لآ شَرْقىةً وَلَا غَرْبىةً .. } واحدة من هاه الآىات المنجىات ، إذا فهمت وعمل بها وجوباً .

أنواع الولاء ، لمراكز القوى على مسامى الحىاة الدنىا ، كأىرة . تضىق فامكون على مسامى الأفراد والجماعات الصغىرة النافذة . وامام فامامعرق جهات الأرض ، ودول الشارق والغرب .

هاه الولاءات الذى آمأها الأمكنا واماها الأزمنة واماها قاماعات الناس ، هى باملاف الماملوب فى آمعالىم الله الذى فرضها علىه ، آموخياً لسلامامه ولاماصه فى الدارىن .

هاه الولاءات آمكمها الجهات ، آمشرق وآغرب . كمصامىق ، كم آممزق الناس ، وما زال أكأرهم ىاممزق نامىجة الولاء للامواعىم فى المامشق والمغرب ، وبشكال عام نامىجة الولاء لغير الله .

الماملوب هو آمامجرد لله ، آمى من قومك آمى من بدنك ، آمى من نفسك . وإذا لم آمصل إلى أن آمفى فى فناء الله ، فلن آمفهم هاه الإشارات .

أن آمأمل وأن آمامجرد لله جلا وعلا ، وأن آمهاجر إلىه من وطناك ومن بدنك ومن الناس باقىاً فى وطناك وبدناك وفى الناس ، آمفى فى فناء الله ، آم ىعمىك بكرمه ورحمأمه ولطفه للصحو بعد المامو ، فأمعلم أن دماعك أصبام لا شارقياً ولا غربىياً ، وكذلك قلبك ، وكذلك جملة أحاسىسك : السامع والبصر ، وكلىة الرامصد فى الشجرة المباركة الزيتونىة اللاشرقىة ولا غربىة .

{ .. ىكأد زىئُها ىضىءٌ ولؤ لم آممسئه نأر .. } كذلك من المفامىح :

الدامع ، قبل أن ىغدو شجرة مباركة زىئونىة لا شارقىة ولا غربىة ، هو من أعابىب آملى الله دقة وآمعمىداً ووظائف مأمهلة واعملىات مأمهشة ، نامل إن شاء الله فى نهایة هاه الفصل أن نأمصر بعضها ، مما آمصل إلىه العلم من الكامشف عن القللى من أسرار عوامل هاه الدامع . ولكن الآن — ونحن بامصدد الآىة الكرىمة — وجم علنا أن نأمامم عما ىأمعلق بها باممصوم قوله آمعالى : { .. ىكأد زىئُها ىضىءٌ ولؤ لم آممسئه نأر .. } .

فالدامع مامدة دهنىة فوسفورىة — هاه فى آمرفه العلمى — والدهن والزىم فى اللغة العربىة بامعنى واحد ، والفوسفور مامدة عجبىة ذاتىة الإضاءة . والعلم الحمىم قال عن آملاىا الدامع أنها عبارة عن ملامىن البطارىات الذى آمشحن نفسها بنفسها ، والذى كل واحدة منها آمصدر الشرار آمبامعاً ، باممب أنها وهى آمعمل مامجمعة ىكاد الدامع بها ىضىء ، هاه هو آممب العلمى الذى آموصلوا إلىه فقط فى القرن العامشرىن المامىلادى

، واعتبر — وهو كذلك حقاً — من الكشوف الجلييلة ، التي ترتبت عليها فتوحات علمية كثيرة ، فيما يتعلق بالإنسان وحياته وحركاته وسكناته ، وأسواره النفسية والبدنية .

إلا أن هذا الخبر ، سبق إليه القرآن الكريم بما يقرب ألف وأربعمائة سنة ، وقد كان هذا الخبر في القرآن وما زال ، كنزاً من روائع كنوزه . حتى قضى الله سبحانه ، اليوم ، فتح هذا الكنز له الحمد أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً .

هل هذه خصوصية لعباد الله الصالحين ؟ أعني أن يكون الدماغ مكوناً من مادة فوسفورية دهنية يكاد زيتها يضيء بمليارات انقذاحات المحاور في ملايين البطاريات الذاتية الشحن والتفريغ الدائنين في الليل والنهار ومدى العمر ؟ الجواب : لا ، من حيث مبدأ خلق الله لأدمغة جميع البشر ، إلا أنه يصبح خصوصية ، أقصد البناء السوي للدماغ واستمرارية عمله المخلوق بعد سن التكليف عند ذكور الناس وإناتهم . وباختصار شديد : إن الدماغ مع تصاعد العمر ، إما أن يخبو تدريجياً ، حتى لا يعلم من بعد علم شديناً ، وإما أن يقتصد ، أي يأخذ طريقاً مستقيماً ليس فيه عوج . وإما أن يزيد استنارة من نور الله ، شأن الأنبياء والرسل وخاصة الله وأوليائه . وهذا موضح في سياق آية النور هذه ، قوله تبارك وتعالى : { .. يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ .. } .

فإذن { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } كذلك هي من المفاتيح .

نور في الدماغ يزيد { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . سورة مريم الآية ٧٦ } يلقيه إلى جميع أنحاء الجسم عبر النخاع الشوكي واشتجار تفريعاته المتماسة في جسم الإنسان الذي هو الآن العبد الصالح - وضمن عملية التغطية هذه لجسم الإنسان — طبعاً يفيضه على القلب الذي بدوره يضخه عبر الدم والدورتين الدمويتين الصغرى والكبرى في جميع الأوردة والشرايين والشعيرات الدموية التي كذلك تلتقي أطرافها بالنهايات العصبية الدقيقة لتغطي أيضاً باطن البدن وظاهره جملة وتفصيلاً : { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . سورة سبأ آية ٣ } . هذا في رأس معاني قوله تبارك وتعالى : { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } .

بقي أن نذكر ، وبغبطة كبيرة ، أن الله عز وجل قد هدى الإنسان ، منذ أيام قلائل ، على مستوى الطب وعلم الأشعة ، إلى العلاج بأشعة اللايزر ، يعني إلى إجراء عمليات داخل جسم الإنسان ، باللايزر ، بديلة عن العمليات الجراحية ، أي بدون جراحة ، وكذلك حتى رتق ، وخطاطة بعض الجراح الباطنية . هذا بعد أن كان سبحانه هداه ، منذ منتصف القرن العشرين إلى الكشف بالأشعة على أنواعها وبغيرها مما تفضل الله به على البشرية .

قلنا إننا نذكر هذا الخبر ، وبغبطة كبيرة ، لأنه سبحانه ما إن يكشف للإنسان عن علم يعلِّمه إياه ، حتى يكشف مقابله في قرآنه المجيد عن علم من سنخه وإنما بفارق أعظم ، طبعاً لمصلحة الذين يستشفون بالله - إذا احتاجوا - وبقرآنه العظيم . وطبعاً هذا العلم القرآني ، لا يستطيعه ، ولا يدركه ، إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان .

قد يقول قائل مظلم الدماغ : بلغ أهل الغرب بعلمهم الأفلاك ، وما زلنا بالنسبة إليهم كالإنسان الأول جهلاً وأمياً . أقول هذا صحيح ، من حيث مقارنة ظلمانيين بظلمانيين . أما المستنيرون بالله جلت

عظمته ، فيقولون : بلغ أهل الغرب بحضارتهم الزنديقة دركات الجحيم ، عاجلاً أو آجلاً ، ويرفع الله النورانيين فوق هذا الفلك الدوار ، وعبر أقطار السماوات السبع ، وليس فقط هذه السماء التي لم يبلغ علماء الأرض بعدُ حدودها :

{ .. فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. سورة الكهف الآية ٢٩ } و { .. اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . سورة آل عمران الآية ٩٧ } .

أما عن الذين اتخذوا العلم رِباً ، ونسوا ربهم الله فأنساهم أنفسهم ، يقول عزت قدرته : { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ . سورة غافر الآيات ( ٨٣ - ٨٥ ) } .

ومن يمنع الذين يعترضون على الدعوة إلى الله سبحانه ، وإلى دينه وطاعته ، من يمنعه أن يكونوا هم وأبناؤهم وأحفادهم وأقوامهم أعلم أهل الأرض سواء تلقوا علمهم في المغرب أو المشارق .

والحقيقة أنه ما من داعٍ إلى الله وإلى دينه وقرآنه ، وما من رباني أو عرفاني إلا وهم يدعون إلى العلم الأمة جمعاء ، ولكن الذي قعد بالأمة عن تلقي العلم من أعلى مصادره وأصدق مصادره ، هو الإخلال بعهود الله وموآثيقه ، والشرك الظاهر والشرك الخفي اللذين اكتسحا المذاهب وعصبياتها وانشغالها فيما بينها بالفتن والخلاف والترهات ، ثم تشقق الأمة إلى دويلات متنازعة سرعان ما ضعفت وهانت حتى استبدت بها طواغيت أهل الأرض كفاراً ومشركين ، فابتزوها أصالتها وهيباتها وقواعد علومها ، التي كانت حكرًا عليها طيلة سبعة قرون من الزمان حكمت بها المشارق والمغرب ، حتى بلغ الأمر بأحد خلفائها إذ أعجبه منظر سحابة كبيرة تنهدى في السماء ، أن يقول لها كلمته التي حفظها التاريخ : إذهبي أني شئت فإن خراجك سيعود إلي .

حرم الأمة من العلم الحق ، خيانتها لله ولرسوله ولكتابه المجيد .

ومع ذلك فالله يتحداكم فكونوا علماء . من يمنحكم أن تكونوا علماء ، وأن تحكموا الأرض وأفلاك السماء ؟

أقول لكم ؟ لن تكونوا كذلك إلاَّ إذا رجعتم إلى الله خاشعين خاضعين ، تائبين مستغفرين ، وإلاَّ أن تنصروه وتنصروا دينه ، وهو عنكم غني وعن جميع خلقه ، ولكنه هو سبحانه قرر ، والمشينة مشيئته والحكم حكمه ، قال : { .. وَلْيَنْصُرِنِ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. سورة الحج الآية ٤٠ } وقال جلَّت أسماؤه : { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ .. سورة آل عمران الآية ١٦٠ } وقال .. ولكنكم لا تقرأون كتاب الله ، وإذا قرأتموه لا تتدبرونه .. وإنما تقرأون الفكر الصهيوني المعلب في الغرب ، في الجامعات والكتب المسممة ، والأفلام والبيث الفضائي الذي يزلزل أركان الأسر والبيوت ويصدع الشخصية الإسلامية والإنسانية ، ثم تسمون ذلك حضارة وثقافة وتقدم .

ثم إذا تليت عليكم آية من آيات القرآن المجيد ، وتوافق أن أصابت وتراً من أوتاركم فارتحتم لها فتسألون : وهل هذه في القرآن .. ما شاء الله .. تقرأون عشرات ، بل مئات كتب الثقافة التنبؤية ، والأفلام الحقيرة والفاجرة ، وإذا أردتم أن تتفاصيلوا ، انطلقت ألسنتكم بالنقد الهدام للدين وللمؤمنين ولعباد الله الصالحين . واتهمتم الدين وعلماء الدين بالحيلولة بينكم وبين أن تكونوا أنتم أو أبنائكم من عباقرة العلم الحديث بين الذرة والمجرة .

{ .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } . هي كما ترون ، بعض آية في القرآن المجيد ولكن سرّها وقد انكشف وأثرها الذي عرف وسيعرف ، ليس كل ذلك علمٌ بها ، عنه يتفرع علم العلاج باللايزر وبقية أنواع الأشعة الصادرة بالضرورة عنها ، لأنها مثلٌ من نور الله الذي هو نور السماوات والأرض .

وإذا كان الله بعزته أو بملائكته أو بأسراره الغيبية الخفية ، ينور نفس وبدن عبد صالح من عباده ، وطبيب من أساطين الطب من خلقه يعالج باللايزر مريضاً من مرضاه ، فأيهما أولى بالسلامة والعافية والحصانة من كل داء خطير ، العبد الصالح الذي يتولاه الله سبحانه بنوره ورحمته ؟ أم المريض الذي يتولاه الطبيب بأشعته ؟

صحيح أن الله خلق الطب والطبيب وخلق الأسباب ، إلا أنه فضل سبباً على سبب ، إذ جعل الأسباب درجات ، من البديهي أن يكون أعلاها أفضل من أدناها . واسمعه سبحانه في الشفاء يقول : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . سورة الإسراء آية ٨٢ } . ويقول : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . سورة فصلت آية ٤٤ } .

ونلاحظ في الآيتين أن الاستشفاء بالقرآن وآياته نعمة على المؤمنين وليس على عامة الناس غير المؤمنين . ففي الآية الأولى : { .. مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. } وفي الثانية : { .. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. } ثم { .. الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } .

بينما هو سبحانه فرّق بين كون القرآن يشفي المؤمنين دون سواهم ، وبين أشياء أخرى تشفي أو قد تشفي بقية الناس ، حتى من غير المؤمنين ، وإنما لا يكون لهؤلاء شرف الاستشفاء بالله وحده أو بكلام الله تبارك وتعالى وحده . وأعطى مثلاً عما يشفي الناس مما خلق لهم من الأدوية والأغذية تفضلاً عليهم ورحمة بهم دون أي استحقاق منهم لذلك : عسل النحل ، وقوله تعالى في ذلك ، في معرض كلام عن النحل : { ... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة النحل الآية ٦٩ } والقوم الذين يتفكرون هنا وتفكراً سليماً قطعاً ، كذلك هم المؤمنون . وتفكرهم إنما يكون أولاً على تفضيلهم على بقية الناس ، وثانياً تشريفهم وتكريمهم بالتداوي بكلام الله سبحانه ، أو بأعلى درجة من ذلك : بالصبر به عز شأنه وبحسن التوكل عليه ، لعلمهم أنه : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد آية ٣ } وثالثاً أن يتناولوا العسل إذا استطابوه ، لا كدواء غالباً يكون فيه شيء من الإكراه أو الكراهية شأن كل دواء . كما أن فيه للعارفين شيء من الشرك الخفي ، حتى إذا تناولوه كمقوٍّ أو كمغذٍّ ، أو أي معنى آخر يعتمد عليه من دون الله وحده سبحانه وتعالى عما يشركون .

والشفاء شفاءان : شفاء من الأمراض ، ومصداق ذلك في قوله تبارك وتعالى على لسان ابراهيم عليه السلام : { وَإِذَا مَرَضتْ فَهوَ يَشْفِين } وشفاء من العماية والغواية والضلالات ، وقد نوّه سبحانه بالشفاءين وبخطاب للناس الكافرين منهم والمؤمنين بقوله تبارك وتعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . سورة يونس الآية 57 } .

فقوله تعالى : { شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ . سورة الشعراء الآية ٨٠ } يشترك فيه شفاء غير المؤمنين من الكفر وأنواع الضلالات وكذلك الشفاء من الأمراض النفسية والعضوية ، من قلبية ورتوية وغير ذلك ، كما هي الإشارة في الآية - فقط بالمؤمنين - وذلك في حال إعراض الإنسان عن الموعظة وعن اللجوء إلى الله سبحانه ذاكرًا شاكراً .

قال تعالى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا . سورة الكهف الآية ٥٧ } .

وتأكيداً على التفريق في الخطاب بين الناس عامة وبين المؤمنين ، نذكر بقوله تعالى : { ... وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . سورة الحج آية ٢ } . ونقابل هذا بقوله عز شأنه : { ... أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْرُغُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ... سورة الأنبياء الآيات ( ١٠١ - ١٠٣ ) } . ترى الناس سكارى من شدة العذاب يوم القيامة . إلا أن المؤمنين

لا ينالهم شيء من هذا العذاب . بدلالة الآيتين الأنفتين اللتين هما إخبار عن حال المؤمنين الموقنين ، كذلك يوم القيامة . فاقتضى التنويه .

ونعود إلى قوله تبارك وتعالى : { .. نُورٌ عَلَى نُورٍ .. } ، أي نور التفضُّل المميز من الله ، على النور الجاهز في الزيتونة أو جملة كيان العبد الصالح ، وهذا لا يكون لغير أهل اليقين أو لغير أولياء الله الصالحين .

ويظهر بوضوح أن معنيين أساسيين يتداخلان في نورانية هذه الآية الكريمة : أما الأول فقد أشرنا إلى بعض حقائقه الإشعاعية التي قد تصل إلى حالة غامرة عند الواصلين .

وعلى كل حال ، وفي جميع مصاديق قوله تعالى : { ... مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... } إلى هنا ، يكون للنور الذي يتعاور كيان العبد الصالح من عباد الله المهاجرين إلى ربهم ، ميزة النور المنعكس كما من كوكب دريٍّ على النور المنعكس كما من صخر أو تراب . ومن البديهي أن تكون آثار النور الأرقى ، أفعال في مجالات السلامة والعافية والإدراك ، من آثار النور الأدنى ذلك في الأنفس والأبدان ، وفي الدنيا والآخرة .

هذا هو المعنى الأول لنورانية الآية ، وهو المعنى الحقيقي الملتبس بظاهر العبارة .

أما المعنى الآخر ، فهو المجازي ، والمراد منه الهداية إلى كل ما يتعلق بالحقائق الظاهرة والباطنة ، حسب وسع وأهلية المتقربين إلى ربهم . وفي أساس عناوينه : العلم اللدني ، أي الذي هو مباشرة من

لذن الله تبارك وتعالى ، وضمن قوله عز شأنه : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ... سورة الشورى الآية ٥٢ } فعبارة : { ... نَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ... } تقتضي استكمال الهداية لمن يجتبيهم الله سبحانه في مراحل الزمان وإلى قيام الساعة . يؤيد هذا بقوة ، قوله تعالى في نهاية آية النور هذه التي نحن بصدددها ، وهذا هو نص آخر مفاتيحها : { ... نُورٌ عَلَى نُّورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . }

## الدماغ - الزيتونة أو المفاعل النووي المعجز :

هل لوزن دماغ الإنسان أهمية لتمييزه عن بقية المخلوقات المعروفة ؟

قبل أن نجيب على السؤال ، لا بد من التنبيه ، إلى أننا عندما نتكلم عن وزن الدماغ والفوارق فيه بين الإنسان والحيوانات ، فإنما نعني دائماً الوزن النسبي ، أي المتناسب مع أوزان الأبدان . ( فالفيل مثلاً يزن دماغه ثلاثة أضعاف وزن دماغ الإنسان ، والحوت الكبير يزن دماغه خمسة أضعاف دماغ الإنسان . ولكن النسبة ما بين وزن الكائن ووزن دماغه هي أرقى وأكبر شيء عند الإنسان فقط ، حيث تعادل النسبة تقريباً : ٧٣ , ٢٪ (\*) بينما هي عند الحيوانات القاضمة : ٢ , ٠ ٪ (\*\*) .

وهكذا على الصعيد الإنساني ، فقد يكون وزن دماغ إنسان نحيل بالنسبة لجسمه ، هو أرجح وزناً من دماغ إنسان ضخم أو يعادله ، أو تنعكس القضية ، فالأمر متعلق بأمور متداخلة بين النشأة الأولى والنشأة الثانية (\*\*\*) .

إلا أن الأهم في الموضوع ، هو أن رجحان الوزن ، وإن كان دليلاً على السعة ، إلا أنه ليس دليلاً على العقل المؤمن الفعّال ، ولا على سلامة التفكير واتباع الحق .

ولتفصيل ذلك ، فإنه ما من شك أن لفارق الوزن بين دماغ إنسان ودماغ إنسان آخر ، دلالة أكيدة على الفارق بالطاقة والكفاءة ، والقدرة على الإنتاج والفاعلية ، ولكن يتضح لنا من القرآن المجيد ، أنه مع كل رجحان ، تكون هناك زيادة في التكليف وحمل المسؤولية ، قوله عز وجل :

{ لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... سورة البقرة الآية ٢٨٦ } .

(\*) ( الطب محراب العلوم ) للدكتور الجليبي .

(\*\*) ( الطب محراب العلوم ) للدكتور الجليبي .

(\*\*\*) أنظر كتابنا ( العقل الإسلامي ) .

وقوله تعالى :

{ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ... سورة التوبة الآية ١٠٥ } .

وقد ضرب الله مثلاً على سعة وأوزان الأدمغة وأصحابها ، ومقادير ما تنتج ونوعية ما تنتج ، وما ينفع من نتائجها وما يضر ، والمحق منها والمبطل ، والسقيم منها والصحيح ، بقوله عز شأنه : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . سورة الرعد الآية ١٧ } .

وفي الآية التي تليها ينقلنا تبارك وتعالى من روعة المثل البليغ وجمال رموزه ، إلى ما يترتب على هذا المثل من واقع الحال وخطر المسؤولية ، بسبب ما تحمله هذه الأدمغة من حريات عامة وحرية خاصة هي حرية الإختيار ، وبخصوص انقيادها للعقل المهتدي بالله ، أو انقيادها لهوى النفس وأهواء الآخرين ، وبكيفية تفاعلها مع ما تحمل ، وأيضاً بخصوص ما تترك من آثار .. ونتيجة كل ذلك .. بقوله سبحانه :

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . سورة الرعد الآية ١٨ } .

ثم هذا النص المدهش في كتاب الله الكريم ، وفيه حوار بين التابعين الضالين ويسميهم الله { المستضعفين } ، وبين الذين ركبوا رؤوسهم عناداً وبهيمية من أصحاب الأدمغة الوازنة ، ويسميهم الله { المستكبرين } يقول عز شأنه :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنُ صَدْدُنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . سورة سبأ الآيات ( ٣١ - ٣٣ ) } .

## الإِنسان ليس أفضل خلق الله :

قوله عز وجل :

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . سورة الإسراء الآية ٧٠ } .

فيستفاد من هذه الآية الكريمة أن الإنسان ليس هو أفضل مخلوق في خلق الله ، ومن الأدلة على ذلك ، قوله عز وجل مخاطباً إبليس لعنه الله عندما امتنع عن السجود لله سبحانه ، باتجاه آدم ، بعدما أمره الله بهذا الإتجاه :

{ ... أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ . سورة ص الآية ٧٥ } إذ إنَّ { الْعَالِينَ } خلق لم يدخل في الملائكة الذين أمرهم الله بالسجود لآدم عليه السلام .

يبقى أن الخلق الكثير الذي فضل الله آدم عليه هو المدرج في الآية الكريمة :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ... سورة الجاثية الآية ١٣ } .

وقوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... سورة لقمان الآية ٢٠ } .

مع الإلتفات إلى لفظة ( ما ) في الآيتين ، حيث تستعمل في اللغة عامة لأصناف الحيوان وللأشياء

## يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول :

أما ذوا الأدمغة الكبيرة الذين ضلوا وأضلوا فمن شأنهم على اختلاف درجاتهم وحقول نشاطهم ، أن يبرزوا وينشهروا ، ويتصدروا المواقع في المجتمعات والأمم ، ويكون لهم من ذوي الأدمغة الأدنى وزناً ، أو من ذوي النفوس الضعيفة ، أتباع وأتباع ، كان فرضاً عليهم وبالحد الأدنى من التفكير السليم ، أن يتبعوا أولي الألباب من الأنبياء والأولياء والصادقين . وقد أوجب الله عليهم ذلك ويسرهم لهم إلى قيام الساعة .

أما وقد هانوا وانقادوا إلى ذوي الأدمغة الكبيرة الشاردة ، والنفوس المجرمة ، بين إلحاد و علمنة و نرجسية ، أو قوة مالٍ وجاهلية ، في شتى نشاطات الحياة ، من سياسة و علم ظني ، وشعر وأدب و فن ،

وأخلاق ، كل ذلك مما تمارسه أبالسة الأقلام أو أبالسة الإعلام ، فسيكون لهم مصير لا تنفع معه ندامة . والله عز وجل يصور مصيرهم بقوله :

{ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأُضَلُّونَا السَّبِيلًا . سورة الأحزاب الآيتان ( ٦٦ - ٦٧ ) } .

## الفوارق في الأدمغة :

=====

كما رأينا بخصوص المفاعل الذي هو المخ ، فإن الفارق التقريبي بين وزن دماغ الإنسان ومتوسط دماغ القردة العليا هو : ١٣٦٠ — ٣٦٠ = ١٠٠٠ غراماً لمصلحة الإنسان ، أي بنسبة واحد عند القردة العليا إلى أربعة أمثال عند الإنسان المتوسط .

## روعة الإنسان بين العقل والنفس والدماغ :

=====

إن الدماغ هو ( اللب ) الأوسع نشاطاً ، أو هو المفاعل الأعلى خطراً في عالم الجواهر المادية . فهو مركز التبليغ والترجمة والتفسير ، إضافة إلى الإحساس والذاكرة ، والعواطف والقدرة على الحركة . فإن ضاق عن العقل ، تحوّل إلى الآلية والغريزية بنسبة ما يضيق ، وبقيت له هذه الأمور كما هي للدماغ الإلكتروني أو المخلوقات الغريزية الراقية .

أما العقل ، فهو الروح المؤيد بعلم الفطرة ، السابقة على البدن ، ومن ميزاته إدراك الحقائق المجردة ، البسيطة والمركبة ، غير مستقل عن ربه تبارك وتعالى ، خالد ، يغضب ويتأذى ، ولكنه لا يتعب ولا يتعذب ، . تأخذ منه خلايا الدماغ توجيهاً وتعليماً وهداية حسب استعدادها ، يرجع إلى ربه ، والنفس هي التي تسعد أو تشقى ، ووظيفته دعوة النفس إلى خالقها الله الذي لا إله إلا هو ، ومقاضاتها بتعاليمه سبحانه ، مبيناً لها الحق من الباطل ، والمطلوب من السلوك في معراج العبادة . موصلاً إياها إلى أعلى درجات اليقين والعلم — في حدود العقل الإنساني — والسعادة الحقيقية في الدارين — قول أحد العارفين : لو عرف الملوك سعادتنا لقاتلونا عليها بالسيف .

كل ذلك برموز تفهمها جميع لغات البشر ولهجاتهم . هذه الرموز يقوم الدماغ بترجمتها بناءً على ما علم ولقّن ، ليقدّمها للنفس باللغة التي تتراح إليها ، وذلك أثناء التزام النفس بكلية البدن والجهاز

العصبي . أما إذا تحررت النفس ، فلا تعود بحاجة إلى الدماغ ، ولكنها تحتفظ بأدائه ، وتفهم لغة الرموز الكونية بدون ترجمة ، فضلاً عن إمكانية تعبيرها بأية لغة شاءت لم تكن تعلمتها في حالة الارتهان .

وإن العلاقة بين العقل والدماغ ، هي علاقة الطاقة الغيبية الموجهة لبرمجة مفاعلها الأرقى في جواهر المادة . والنفس هي التي تسبب انفتاح الدماغ على العقل أو انغلاقه دونه ، أو جعله في حالات بين الحالتين . يعني يكون هذا الواقع المتكيف ، رهن بمدى إقبال الإنسان على ربه ، أو تباعده عنه جلّت عظمته .

وفي حال تلبس النفس بكفرٍ أو شركٍ أو استكبار ، أو الوقوع في هوىٍ أو إثم ، ينشغل الدماغ والنفس بالحدث منصرفين عن العقل ، فتفقد النفس بذلك الهداية والسداد والرشاد ، وتحاول الاستئثار ظالمةً بموقع القيادة ، مآدوناً لها بذلك تبعاً لاختيارها وتنكرها لولاية الله ورعايته ، فيتخلى عنها الله امتهاناً وإمهالاً وتحجبياً ، وليس إهمالاً وتفويضاً ، وفيها قال سبحانه :

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . سورة الشمس الآيات ( ٧ - ١٠ ) } .

ومن حيث رعايته سبحانه ، للأنفس البارة النقية المجاهدة ، وخذلانه للأنفس الجاحدة المعاندة البهيمية في الحياة الدنيا وعند الموت ، وحين الانتقال من محطة الأنفس ، هذه الأرض الدنيا ، إلى الأرض العليا على اختلاف درجاتها ، قوله تبارك وتعالى في الأبرار :

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ... سورة النحل الآية ٣٢ } .

{ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات ( ٢٧ - ٣٠ ) } .

وقوله سبحانه في أهل الضلالة :

{ ... وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ أَيُّومٍ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . سورة الأنعام الآية ٩٣ } .

وهنا يخطر سؤال مهم ، وهو كيف يكون مستوى الإنسان الفكري والإنساني عامة ، إذا هو لم يقلع عن غيه ولم يعقل ؟ والجواب ، ولو أنه قد مرّ موزعاً خلال البحث ، إلا أنه ينبغي إيجازه بالقول : يكون شأنه كشأن حيوانٍ راقٍ متحضر ، متعلم ، أمثال الأنواع العليا من القرود ، إنما يميزه شكله وذلاقة لسانه وقلمه ، وكثرة الأرقام التي يتعامل معها ، والمهارات التي يباشرها في شتى حقوله ، وكذلك حجم دماغه المتناسب مع بدنه . وقد تتراوح هذه الحالة بين التضيُّق في التعامل مع العقل ، مع رحمة الله وسمائه وأسماؤه ، وبين تجافي الإنسان وتباعده عنها ، ثم انقطاعه بشكل نهائي ، حيث لا يفلح بعد ذلك كيد في إذهاب غيظ ، قوله تعالى :

{ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ . سورة الحج الآية ١٥ } .

## حقيقة الإدراك من الذرة إلى المجرة :

لا شك أن العقل هو الميزة الكبرى التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات ، إلا أن هذا لا يعني عدم الوعي أو الإدراك النسبي لدى المخلوقات غير العاقلة ، من الجمادات إلى النبات إلى الحيوان ، إلى الإنسان الذي سخّر له الله ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه سبحانه .

والحقيقة ، إنه ثبت بوضوح ، أن لا شيء في الكون المعروف ، له صفة الجمود الحقيقي ، من الذرة إلى المجرة ، بل الأشياء كلها في حركة دائمة دائبة . حتى تماسك الحديد الظاهري ، ليس هو كما نحسّه ونفهمه ، بل هو ربما بالنسبة لمخلوق أرقى من الإنسان ، وأكثر إحاطة وأبصر ، سيبدو مختلف المظهر والملس ، وقد تظهر ذرات الحديد لهذا المخلوق الأعلى من الإنسان ، كما تظهر لنا نحن ، عبر التلسكوب ، المجموعة الكوكبية في أبعادها عن بعضها في حركتها المتصلة .

المنظير المكبرة والمقربة العجيبة ، التي علمها الله للعلماء ، تحكي حكايا من هذا القليل . ومن هنا أيضاً ، إن لهذه الأشياء نسب من الوعي ، درجتها فيها خالق كل شيء ، المحيط بكل شيء الله العليّ القدير .

ومن الأهمية بمكان ، معرفة أن الإنسان مجرداً من العقل ، هو أرقى وعياً وإدراكاً وغرائز ، من جميع الكائنات المحسوسة . أما بالعقل ، فهو أقدس من ذلك ، إذ أن العقل صلته مع خالق الأكوان الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . فأرضنا هذه التي نحن عليها والصخور التي فيها ، والجمادات ( ظاهرياً ) لها نسبة من الوعي . إلا أن النبات أظهر حياة وإحساساً ، كما أن الحيوان درجته وميزاته على النبات واضحة . وهكذا ترجح المعطيات عند الإنسان على الجميع ، وعياً وإدراكاً وغرائز ، وإرادة ومنهجية . وكل ذلك بدون العقل ، فالعقل أقدس من كل ذلك .

وهكذا ، فلم يعد عبثاً ، أو مجازاً ، فهمنا لقول الله عز وجل ، للسماوات والأرض :

{ ... إِنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . سورة فصلت الآية ١١ } .

وقوله تعالى :

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . سورة الإسراء الآية ٤٤ } .

ثم قوله عز وجل :

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . سورة يونس الآية ٦١ } .

فإذن نستنتج من الآية الأولى أن الأشياء واعية ، والحقيقة أنه لا معنى لتسييح الأشياء وهي لا تعي ما تفعل .

حتى الحياة ، هي مفهوم نسبي أيضاً ، فكما نفهم الحياة للإنسان وللحيوان والنبات بدلالة الحركة وردود الفعل ، فكذلك هي للجمادات ( الظاهرية ) ، وحتى لأرضنا هذه وللشمس والقمر وبقية الأجرام السماوية ، وذلك أيضاً في صريح قول الله عز وجل في الآية الثانية .

فكل هذه المجسمات ، من الإنسان إلى المجرات إلى بقية الكائنات الأرضية والسماوية ، مبنية على الذرة ، أو النظام الذري . وأصبح معلوماً وببساطة أن في الذرة حركة لأجزائها لا تهدأ . و ( الكتاب المبين ) المذيلة به الآية الكريمة ، هو الحقائق الباطنية للأشياء ، فضلاً عن حقائقها الظاهرية ، ومن قبيل ذلك ، التركيب الذري للكون وأجزائه ، بما في ذلك أسرار الذرة وأسرار أجزائها .

وهكذا فإن جميع ما في هذا الكون متناغماً ، متناسقاً ، يسبح بحمد ربِّ ذه ، واعياً مدركاً حقيقةً لا مجازاً . إلاَّ البشر ، فإنهم انقسموا فريقين : فريقاً للجنة وفريقاً للسعير .

إن درجات الوعي في الكائنات ، هي حقائق مرهونة بالألوان والأشكال . والجواهر هي معاني الحقائق وتفاعلها ونتائجها وتوجهاتها ضمن النواميس الإلهية . ندرك أن فيها من وجوه الحكمة ، وإظهار سلطان العقل ، وقوة النفس إذا انقادت إليه وانعتقت به ، فتحررت من حبس ما تحت السماوات السبع إلى سدرة المنتهى ، مرتمساً بنوره منغمرةً برحمته ، على أنفاس مشتاقٍ إلى الله الحبيب الأبدي ، في صعوده يخترق السماوات بصوته يقول : لا إله إلا الله .

بلى ، هكذا فإن من خصائص العقل ، أن تفتح له السماوات بإذن الله الحبيب الأبدي . وهذا لا يقال عن النبات أو الحيوان أو الإنسان اللارباني . فالنبات ليس له قدرة على فهم الحيوان ، أو الإفادة منه ، والحيوان يفهم النبات ومنافع النبات فيقبل عليه وكذلك يتفاعل مع أبناء جنسه ، ولكن دائماً موجهاً بدافع الغرائز ، توجهاً لا يخالفه مختاراً أبداً ، وذلك لأنه ليس لديه الملكة التي تحدد له المسار والهدف ، يعني ليس عنده خيارات لأن ذلك يحتاج إلى نفس فيها قابلية أن تستلهم وتختار ، كما هي الحال عند إنسان النوع قبل أن يصبح ربانياً ، فإذا أصبح ربانياً ، تصنّف درجة عليا دونها درجة إنسان النوع وما دونه نزولاً في سلم الخلق .

من مهمات العقل وحده إذن ، المنهجية التي تؤدي إلى الكمال ، الكمال الذي يتناسب مع العقل ، هذا الذي يسود ما دونه ، ويقود إلى الأبقى والأجمل .

ورضوان من الله أكبر لو كانوا يعلمون .

## الإِنسان مثَلَّتْ النفس :

=====

من خلال مشاهداتنا واتفاق أكثر الفلاسفة الاسلاميين ، واستثناساً بكتاب الله وعرضاً عليه ، ثبت لنا بفضل من الله تبارك وتعالى أن لذات الإنسان ثلاث أنفس ، بينما هي أربع للرسل والأنبياء والأولياء .

أما الثلاث فهي : النامية المادية ، والحسية البهيمية ، والملهمة فجورها وتقواها .

وأما الرابعة التي هي للرسل والأنبياء والأولياء إضافة لهذه الثلاث ، فهي النورانية الملهمة .

١- فالنامية المادية ، هي البدن بحركاته العضوية ، الداخلية والخارجية ، ولها خاصية التنامي فالنتاهي إلى الضعف ، وماهيتها هي المقصودة بقوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . سورة غافر الآية ٦٧ } .

٢- والحسية البهيمية ، هي الجهاز العصبي ، من الدماغ إلى النخاع الشوكي إلى أدق تشعباته العصبية في جسم الإنسان ، وقد قلنا عن الدماغ إنه المفاعل الأعلى خطراً في جواهر المادة ، وأنه هو مركز التبليغ والترجمة والتفسير ، إضافة إلى الإحساس — سيما الحواس الخمس — والذاكرة والعواطف المتضادة .

٣- والملهمة فجورها وتقواها ، هي حقيقة الإنسان ، وجوهره الباقي ، ووجهه الذي لا يفنى ، المقصود بقوله تعالى :

{ ... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... . سورة القصص الآية ٨٨ } .

ويقوله تعالى :

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... سورة الروم الآية ٣٠ } .

## الفصل الثاني

### أطراف الجنة في الحياة الدنيا

---

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . سورة فاطر الآيات ( ٣٤ - ٣٥ ) . }

## سَلَطْنَا اللَّهَ عَلَى مَا فِي الْكَوْنِ :

الكون بالنسبة للإنسان - تعريفاً - هو كل ما يقع أو يُسَبَّر بحواسه أو يكون ضمن حدود عقله ، وما زاد عن ذلك فليس لنا شأن ولا حق في التعرض له .

والكون الذي يمكن سبره بالحواس أو يمكن إدراكه بالعقل الراهن - قبل الإعتناق من البدن - هو ما حدَّث عنه القرآن الكريم ، بين العبارة والإشارة والتوصيف ، وبين ما يكشف لخاصة أولياء الله من ظهور الغيب وبطون الحقائق .

على هذا الكون ، سلَّط الله الإنسان ، سلَّطه على ما فيه جملة وتفصيلاً . يقيناً سيبدو هذا الكلام غريباً عجيباً لأكثر الناس ، وقد بدا لي كذلك ، لدرجة أنني ألقيت القلم من يدي خشية من الله سبحانه ، خشية من أن أكون قد بالغت أو تجاوزت حدَّ الفهم ، عندما خطر ببالي هذا المعنى ، وهو أن الله جلَّت عظمته ، قد سَخَّر هذا الكون لهذا الإنسان جملة وتفصيلاً . ثم تناولت القلم واثقاً بالله وبكلام الله وبيناته .

إنما قادني لهذه الكتابة ، ولهذه العبارة ، قول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ، ومعاني كلمة ( سَخَّرَ ) في القواميس . أما قوله عز وجل فهو :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . سورة الجاثية الآية ١٣ } .

فكلمة (مَآ) في قوله تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ .. } ، تعني جميع ما خلق الله تعالى في هذه السماوات ، ابتداءً بالسماوات الدنيا ، وانتهاءً بالسماوات السابعة .

أما في السماء الدنيا ، فمن مجموعتنا الكوكبية أو الشمسية ، إلى المجرات التي فيها مليارات الشمس ، مروراً بمجرتنا درب التبانة ، إلى الثقوب السوداء المدَّعة ، إلى آخر سرٍّ من هذه السماء لم يكشف بعد ، إلى حدود السماء الدنيا التي إلى الآن لم يتوصل إليها علم الفلك الرائع على تقدمه المذهل ، وأجهزته العجيبة العملاقة .

كل هذا أصبح سهلاً فهمه ، لا سيما لمن يتتبعون خطوات العلم الجبارة في مجال السماء الدنيا وأخبارها وكشوفاتها التي تصيح من أعماقها : { لا إله إلا الله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة ولا عزة ولا وصول إلا بالله العليِّ العظيم } .

كذلك أصبح سهلاً فهم أن الله سبحانه سخر لنا الميزان الذي وضعه بعد أن رفع السماء : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . سورة الرحمن الآية ٧ } والميزان بالضرورة ، هو التوازن في كل شيء أوجده الله تعالى تحت هذه السماء . بما فيه الأرض وحركات الأرض وما يتعلق بها من شمس وقمر وكواكب ومجرات ، إلى نباتات وحيوانات البر والبحر . والحشرات ما دقَّ منها وما كبر ، وهو ما يسمى بتوازن الطبيعة .

كذلك أصبح من البديهيات فهم قوانين الجاذبية المسخرة للإنسان تحت السماء الدنيا وحتى في باطن الأرض وجميع ما يتعلق بها أو يشبهها من قوى خفية كالضغط الجوي وضغط الماء وقوانين الحرارة والمغنطة إلى آخر ما هنالك من قوى تفعل في الإنسان وفي الكون دون أن نراها وحتى دون أن نحس بها إلا بعد التأمل والتبصر والحساب .

كل ذلك أصبح يسيراً فهمه ، وما زال يتناوله العلم متتبعاً تفاصيله ، كاشفاً خفاياه مستفيداً مما خلق الله له فيه من قواعد وقوانين ، ما كان للإنسان فيها أدنى فضل ، حتى كشف أسرارها ما كان ولن يكون إلا بإذن من الله تبارك وتعالى ، وضمن هذا القانون المبارك : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... سورة فصلت الآية ٥٣ } .

إلاَّ أن ما لم يتعرض له العلم بعد ، وقد نصَّ الله سبحانه على أنه موجود تحت هذه السماء الدنيا ، وبقوة وبكثرة ، هو القوى الملائكية والقوى الشيطانية المسخرة كذلك جميعاً لمصلحة الإنسان ، وذلك ضمن نص الآية الكريمة : { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... } .

أما النصوص القرآنية المتعلقة بالقوى الملائكية وفاعليتها في جميع وجوه حياة الإنسان تقريباً ، ولا سيما المؤمنون ، فكثيرة جداً ، وقد عقدنا لذلك فصلاً مسهباً في كتابنا " دعوة إلى الله " فلا ينبغي لذلك التكرار .

وأما النصوص المتعلقة بالقوى الشيطانية ، فكذلك كثيرة ، وقد ذكرنا عن أنواع الشياطين وفاعليات الشياطين معاني وعبراً ، كذلك في كتابنا " العقل الإسلامي " إلاَّ أن نصاً عنهم في سورة الصافات ، أودُّ أن أذكّر به ، ملفتاً إلى ما فيه من عبر ، وما في هذا الصنف من الشياطين من قوى هائلة ، هي مسخرة كذلك لمصلحة الإنسان ، لضرورة الإيحاء في الآية الكريمة : { وَسَخَّرَ لَكُم ... } .

## أقوى من المركبات الفضائية وأقوى من الصواريخ:

=====

قال الله تبارك وتعالى :

{ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْدِفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنِ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ . سورة الصافات ، الآيات ( ٦ - ١١ ) } .

وبين عفاريت سليمان عليه السلام وهذه العفاريت أو الشياطين التي ذكرها سبحانه في سورة الصافات ، نستطيع وبالمقارنة أن نفهم مدى القوى التي جهَّزَ الله تعالى بها هذه المخلوقات غير المرئية والسابحة في هذا الفضاء الشاسع .

قال تعالى ذاكراً نقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى بلاد الشام ، في كلام عن سليمان الحكيم :

{ قَالَ عَفْرَيْتَ مَنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . سورة النمل الآيتان ( ٣٩ - ٤٠ ) . }

ففي آيات سورة الصافات هذه الأوصاف : { وَحَفِظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . الآية ٧ } ، ومعنى المارد ، القوي والتمرد والخبث . ثم { لَا يَسَّمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِّن كُلِّ جَانِبٍ . الآية ٨ } والملا الأعلى هو عالم ثم عوالم ما فوق السماء الدنيا ، وهو عالم الملائكة وأخبار السماوات وفيها هندسة ما يجري وما قد يجري على الأرض وأهل الأرض في مجالات العلم والمشينة والتقدير ثم القضاء الحتم الذي لا راد له . وقد كان هؤلاء المردة من شياطين الجن يتخذون — قبل بعثة محمد رسول الله (ص) - مقاعد للسمع ، كما أخبر الله سبحانه على لسانهم في سورة الجن :

{ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَمِتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . سورة الجن الآيات ( ٨ - ٩ ) . }

ثم في أوصاف هذه المخلوقات في آيات الصافات : { دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . الآية ٩ } والدُّحُر — كما في القواميس — الدفع الشديد المذل المهين مع الإبعاد ، والعذاب الواصب — في اللسان - الوصب الوجع الدائم . فيفهم من ذلك أن هؤلاء الشياطين في واقع حبس في أجواء ما تحت السماء الدنيا ، معذبون ، ذووا نفوسٍ عدوانية ، حيل بينهم وبين ما يريدون هم من سماع أخبار السماء أو من أدنى لبقية ما خلق الله تحت السماء الدنيا . والصفة الأخيرة في الصافات تحسم عدم معرفتهم بشيء من أخبار غيب السماوات : قوله تعالى : { الْإِمَّنُ حَظِفَ الْحُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . الآية ١٠ } يصدِّعه أو يمزقه أو يفجره تفجيراً .

أما قوله تبارك وتعالى : { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ . الآية ١١ } فيه دلالة قوية على مدى الفارق الكبير بين قوة الإنسان وقوة أمثال هؤلاء المردة ، يذكرنا بذلك بالضرورة القرآنية أحد عقاربت سليمان ، ذلك الانف الذكر ، الذي سخَّرَ الله فيما سخر له من شياطين وعجائب .

وهذا ينقلنا أيضاً بالضرورة ، إلى مقارنتهم - أي هؤلاء الشياطين المردة ، ليس فقط بالإنسان - الذي من طين لازب — وهم كما في سورة الرحمن { ... مِّن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ . الآية ١٥ } . وإنما مقارنتهم كذلك بما يصنع الإنسان من طائرات وغواصات ، ومراكب فضائية ومحطات وصواريخ وأقمار ، وما نعلم من أخبار العلم المذهل في مجالات التكنولوجيا الظاهرة والسرية وما لا نعلم .

فإذن ، إن بين كل هذه الأعاجيب الآلية التي اخترعها الإنسان وأطلقها أو سيرها في البر والبحر وأجواء ما تحت السماء الدنيا ، إن بينها مخلوقات هائلة غير مرئية ، هي أقوى وأعظم بكثير ، مما خلق الإنسان على دعواه ، تروح وتجيء بين آلياته وعجائبه ، تنظر إليها ، إلى ما صنع الإنسان ، وتتمنى لو

يأذن لها الله رب العزة والجبروت ، فتدمر بلحظات ، جميع هذه الأدوات الإستفزازية التي أصبحت والعلم الذي وراءها أوثاناً تعبد من دون الله عزت وعظمته وجلت قدرته .

ومنها ما قد يظهر للعين المجردة ، لحكمة أرادها الله سبحانه ، وهو أحكم الحاكمين .

فإننا نعتقد - بإذن الله تعالى - أن ما يسمى بالصحن الطائرة ، التي كثر وما زال يكثر عنها الكلام . ما هي إلا حقائق ، وأشكال من هذه المخلوقات التي سخرها الله للإنسان .. الإنسان الذي ما طغى بعد في الميزان .

## .. ألا تطغوا في الميزان :

=====

قال الله تبارك وتعالى : { **أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ .** سورة الرحمن الآيات ( ٨ — ٩ ) } . وقال تبارك وتعالى : { **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى . وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى .** سورة طه الآيات ( ٨١ - ٨٢ ) } .

## إنسان حضارة اليوم ، طغى في الميزان .

على أبواب القرن الواحد والعشرين يتأرجح العلم مختل التوازن . الولايات المتحدة الأميركية تمسك بالميزان العالمي وتتحكم بأركان الحضارة : الإيديولوجيات والسياسة والاقتصاد وثورة الاتصالات .. تحاكم الدول ورؤساء الدول والشعوب ، أميركا هذه هي النموذج الأعلى عالمياً بالمفهوم الحضاري السائد . وأميركا هذه هي الزنديقة الكبرى والنموذج الأعلى في الطغيان في الميزان .

مثلاً واحداً نعطيه عن وجه أميركا التي تقود وتحكم العالم ، لنفهم مدى التردي في بقية المجتمعات ، شعوباً وحكومات ، خلا بعض الدول المباركة التي هاجرت أو تهاجر إلى الله ، متحدية الحضارة الزنديقة وأسيادها في العالم ، بين روسيا وأميركا وأصحاب الشمال :

جاء في جريدة السفير عدد الإثنين ٥ تشرين الأول ١٩٩٨ الموافق ١٤ جمادي الثانية ١٤١٩ وتحت عنوان : " بكلمات " للمفكر والشاعر الكبير سعيد عقل ما يلي :

"في روسيا ٢١٠٠٠ عصابة وفي الولايات المتحدة ؟" من أخبار " السفير " - والخبر من موسكو هذه المرة - أن " مكتب التحقيق الفدرالي " عندهم أحصى وجود ٢١٠٠٠ عصابة إجرامية تنشط داخل البلاد .

من المستحيل القبض على أفراد ٢١٠٠٠ عصابة وتحويلهم إلى المحاكم . فما تعمل الدولة ؟ تكتفي بأن تسكت مسجِّلة وجود المصيبة ، وتروح تتأقلم معها . هذا في روسيا . وما في الولايات المتحدة ؟

إقرأ هنا ملخصاً لما نشرته ، قبل بضعة أشهر " تايم " أهم مجلة لا في أميركا وحدها وإنما كذلك في العالم .

في الولايات المتحدة عصابات مسلحة ومنظمة التسليح والقيادة ، يبلغ عدد أفرادها ١٢ مليوناً .

وإن عرفت أن عدد جيش الولايات المتحدة هو نصف مليون فقط أدركت أن عندهم ، كما في روسيا ، مصيبة تروح الدولة تسكت عنها وتتأقلم معها .

قلنا : ( والكلام ما زال لسعيد عقل )

- هذا الوضع المأساوي يضرب الدولتين : "الأولى كبرى دول العالم ، والثانية كانت ذات يوم نَدَّتْهَا ... "

طغوا في الميزان .. طغوا في العالم في ذبح الشعوب وفي حرق الشعوب وفي تجويع الشعوب ، وطمغوا مع حليفهم الصهيونية العالمية ، متوسلين كل الغدر وكل الخساسة ، وكل مفردات الشر بمضامينها لينالوا من دين الله ومن عباد الله المسلمين تحت كل كوكب .

اليوم ، على أبواب القرن الواحد والعشرين ، همُّ العالم ، بما فيه طواغيت المسلمين ، همُّ الجميع محاربة دين الله ، الإسلام ، وهذا يعني محاربة الله ، وهذا يعني أنهم أعداء الله .

وهذا يعني بمنطق الآية التي يقول فيها الله تبارك وتعالى : { ... وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ } ، هذا يعني أن غضب الله قد حلَّ عليهم ، وأنهم في الحقيقة قد هَوَوْا إلى أسفل سافلين . ومن ثم إلى الجحيم .

أما هُوِيَّتُهُمْ فهو شديد الوضوح في شتى جبهات الحياة ، فكل جبهة عندهم هي من مستدعيات غضب الله جَلَّتْ عظمتُهُ .

ويكفي أن نذكر مدى طغيان الفحشاء عند قدواتهم رؤسائهم ، حتى نعلم كيف يكون الناس على دين ملوكهم في الحقرات التي بعضها شذوذ الجنسين ، وأكثر من ذلك إباحة هذا الشذوذ وحمايته بقوانين .

القرآن الكريم ، يندد بهذه الفاحشة ، في تسع سور . ولعلها أكثر معصية يندد بها بهذا التكرار ، كما ويفصّل أنواع العذاب الذي أنزله بأصحابها ، وهو من أشد أنواع العذاب .

يطول تعداد مستدعيات غضب الله في أهل هذه الحضارة .

لذلك ليس عجباً أن تكون الكرة الأرضية اليوم محاصرة بالغيوم الحرارية ، وبانشفاقات الأوزون ، وانقلاع الجبال الجليدية الهائلة من قارة الأنتركتيكا في القطب الجنوبي ، لكي ترفد بدايات طوفان ، يحدثه

ارتفاع الحرارة العالمية ، هو آت على أوروبا وأكثر سواحل العالم بدءاً بأوروبا الوسطى ثم الغربية ، ثم .. وصولاً إلى نيويورك .

هذا الكلام ، هو شديد الإختصار من تقارير علماء المناخ عندهم .

هذا في التقارير المعلنة ، التي صدرت عن أكثر من عشرين مؤتمراً تداعت إليها الدول الصناعية الكبرى وعلى رأسها أميركا ، بداعي الرعب مما تحمله إليهم السماء والأرض من غضب الله العزيز المنتقم الجبار .

مفزعة تقاريرهم المعلنة ، وقد تسرّب أن ما هو غير معلن أشد إرهاباً وترويعاً .  
فهل نحن على أبواب قيامة أرضية - سماوية أم على أبواب قيامة كونية ؟

قلنا في كتابنا " العقل الإسلامي " أن كليهما وارد ، وقد تحدثنا هناك بإسهاب عن أشرار الساعة ، وأنها قائمة ، ماثلة لكل ذي علم وذو عينين مؤمنتين ، تفرآن وتتبعان ما في الكتابين العظيمين : القرآن والكون .

إلى هنا حقّ للقارىء أن يسأل : وما علاقة كل هذا العرض بأية التسخير ، قوله تعالى : { **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ...** } .

## تركوا الكتاب والتسخير .. وانشغلوا بالتكنولوجيا :

=====

قد — وكالعادة — قد يثور زوو الرؤوس المملوءة بالأفكار الحضارية الدسمة ، الثائرون على الدين وعلى المتدينين المتخلفين عن التكنولوجيا وغزو السماء .

في الحقيقة ، نحن معكم من الثوار ، وإنما مشكلتنا التي باعدت بين منهجيتنا ومنهجيتكم ، هي أننا أمناً عميقاً بكتاب الله ، وأيقنا أنه الحق من رب العالمين : { **... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** . سورة فصلت الآيات ( ٤١ - ٤٢ ) } كما قال الله تبارك وتعالى .

ووجدنا في هذا الكتاب ، العجب العجاب ، من إمكانيات التسخير بآيات الله بإذن الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

لا سحراً ولا شعوذة ، وإنما تسخيرات لقوى غير مرئية فاعلة ، سمّها نورانية إذا شئت ، وبشتى أنواع الأشعة المعروفة ، وربما غير المعروفة في علومنا الأرضية .

يعرف ذلك كل عالم ديني ، وكل مؤمن ورعٍ تعرض بشكل أو بآخر لبعض ما تعلم من الغير ، أو لبعض ما علمه الله سبحانه من الرقى والتعاويذ .

تعامل بذلك أنبياء وأولياء وأئمة أطهار، وهذا أمر مجمع عليه عند كافة المسلمين . لذلك أقدمنا على عرضه بقوة المحقّ وعتقوان المحقّ ، وبروح التحدي في مواجهة المستقيلين من الدين ومواجهة المبطلين .

نحن هنا ، ندعو إلى كتاب الله المجيد ، دون أن نتنكر للتكنولوجيا ، ويا حبذا لو أننا ركبنا أجنحتها منذ العباس ابن فرناس ، المسلم الذي اخترع أول طائرة في العالم ، ولكن الله في خلقه شؤون ، تبعاً لإقبالهم عليه وعلى كتابه سبحانه ، أو تأجيلاً لهم أو تجميداً تبعاً لإدبارهم .

وهل الله سبحانه أعطى التكنولوجيا لأهل الغرب وأهل الحضارة الزنديقة حباً وكرامة ؟ لن نخوض في هذا لأنه يخرج بنا عن أصل موضوعنا .

وموضوعنا الذي هو آية التسخير الكريمة لا يدخل إليه إلا بمفتاح أساسي وكبير ، والمفتاح هو هذا السؤال :

هل الله سبحانه وتعالى ، سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، وجعل أيدينا فوق كل ذلك ، ليكون كل ما في السماوات وما في الأرض في خدمتنا بسلطان منه أم بسلطان منا ؟!

هذا أولاً .. وثانياً ، هل للإنسان سلطان خارج عن سلطان الله عزّت عظمته .

ولنحسم الأمر وبسرعة بالنسبة للسؤال الثاني ، فنرى بعين العقل أنه يستحيل الخروج من هذا الكون أو الوجود بأطواله وأبعاده وأعماقه وأسارره لأنه كله خلق الله وملكوت الله .

فيبقى السؤال الأول ، وجوابه أن الإنسان لا يمكن أن يتوصل إلى علم أو إلى دراية أو انتفاع بشيء مما خلق الله في السماوات والأرض إلا بسلطان من الله .

هذا السلطان هو نسبي ، يعطيه الله عز وجل للأقوام والأمم والأفراد مترتباً على قربهم أو بعدهم منه سبحانه . ومنهم من يعذبهم به فيكونوا من مصاديق قوله : { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ... سورة مريم الآية ٧٥ } وليرى جميع البشر صدق وعده جل شأنه : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . سورة فصلت الآية ٥٣ } .

ولشرح ذلك نذكر ما جاء في سورة الرحمن قوله عز وجل :

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُتُوا لَا تَنْفُتُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . سورة الرحمن الآيات ( ٣٣ - ٣٥ ) } .

يروى أن الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه ، استدعى أحد كبراء علم الكلام عباية بن ربيعي الأسدي وكان له أتباع يقول ويقولون إن الإنسان يستطيع بدون الله أن يفعل وأن .. وأن .. وقد دبجوا في ذلك مقالات ورسالات . فسأله أمير المؤمنين يا عباية ماذا تقولون في الإستطاعة . قال كما تسمع عنا يا أمير

المؤمنين . قال : يا عباية والله إن كنت تقول أنك تستطيع بدون الله قتلتك . وإن كنت تقول إنك تستطيع مع الله قتلتك . قال : إذن فما يجب أن نقول يا أمير المؤمنين . قال تقول : أن لا استطاعة إلا بالله العليّ القدير وحده لا شريك له . يا عباية أو ما تسمع العلماء وعامة المؤمنين يتعبدون بالقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . هنا سأل عباية : يا أمير المؤمنين معلوم معنى لا قوة إلا بالله ونحن نعلم أن الحول من معاني القوة فلماذا التكرار . قال : ليس كذلك . وإنما المعنى : لا حول عن معاصي الله إلا بلطف من الله ، ولا قوة على أداء الطاعات لله إلا بتوفيق من الله جلّت عظمته ..

وفي كلام لأحد الصادقين سلام الله عليهم : " هو سبحانه المالك لما ملكهم ، وهو القادر على ما أقدروهم عليه .. " .

## بومضة عين أتى بالعرش من اليمن إلى بلاد الشام :

{ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ... سورة النمل آية ٤٠ } .

قوله تعالى : { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ .. } هذا الكتاب أي كتاب ؟ ما دام القائل الذي عنده علم من الكتاب ، في مجلس سليمان عليه السلام ، فلا يمنع أن يكون الكتاب الذي عنده هو التوراة . أي الكتاب الذي أنزله الله تعالى قبل سليمان على موسى عليه السلام . وما دام الأمر كذلك ، ففي التوراة مفاتيح من مفاعيلها ما علمناه من نقل عرش من اليمن إلى الشام ، كان يقتضي مارداً من مرده الجن بذل جهدٍ وقوةٍ ومدة زمنية ليتمكن من حمله ونقله إلى المكان إياه . بينما استطاع الذي عنده علم من الكتاب أن يأتي به بومضة عين . وذلك معنى قوله : { .. قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. } .

وما دام الأمر أيضاً كذلك ، فحتماً إن في القرآن الكريم مفاتيح من شأنها أن تكون أعظم فاعلية من تلك التي في التوراة ، لسببين أقوى من وضوح الشمس :

أولاً : أن الله سبحانه نصّ على أفضلية القرآن الكريم على الكتب السماوية التي من قبله .  
قال سبحانه مخاطباً رسوله محمداً (ص) :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...  
سورة المائدة آية ٤٨ }

فقوله تعالى : { .. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. } يعني القرآن الكريم ، وقوله : { مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... } أي ما قبله من الكتب السماوية المنزلة . فجميع المنزلات أصلها كتاب واحد ، تدرّج مع الأنبياء من البدائية إلى الكمال المتناسب مع ترقّي البشرية ، بثورات العلم عقلاً ونقلاً وتجاريب . يتمحور ذلك كله حول التعاليم الإلهية ، حتى كان آخر الرسائل مختوماً بكمال الرسالة الخاتمة المنزلة على رسول الله محمدٍ (ص) ، متمثلة بالقرآن العظيم . والكتاب الذي يهيمن عليه القرآن الكريم ، هو

كذلك حصراً ، التوراة والإنجيل . وإشارة إلى هذه المعاني بخصوص لفظة (كتاب) نستفيدها من قوله تعالى :

{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . سورة البقرة آية ٢١٣ . }

والسبب الآخر في أفضلية القرآن المجيد وبلغ أسراره في ظواهره وبواطنه ، هو حفظه من قبل الله تبارك وتعالى ، من أن يزداد عليه أو ينقص منه أو يحرف الكلم فيه عن مواضعه كما فعلوا بالتوراة وفعلوا بالإنجيل . قال تعالى فيه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . سورة الحجر آية ٩ } .

وفي إشارة لفاعلية ما فيه من مفاتيح بإمكان القرآنيين إذا أوتوا مأذونين بتفعيلها ، أن يغيروا بها وجه الأرض ، والحضارة الزنديقة هذه إلى حضارة كريمة ، يحكمها الشرف والعدل والمحبة ، وليس وحوش البشر وطواغيتهم ، قوله تعالى :

{ وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا سُورَةَ جِبَالٍ أَوْ قَطَعْتَ بِه الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَهُ بِه الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . سورة الرعد آية ٣١ } .

## بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا :

=====

{ .. بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } هذه الخلاصة هي خلاصة الآية السابقة : { وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا سُورَةَ جِبَالٍ أَوْ قَطَعْتَ بِه الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَهُ بِه الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } وهي قلبها ومحورها التي تدور عليه حقائقها وأسرارها ، بل هي المحور الذي يدور عليه القرآن العظيم كله ، والوجود الأزلي الأبدي السرمدي كله .

وغاية درجات العلم هي إدراك هذه الحقيقة : أن َّ { .. بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } .

ولن تقوم للمسلمين قائمة من حالة الترددي التي هم فيها حتى يدركوا هذه الحقيقة : أن َّ { .. بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. } .

ولن يدركوا هذه الحقيقة حتى يتبعوا هذه المنهجية الرائعة البسيطة المنجية ، على مستوى الأمة وعلى مستوى القيادات :

أولاً : على مستوى الأمة ، فإن يتوخى المسلمون العلم بالله . العلم الذي آتاهم الله إياه عن نفسه وإحاطته بهم ، وقوة حضوره سبحانه معهم وهيمته على الكون جملة وتفصيلاً . وأن يتفهموا معنى الإحاطة ، انطلاقاً من الآية الكريمة ، التي فيها أعظم تعريف لله تبارك وتعالى عن نفسه :

قوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . سورة الحديد الآية ٣ .

وبعد هذه الآية مباشرة قوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } . سورة الحديد الآيات ( ٤ - ٥ ) .

هذا أولاً . وسنعود إنشاء الله لتفسير هذه الآيات .

أما ثانياً ، وعلى مستوى الأمة ، فإن يكثر المسلمون من قراءة القرآن الكريم ، ويعملوا بظواهره ، فإن كانوا صادقين صديقين ، يؤتاهم الله من بواطنه وأسراره ، ومن مفاتيح أرضه وسماواته التي فيه ، مع تفصيل ما شاء منها لمن شاء منهم سبحانه له الحمد .

على أن تلاوة القرآن وتدبره واجب عيني ، وهي من أفضل العبادات وأفضل الطاعات التي لا يقبل في حال الإعراض عنها وعدم الإحاطة بها عذر لمعتذر ، وذلك في نذيره سبحانه إشارة إلى محاكمته الجاهلين بالقرآن المعرضين عن آياته أو المكذبين بها . قوله سبحانه :

{ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . سورة النمل آية ٨٤ .

مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ مخيف هذا السؤال يوم الحساب ، يوم القيامة . ولا سيما لأكثر الأكاديميين من المسلمين والذين يطلقون على أنفسهم إسم النخبة ، أي المثقفين من حملة الإجازات فما فوق .

ومن البداهة لهؤلاء حتى يحملوا إسم النخبة المتعارف ، أن يكونوا قد قرأوا وتمعنوا بعشرات الكتب والمجلدات وربما بالمئات منها إضافة إلى مواد الإختصاص وهم مع ذلك لا يعرفون القرآن الكريم . وربما بعضهم يتلوه خطأ إذا تلاه ، وقليل منهم يقرأونه قراءة صحيحة وإنما لا يتدبرونه ، أي أنهم لا يفقهون معانيه ولا مراميها ولا عظائمه ، ناهيك بأسراره ومفاتيح السموات والأرض التي فيه . هؤلاء ستمتقع وجوههم وترتعد فرائصهم ويتمنون لو أن الأرض انشقت فابتلعتهم ، عندما يطرح عليهم السؤال المخيف : { .. أَكذَّبْتُمْ بِآيَاتِي؟! وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا؟! أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟! } .

ويقيناً — كونهم النخبة ، ولو أنهم هم سموا أنفسهم كذلك — فسيتحملون ، بل ويحمِّ لهم سبحانه ، مسؤولية فشل هذه الأمة — زمانهم — وإحباطاتها ، بعد أن يحبط أعمالهم ، مهما كانت في أنظارهم وأنظار

العامّة مجيدة وجليلة ، حيث لا يقبل عمل بلا إيمان حقيقي ، ولا إيمان حقيقي لمسلم بلا قرآن ، وتدبر واعٍ للقرآن .. الكريم والمجيد والعظيم ، تصديقاً وتطبيقاً .

## هل يعدم القرآني العادي فاعلية المفاتيح ؟

أعني بالقرآني العادي ، الذي ليس في درجة الأولياء الذين يفتح عليهم الله سبحانه من فضله ورحمته ، من المعارف والحكمة ومغاليق المعاني والأسرار ما شاء أن يفتح ، وهؤلاء في العادة أهل عبادة ونسك واجتباء ، وهجرة عن مفاتن الدنيا وحتى عن مغريات الآخرة ، إلى الله وحده ، الحبيب الأعظم .

هؤلاء العارفون بالله ، قد يؤتي الله بعضهم كذلك من المثاني التي أتى منها محمدٌ (ص) ما شاء سبحانه ، وهذه المثاني هي من أعلى مقامات الذكر والثناء والدعاء والتقرب إلى الله في آن واحد . وقد جاء عنها في القرآن الكريم قوله تعالى :

{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . سورة الزمر آية ٢٣ } .

ولقد عقدنا عن المثاني ومعانيها ومغازيها فصلاً في كتابنا " الحكمة الإسلامية ، بحوث من مقتضيات العصر " . وينبغي هنا أن لا نطيل فيها ، لكي لا نبعد عن السؤال : هل يعدم القرآني العادي فاعلية المفاتيح ؟ أو المثاني ؟ إذا لم يكن يعلم أنها من أسرار الله في كتابه ؟

في الحقيقة أنه من فضل الله العظيم على القرآنيين خاصة وعلى المسلمين ، بل وعلى جميع أهل الإيمان عامة ، أن جعل الله سبحانه في قراءة القرآن الكريم فوائد جليلة للقرآني العادي في نفسه وبدنه ومتعلقاته ، وكلما كان أكثر تدبراً كان أكثر فائدة ، فضلاً عما فيه من أدعية خاصة وعامة تنال بركاتها المؤمنين أينما كانوا ، ولا سيما تلاوة ما أسماه الله سبحانه مقاليد السموات والأرض ، أي المفاتيح التي نحن بصددّها . قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٦٣ :

{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . }

وقوله تبارك وتعالى في سورة الشورى الآية ١٢ :

{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . }

من هنا وجوب الإعتبار ، أنه كلما زاد عدد قراء القرآن على مستوى الأمة ، في البيوت والمساجد والمدارس وكل مكان تمكن فيه التلاوة ، حتى في جبهات القتال ، رفع الله عن الأمة بعضاً من غضبه وخذلانه ، وأتاه نصره على أعدائه وأعداء دينه ، وأنقذها من الهوان التي هي فيه إلى العزة التي يحبها لها والسؤدد والكرامة .

وحتى يوم القيامة ، تتفاضل الأمم بمدى التزامها بكتبتها وستحاسب أمة القرآن بالقرآن ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

سورة الجاثية الآية ٢٨ } .

كما سيحاسب كل فرد عن نفسه ، كذلك بالقرآن ، وعن اعتقاده في كونه منزلاً من الله سبحانه على قلب رسوله محمّد (ص) جملة وتفصيلاً . وأن القرآن المجيد فيه صفوة دين الله ، وهو الصراط المستقيم . وقد وصف الله سبحانه من يشك في القرآن المجيد ، أو من يكفر بكونه من لدن الله تبارك وتعالى ، وصفاً تختلج له العروق ، وتضطرب القلوب التي في الصدور خوفاً وجزعاً ، قال تعالى في سورة المدثر :

{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَيَّنَّ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْهُقُهُ صَغُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ فَدَرَّ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . الْآيَاتِ مِنْ ( ١١ - ٢٨ ) } .

**ثالثاً : لكي تكون مقبولاً عند الله ولياً من أوليائه :**

=====

فأول عمل تعبدي يتفضل به عليك سبحانه هو أن يتقبلك في فئائه . ثم أن تفنى في فئائه .. طاعةً وحباً . والفناء دار البيت .

أما كيف ؟ فيستحيل أن تعرف قبل أن تصل .

وهذه أول وأهم مراحل الهجرة إلى الله سبحانه وتبارك وتعالى عما يشركون .

ثم أن تحب الله أعظم الحب ، وإذا أحبك هو سبحانه أدخلك في بحر أحديته ، وآتاك أنواراً تصيرك من مصاديق قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة النور الآية ٣٥

. {

ثم قوله تعالى :

{ .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } .

وأن تكون :

{ فِي بُيُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور الآيات ( ٣٦ - ٣٨ ) . { (

وأظهر هذه البيوت ، بيت نفسك .

وأن تعي هذا الحديث الممثل لروح القرآن وأصالة العقل ومغزى التوحيد والتفريد والشمولية والإحاطة والهيمنة وسائر معاني الأسماء الحسنى ، وأن تقع فيه ، وهو حديث مهيب بن الورد :

" إذا وقع العبد في ألهانية الرب ومهيمنة الصديقين ورهبانية الأبرار لم يجد أحداً يأخذ بقلبه . "

يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من أنوار الربوبية والأسماء الحسنى ، وصرف همه وإرادته إليها ، عزف عن الناس ، حتى لا يميل قلبه إلى أحد ، وأحب الله الحب الأعظم حتى ليملك عليه قلبه وعقله ونفسه وأشرف أحاسيسه .

وفي تفسير هذا الحديث في اللسان (\*) قال : أي لم يجد أحداً يعجبه ولم يحب إلا الله سبحانه .

وفيه (\*) " قال ابن الأثير : هو مأخوذ من إلهٍ وتقديرها إعلانية بالضم ، تقول إلهٌ بين الإلهية والألهانية ، وأصله من إله يألوه إذا تحيّر . يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف همه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد . "

نحن قلنا : عزف عن الناس ... وأحب الله الحب الأعظم ... هكذا تكون — إذا واليته حقاً ولايته سبحانه - من الذين اجتباهم الله وأورثهم الكتاب وأذهب عنهم الحزن في الدنيا والآخرة ، قوله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله محمداً (ص) ومنوِّهاً بورثة الكتاب من أوليائه :

(\*) لسان العرب لابن منظور ج ١٣ باب هـ مادة أله ص ٤٦٧ دار صادر .

{ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ

أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . سورة فاطر الآيات ( ٣١ - ٣٥ ) .

يبدو إذهاب الحزن - في الآية - مقروناً مع الآخرة بعد دخول الجنة ، والحقيقة ، أن العبد الصالح قد يوتى أن يكون من مصاديق هذه الآية { .. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ .. } في الحياة الدنيا ، ولكن بعد أن يكون قد مرَّ في أنفاقٍ من الابتلاءات في الجهادين الأكبر والأصغر : جهاد النفس وجهاد أعداء الله وأعداء دينه على اختلاف أنواعهم ومشاربهم . فبعد أن يكتب له الفوز إذا كان من الصديقين وأهل اليقين ، يؤتية الله سبحانه ، وينسبٍ تتناسب مع مؤهلاته ، أن يجد نفسه في ظلال هذه الآية الكريمة ، متعبداً بتلاوتها بين نوم ويقظة وإحساس عميق بانطباق معانيها عليه في المراحل المتقدمة من هجرته إلى الله سبحانه . يداخله معها شعور عميق بالأمن والطمأنينة ، والراحة النفسية والعصبية ، ولو كان في قبضة عدوه أو تحت قدافه أو في حمية معركة أو أية مواجهة معه ، ومن البديهي أن يصحبه هذا الشعور ، في جميع المواقف في حياته الإجتماعية ، فيطبعه بالحكمة والشجاعة والصفاء ، والقدرة على الفصل بين الأسود والأبيض في مجالي المعاني والضمائر ، وحتى بين الرمادي والأبيض . فيكون ذلك له من جملة الثوابت التي تثبته ولياً من أولياء الله تبارك وتعالى .

فإذا أصبح على بيئة من ربه ، وأنه أصبح من عباده الصالحين ، يصبح همه الله وحده ، ذاكراً شاكراً ، متهيباً ، خائفاً من الوقوع في أدنى خطأ قد لا يرضي الله سبحانه ، لا الماضي يشده فيتحسر على فواته ، ولا المستقبل يشغله عن حبه لربه وعن ذكره وشوقه إليه ، حتى أنه ينشغل بحب الله سبحانه عن الجنة والنعيم الموعود ، فيصبح الله عنده ، هو جنته ونعيمه وروحه وراحته ، يأنس أكثر ما يأنس به وحده ، بمناجاته وبالتأمل في آياته ، وكلما ناجى وتأمل ، كلما فتح الله عليه فتوحاً من العلم ، ومن بواطن الآي المدهشات ، ومن القوة والعافية في النفس والبدن ، وتجنيبه الآفات ، ويكشف له من الحقائق ما لم يكن يحلم به ، ويؤتية من الإحساس بالسعادة والفوز ، وقوة اليقين ، وجمال الهداية ، ورونق الصلاح ، ما لو عرضت عليه الدنيا بأموالها وكنوزها ومغرياتها كبديل عن قربه لربه وانشغاله بحبه ، لا يرضى بكل ذلك بديلاً .

فهل يعيش العبد الصالح بعض معاني الجنة الموعودة ؟ لا بدَّ من ذلك ، وقد يكون في طرف من أطرافها ، وهو ما زال في الحياة الدنيا ، فروحه ونفسه في حالة انعتاق ، تتجولان حتى في عوالم الملكوت ، وحتى - بالنسبة لبعض المقربين - وصولاً إلى سدرة المنتهى .

أما الدليل على ذلك فأية { .. النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } ، وآيتا : { .. الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. } .

قال تبارك وتعالى : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي . سورة الفجر الآيات ( ٢٧ - ٣٠ ) } .

وقال سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . سورة فصلت الآيات ( ٣٠ - ٣١ ) } .

وقوله جلّ وعلا : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . سورة الأحقاف آية ١٣ } .

ليتم لنا تحسس اطراف الجنة الموعودة والنعيم المقيم ، أول شرط ينبغي أن يتوفر فينا هو طمأنينة النفس ، أي الشعور شبه الدائم بالطمأنينة والسكينة . لكي يصحّ - بموجب الآية الكريمة الأولى - أن النفس راضية وتبعاً لرضاها بالله وبما قسم الله تكون مرضية . ولا يحصل الإطمئنان الكلي إلا مع اليقين بوجود الله وبإحاطته بالكون ومفرداته - ومنها الإنسان - إحاطة كلية . وبأن الله سبحانه وتعالى : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية ٣ } .

فإذا حصل هذا الإيمان بأعلى درجات اليقين . يأتي شرط آخر لا ينفك عن الشرط الأول لحصول الطمأنينة ومعها الرضى ، هذا الشرط هو الإستقامة . والإستقامة هي الطاعة ، والطاعة هي الإلتزام بأوامر الله والإنتهاء بنواهيه .

فإذا تكامل هذان الشرطان : الإيمان بالله ومعها الإستقامة ، كان الإنسان معهما على أطراف الجنة ، مقبولاً عند الله ، راضياً مرضياً في الدنيا والآخرة .

وهذه المعاني هي من الحقائق القرآنية ، فيقول الله عز وجل أنه في السماء إله وفي الأرض إله وقوله سبحانه أنه معكم أينما كنتم ، وقوله عزت عظمته ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم . ثم قوله للنفس المطمئنة : يا أيها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية .. الآية . ألا يعني هذا ، أن جنته سبحانه وتعالى لها أطراف في الدنيا تتحسسها النفوس المطمئنة الراضية بربها المرضية عنده في الدنيا وفي الآخرة .

ومن حقائق كون النفس المطمئنة تلامس أطراف الجنة الموعودة أن الملائكة يواكبون أهل الطاعات وأهل الصلاح في الدنيا ، والملائكة خيرات وبركات ، هم قوى نورانية واعية مأمورة بحفظ الإنسان المستقيم في نومه ويقظته ، وحله وترحاله . وعندما نقول بحفظ الإنسان المستقيم ، يعني توليه بالحراسة والحماية وتجنبيه العثرات ، وطرد الشياطين عامة ومنها الميكروب وأنواع الفيروس وجميع مسببات أو مستدعيات الأمراض الخطيرة . والملائكة يقومون بمهامهم وخدماتهم بموجب منهجية من لدن الله تبارك وتعالى ، إذ يكون هو رقيبهم وحسيبهم بواسع علمه ورحمته : قال تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا نُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ ... سورة ق الآية ١٦-١٧ } والمتلقين ملاكان كما هو محقق .

ذلك معنى الولاية ، ولاية الملائكة للإنسان المستقيم في الآية : { .. تَنْتَزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الْأَلَّا تَحَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا... نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. } ففعله تعالى : الْأَلَّا تَحَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا : يتداخل فيه الأمر بالخبر . فالأمر من الله على ألسن الملائكة يأمرون المؤمنين إلهاماً أَلَّا تَحَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا .. والخبر أن الملائكة كذلك مأمورون من الله جل شأنه أن يحولوا بين المؤمنين هؤلاء وبين أن يخافوا أو أن يحزنوا . وجميع هذه الحالات ، يحكمها الله سبحانه ويرعاها بمبدأ النسبية المتعلقة بتفاوت إيمان المؤمنين وتفاوت إخلاصهم وصدقهم وولائهم لله سبحانه وتعالى عما يشركون . فالمؤمن بالله ، المستقيم على

الطريق المؤدي إلى الله ، لا يخاف ولا يحزن ، وهو مأمور الأ يخاف ولا يحزن . وهذا معنى الآية الثالثة :  
{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . }

## الفصل الثالث

### لباس التقوى

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا  
وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .  
سورة الأعراف الآية ٢٦ }

## اللباس اثنان : مادي ونوراني :

=====

لننظر أولاً في هذه الآية الكريمة التي صدرنا بها الفصل والتي من دلالاتها أنّ اللباس اثنان : مادي ونوراني .

فالقسم الأول المادي في الآية : قوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا .. } وهو خطاب للبشرية في جميع مراحلها وحتى قيام الساعة ، قوله تعالى : يا بني آدم . أما قوله : { .. قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا .. } ، فواضح أنه أمرٌ باللباس الغاية منه هنا ، ليس تلافياً حرّاً أو برد ، وإنما قيده في الآية أن يوارى السوءات ، أي يستتر عوراتكم . وهو من مثل الأمر في استعمال الحديد سلاحاً - في جملة ما يستعمل - لينصر به دينه وينصر رسله . قال تعالى :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . سورة الحديد آية ٢٥ } فليس المقصود بقوله تعالى : { .. أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ .. } ، أنّ أنزله من السماء ، ولكن المعنى أنه قضاه أمراً منزلاً من عليائه . وكلمة أَنْزَلْنَا لا تعني دائماً — في القرآن — الحالة المكانية من حيث العلو والسفل ، وإنما تعني تعالي الله سبحانه عن خلقه ، وكبريائه في أرضه وسماواته وعرشه العظيم : ففي ختام سورة الجاثية قوله عز وجل : { فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . } .

أما كلمة { .. رِيشًا .. } في اللغة ، فالمقصود بها " الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر " كما جاء في لسان العرب لابن منظور .

وقد خصّ القرآن الكريم البالغين بهذا اللباس الساتر للبدن عامة في سورة النور ، قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . سورة النور الآيات ( ٥٨ - ٥٩ ) . }

إلا أن الله سبحانه أراد للمرأة خاصة أن تحفظ أنوثتها وما في عامة جسدها من مستدعيات الإثارة التي ميزها الله بها ، أن تحفظها كما يحفظ الدرُّ في المحار وأنواع الجواهر في علبها وخزائنها ، حتى لا يعيب بها ويحط من قيمتها وكرامتها ، كما هو الحال اليوم ، حيث باسم الحضارة والحرية اللاواعية ، تمتهن المرأة وتستترخص ، وتشترى وتباع ، وتفضح على الجدران وشاشات التلفاز ، ناهيك بسحق كرامتها وقتلها المعنوي بين المخدّر والمسكر وأنياب الذئاب .

عرّوا المرأة من ثيابها ، مخالفين أمر الله ، وعرضوها أو عرضت نفسها لتكون في الدنيا من مستدعيات غضب الله وفي الآخرة طعاماً لنيران الجحيم .

الله عز وجل أراد للمرأة عِزَّ طاعته لا أن تذللَّ بمعصيته ، وأراد لها عنفوان الحرائر لا استكانة العبيد . أراد سترها لا افتضاحها ، ثم لها هي أن يكون مصيرها إما من الحور العين ، أو من الأفاعي والزحافات .

وكما رأينا في آيات الحشمة في سورة النور : وجوب الاستئذان على الأهل في غرفهم ثلاث مرات في اليوم ، في الأوقات التي لا بد لهم منها من خلع بعض ثيابهم استعداداً للوضوء كمقدمات للصلاة .

أي أن الأبوين في البيت وجميع أفراد الأسرة كباراً وصغاراً وكذلك الخدم ، كل هؤلاء ملزمون بالتعليم الإلهي : الراشدون يحتجبون أثناء خلع ثيابهم والآخرين أطفالاً وكباراً يستأذنون عند ضرورة الكلام معهم أو الحاجة إليهم . ذلك كله ، لكي لا يطلع أحد على عورة أحد ، ولا سيما الأولاد على عورات الأبوين . ومعلوم في فقهننا الإسلامي أن بدن المرأة كله عورة . فالمرأة المسلمة في البيوت الفاضلة ، نجدها دائمة الحشمة والحرص على ستر جسمها حتى أمام أولادها وعامة أرحامها .

إلا أننا نجد المفارقة العجيبة بين هذا التعليم الإلهي المعمول به في البيوت الفاضلة ، وبين سلوك أدعياء الحضارة والتحرر ، حيث لا يبالي الآباء ولا يتحرجون من الظهور أمام أولادهم شبه عراة ، وبـ ( الشورتات ) التي أصبحت الزي السائد داخل البيوت وحتى خارجها ، وقد تكون النساء - كما ينقل إلينا - أسرع إلى ارتداء ( الشورت ) وتعريّة الصدر بمعظمه والكتفين ، بحجة الحرّ أو بحجة التحرر . هذا التحرر المزعوم ، ينتج عقداً ، في الأولاد والأحفاد وكل من له علاقة بالأوضاع المنفلتة ، عقداً لا يعلم مداها ومدى الأضرار التي فيها إلا واضع القانون ، قانون الحشمة ، رب العالمين .

ولسنا بحاجة لكبير جهد لإثبات ما نقول ، فتكفي نظرة استطلاع لأحوال المجتمعات ، على أبواب الألف الثالث للميلاد ، لنرى مدى الانهيار الأخلاقي ، ابتداء بتفسخ الأسرة ، وحتى انعدام الأسرة الشرعية ، مروراً بالشذوذ بين الجنسين ، وانتهاءً بالإيدز القتل الذي ما كان إلا نتيجة للعهر والتسيب ، والتقلت من الدين ، أي من وصايا رب العالمين .

ولا يظنُّ أحد أن الدين المسيحي أكثر حرية أو تحرراً من اللباس ومن الثياب ومن الحرص على الحشمة بارتداء الثياب الساترة والطويلة الفضفاضة . ولو كان الأمر كذلك لما رأينا راهبات الأديرة على امتدادها في الشرق والغرب ، بأزيائهن الداعية إلى التوقير والإحترام . والحقيقة أنهنَّ ما ارتدين مثل هذه الأثواب إلا اقتداءً بالسيدة مريم أم يسوع المسيح عليهما السلام . وهي التي ، في أصل العقيدة المسيحية ، ينبغي أن تقتدي بها كل امرأة أو فتاة تدين بدين السيد المسيح وأمه القديسة البتول . ولكن النصارى خالفوا تلك الوصايا الملزمة - كما رأينا - لجميع البشر ، في جميع عصورهم وحتى قيام الساعة .

واليهود كذلك خالفوا وعصوا ، وما أكثر ما خالفوا وعصوا .

تقول الراهبات " الحبسات (\*) " وهو الإسم الذي يطلقته على أنفسهن : إن تاريخ " رهينة الكرمليت " يعود إلى ما قبل الميلاد ، إلى أيام النبي إيليا ، وكان هذا الدير قد أقيم على جبل الكرمل المطل على مدينة حيفا في فلسطين قبل مجيء السيد المسيح عليه السلام .

فالقرآن الكريم ، والمسلمون لم يتشدّدوا بشأن الحجاب ولزوم الإحتشام كما يظن عامة الناس . القرآن الكريم إنما جاء مذكراً بهذا التعليم الإلهي الملزم لجميع البشر منذ

---

(\*) الراهبات الكرمليين ومركزهم في أسبانيا ولهم فرع في لبنان .

وجود المجتمعات الإنسانية على الأرض ، وذلك في قوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... } .

إلّا أن القرآن الكريم ، لأنه مصدق لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليه فقد فصّل ودقّق في قضية ستر السوات والاحتجاب . قال الله سبحانه :

{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .  
سورة النور الآية ٣٠ } .

هذا للرجال ، وعضّ البصر هو عن عورات النساء ، وعورات الرجال وعن كل حرام ، أما قوله تعالى : { .. وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .. } ، الأصل حفظها عن الزنى ، إلّا أن المقصود - هنا باعتبار السياق كما سنرى في الآية التالية والمتعلقة بستر النساء - المقصود ستر العورات .

ثم بعدها مباشرة قوله تعالى مخصّصاً ومفصّلاً عن النساء ، مما يوجب النظر والخوف من الله بسبب ما وصلت إليه المرأة بشكل عام من التفلت - عالمياً - من حكم الله سبحانه ، ومن الخروج عن إرادته . قال تبارك وتعالى :

{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . سورة النور الآية ٣١ } .

بالمقارنة بين الأمرين : أمر الرجال وأمر النساء فيما يتعلق باللباس والاحتشام ، نلاحظ عناية مميزة ودقيقة بأمر النساء . ففي مطلع الآية الثانية : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ .. } هو نفس الأمر الذي يتساوى به الرجال مع النساء ، أي عضّ البصر ، وهو يعني إنشاء حاجز من الشرف والتعفف وخشية الرقيب السميع البصير الذي هو الله سبحانه . يرتاح معه ضمير الرجل ، ويرتاح معه ضمير المرأة ، وينجو كل منهما - مع عضّ بصره - من خيانة الله وخيانة نفسه وخيانة غيره ، أي أنه ينجو من لعنة الله

وعقوبات الدنيا والآخرة . وكذلك القول في { .. وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. } إذا اعتبرنا فيها معنى الزنى ، فتكون من الذنوب العظيمة ، أي ما يعتد به التشريع الإلهي عامة من الكبائر . وكذلك هذا — كما قدمنا - يتساوى ، من حيث الحكم فيه ، الرجل والمرأة .

ثم تعظم العناية في أمر ستر النساء زيادة عن الرجال ، وتأتي مفصلة مدققة : { .. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. } مثل الكحل والخضاب والخاتم ، وهو ما لا يجب ستره لا في الصلاة ولا في غيرها . أما ما يجب ستره في الصلاة ، فهو كذلك ما يجب ستره على غير المحارم المذكورين في الآية ، وتفصيله هكذا { .. وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. } وتسمى أيضاً المقانع ، جمع خمار وهو لباس للرأس ، الشرعي فيه أن ينسدل على الصدر مغطياً العنق والصدر وكل حَنِيئَةٍ تظهر إغراءً فيه وهذا معنى { .. عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. } فالجيوب الثغرات والفجوات .

ثم قوله تعالى : { .. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. } يعني مواضع الزينة بالضرورة لأن الزينة لا تبدو إلا إذا بدت مواضعها ، وهي الأفراط في الأذنين والعقود في الأعناق والأساور في المعاصم ، وقبل أن يلبس الخلاخيل في الأقدام . وواضح أنه لا يبقى من المسموح بظهوره إلا الوجه والكفين والقدمين .

ثم يعدد المحارم الذين تجوز لهم رؤية مواضع الزينة وهم أزواجهن قوله : { .. إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ .. } { .. أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَاتِهِنَّ .. } والأجداد آباء وإن علوا ، والأحفاد أبناء وإن سفلوا ويدخل في ذلك أجداد الأزواج ، وهؤلاء جميعاً كما هو معلوم يحرم عليهم نكاحهن ، فكل واحد منهم ذو محرم إما بسبب وإما بنسب . ثم قوله تعالى :

{ .. أَوْ نِسَائِهِنَّ .. } يعني المؤمنات .

وقوله { .. أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. } من الإماء جمع أمة وهي الجارية المملوكة ومن العبيد الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

وقوله : { .. أَوْ النَّابِغِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. } وهم أنواع البله أو الخصيان المجبوبين أو العجزة وكل من ليس له رغبة في النساء وهذا معنى { .. غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ .. } والإربة أو الأرب الرغبة والحاجة . ثم قوله تعالى : { .. أَوْ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. } يريد بالطفل هنا الأطفال إذ يصح لغة في الطفل معنى الجمع ، وهم الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الشهوة ولم يعرفوا عورات النساء .

{ .. لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ .. } كانت المرأة تلبس الخلاخيل ، فإذا مشيت وضربت برجلها يتبين خلاخالها ويسمع رنينه . فنهاهن عن ذلك . { .. وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .. } التوبة إلى الله الرجوع إليه سبحانه والتوجه إليه بنية صادقة ، مع إبراء الذمة من أي إخلال أو عصيان لأوامره ، وبذلك يكون الفلاح والسلامة في الدارين : الدنيا والآخرة .

هذه الآية في سورة النور : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... } تعتبر آية الحجاب الرئيسية الجامعة الشاملة الملزمة . وهي مكملة لآية سورة الأحزاب : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ .. } ورافعة لمرحليتها . لأن ظرف نزول آية الأحزاب ، كان متعلقاً بتركيب إجتماعي ، موجزه أن الإماء كن يخرجن في قضاء حاجات أسيادهن حاسرات الرؤوس ، ولأنهن لا يتميزن بعنفوان

الحرائر وحصانتهم ، كان يتعرض لهن أهل الريب ، فيغمزونهن ويمازحونهن . وكانوا ربما يتعرضون للحرّة إذا لم تكن منقبة ومتجلببة ، فيتجاهلون حقيقتها ويترشون بها ، مما يسبب لها أذى في نفسها وشرفها وعنفوانها ، فجاءت الآية تعالج هذه الحالة الظرفية ، وهي قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ .. سورة الأحزاب الآية ٥٩ } أي ذلك أقرب إلى أن يعرفهن أهل الريب من السوقة ، فيتهيبونهن ولا يقدمون على غمزهن أو ممازحتهن .

أما وأنّ الظرف يتبدل ، والأحوال الإجتماعية تتغير بتغير الأجيال والأزمنة والعادات والحضارات ، والله سبحانه أعلم بهذا ، يعلم ما كان وما سيكون . فقد أنزل آية تلزم النساء بلباس الحشمة الذي يحجب جميع أبدانهن ، فيحفظ للمرأة المطيعة لأمر ربها ، شرفها وعنفوانها ، ونقاء ضميرها ، وسلامتها من غضبه ولعنته في الدنيا ، ونجاة ما قد تبديه من بدنها — خلافاً لأمر الله — من حريق النار في الآخرة . أما الآية الملزمة والتي هي لجميع الظروف والأزمنة والحضارات ، فهي هي التي توقفنا عندها أكثر ما توقفنا ، قوله تبارك وتعالى : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... } أما بقية الآيات المتعلقة بالحجاب ، فهي من باب توكيد هذه الآية ، أو شرحها أو التنبيه إلى مضامينها ، مكمّلات بها متداخلات معها ، ولا سيما الآية التي توجهنا بها هذا الفصل وجعلناها مدخلاً لبحثنا والتي هي { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... } فهي في علوم القرآن من باب المجمل ، بينما آية { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... } هي من باب المفصل .

**القسم الثاني النوراني :** في آية : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ . سورة الأعراف الآية ٢٦ } هو قوله تعالى : { .. وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ .. } .

لباس التقوى هذا المنوه عنه في هذه الآية الكريمة ، هو لباس حقيقي للبدن ولكنه غير مادي ، هو نوراني ، موجود تحت الثياب وموجود فوق الثياب ، وهو ليس من الثياب في شيء .

ولباس التقوى هذا ، ما دام نورانيا ، هل يشاهد بالعين المجردة ، وفي اليقظة ، وهل تلتقطه آلة التصوير ؟

يقول العرفانيون - ونحن نفرّهم ونحترّمهم جداً - يقولون نعم يرى في اليقظة وإنما بالعين الداخلية ، عين القلب ، أو البصيرة ، وهو ما يسمونه الكشف ، وأكثر ما يتم أثناء الذكر والعبادة . وأثناء الهجرة إلى الله تبارك وتعالى ، إذا خلف المهاجر وراءه مضامين الدنيا والآخرة ، ويمّم وجهه الله الحبيب وحده دون أدنى عقدة من عقد الشرك الظاهر أو الشرك الخفي .

أما هل تلتقطه آلة التصوير ؟ إذا استطاعت يوماً ما أن تصوّر أشخاص الملائكة أو تمثلاتهم . ومعلوم عند جميع المسلمين وكذلك أهل الكتاب ، أن وجود الملائكة مع الناس وبينهم ، من الحقائق الدينية التي لا تناقش .

أما ما هي الصلة بين نورانية الملائكة ونورانية من يتفضل الله عليهم بكسوتهم من نوره ، فنقول هي المجانسة . قال تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ . سورة فصلت الآيات ( ٣٠ - ٣٢ ) } .

وزيادة في إيضاح ثياب النور أو لباس التقوى الذي هو خير كما وصفه الله سبحانه . نقول هو اللباس النوراني الذي كان ألبسنا الله إياه في الجنة ، ثم خسرناه بالمعصية ، ثم تاب الله سبحانه علينا ، ثم وهب لنا فرصة استرداده بالتقوى . أما متى وكيف كان ذلك ؟ فينبغي الرجوع إلى الآيات البيئات ذات العلاقة بهذا الموضوع .  
قال الله تبارك وتعالى :

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . سورة الأعراف الآيات ( ١٩ - ٢٢ ) } .

دلينا من الآيات هذه ، إلى أن لباس التقوى هو ثوب نوراني ، قوله تعالى : { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. } وواضح أنه لا الثوب الحريري ولا الثوب الصوفي ولا أي ثوب من أي نسيج مادي ، يسقط أو يزول أو يتبحر ، لمجرد وقوع لابسه أو لابسته في معصية الله . فلباسهما إذن كان لباس التقوى الذي أشار إليه تعالى بقوله : { .. وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ .. } .

وقوله { ذَلِكَ } لا بد أن يكون إشارة إلى الثوب الذي كان نورانياً في الجنة ، وكان حينذاك لباس التقوى ، ولذلك كانت الإشارة تفريقاً بينه وبين الثياب العادية ، أما وقد زال حينها ثوب التقوى بسبب المعصية ، وكان الإبط نتيجة لذلك ، فقد كان لا بد للإنسان رجلاً كان أو امرأة ، من الاستتار ومواراة السوءات ، بأشياء غير ورق الجنة ، وأين منهما ورق الجنة . فذلك أنزل الله أمره وتعليمه بالثياب وصنع الثياب : قوله تعالى : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... } .

ولو كان الله سبحانه أراد أن { لباس التقوى } هو هذا الذي أنزله لكان قال ولباس التقوى { هذا } بدلاً من { ذلك } ، ومعلوم أن { هذا } إشارة للقريب و { ذلك } إشارة للبعيد ، وهو سبحانه إنما يخاطب الناس حسب فهمهم للغتهم .

ثم دليل ثالث على أن الثوب كان نورانياً ، وأنه زال فوراً بمجرد الوقوع في المعصية ، كلامه تبارك وتعالى في سياق آخر مختلف العبارات في سورة طه ، ولكنه يستعمل نفس العبارة بحرفيته تقريباً عندما يخبر عن وقوعهما في المعصية ، وانكشف سوءاتهما تبعاً لذلك . قال تبارك وتعالى :

{ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى . فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى .

سورة طه الآيات ( ١١٧ - ١٢١ ) .

فقوله تعالى هنا : { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. } مطابق لقوله في فورية زوال اللباس { .. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .. } هذا مع اختلاف العبارات البلاغية بين السورتين في وصف الواقعة ، بغية إظهار الحقيقة كاملة لأولي الألباب .

أما وهل يعبر عن النور بأنه نوع من اللباس ؟ نعم ، وقد قال تعالى :

{ .. فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . سورة النحل آية ١١٢ } .

وقال سبحانه :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سورة آل عمران الآية ٧١ } .

ثم قوله تبارك وتعالى : { .. لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . } دليل على أن لباس التقوى ذلك الذي هو خير ، أي أفضل إطلافاً ، هو لباس نوراني ، لأنه وعد من الله سبحانه ألا يعرى ، ومعاذ الله أن يكون في وعد الله خلف أو نقص أو خلل . وهو لو كان لباساً مادياً لكان لا بد فيه من عري صاحبه بين خلع وتبديل وما شابه .

ثم مفتاح يُستأنس به ، وقد يولج به إلى بحر أحذية الله وبحار أنواره ، وتجليات أنواع النور وألوانه ، والشفاء به والعافية ، ووضوح رؤيته وانكشاف حقائقه ، والترقي به ، كلما انخلع المستنير بنور الله من الدنيا وحتى من المطعم بالآخرة ، وحصر همه بربه الحبيب العظيم ، الحليم الكريم ، والرحمان الرحيم ، وكان هو وحده غايته ، ونعيمه وجنته ، ودنياه وآخرته ، داعياً إليه ، صابراً به ثابتاً على طاعته ، حريصاً شديد الحرص على رضاه وتقواه ، فلعله تعالى يبلغه به عليا درجات رضاه وحبه وقربه ، وهو قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَفِي مَسْجِدٍ وَمِنَ الْمَسْجِدِ قِبْلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لِيُذَكِّرَ فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . سورة النور الآيات ( ٣٥ - ٣٨ ) } .

ثم قوله جلَّت عظمته : { .. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . سورة النور الآية ٤٠ } .

في بعض وجوه هذه الآية ، لباس التقوى ، أو اللباس النوراني ، وبديهي أن يجعله الله سبحانه لأهل طاعته من الرجال ومن النساء ، يعني لأهل الحشمة ، الذي يوقرون الله ملتزمين بأوامره منتهين بنواهيه . وعلى هذا ، يستحيل على رجل متهتك في سلوكه ، أو امرأة متهتكة أن يجعل الله لأحد منهما نوراً يستنير به في ظلمات الدنيا وظلمات الآخرة ، ولا سيما ظلمات يوم القيامة . قال تبارك وتعالى يصور مشهداً من مشاهد هذا اليوم العظيم ، مشهداً ينبغي أن يستوقف من كان له ولو بعض البصر وبعض البصيرة ، لشدة ما فيه من الهول ومن عظيم العبرة ، قال سبحانه :

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . سورة الحديد الآيات ( ١٣ - ١٥ ) . }

هذا المشهد من مشاهد يوم الحشر الطويل ، يبدو أنه في بقعة من الأرض مظلمة كثيرة الصخور والأشواك والعقبات ، يتخللها بعض الممرات والطرق ، بحيث أنه من لم يكن معه نور يستهدي به طريق النجاة ، لا بد أن يتوقف عن السير ، أو أن يرتطم بصخرة أو شجرة ، أو ربوة ، أو يتعثر بصعود أو نزول ، شأن الأعمى الملزم بالسير في منطقة جبلية وعرة ، ولا بصيص نور ولا بصيص أمل ولا صديق حميم .

فإذن ، في هذا المشهد ، ينقسم الناس فريقين ، فريق { .. يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. } فيضيء لهم مواطىء الأقدام ، وعمامة الأرض وتضاريسها ومطباتها وطرق النجاة فيها ، هذا الفريق من البديهي أن يتقدم على الفريق الآخر الذي { .. لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا .. } وهو - حسب الآيات - فريق المنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات . هذا الفريق الظلماني يشاهد أهل النور يتقدمون ناشطين في دروب النجاة ، فينادونهم أن قفوا حتى نصل إليكم ونستفيد من نوركم . ينادونهم وقد شعروا بالداهية الدهيئة التي هم فيها وبالغصص في حلوقهم ، فيسمعون صوتاً فيه نبرة الهزء والتحدي وإفهامهم أن نداءهم دون جدوى { .. ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا .. } ومن أين لهم النور ، ولم يجعل الله لهم نوراً أيام زمان ، أيام الحياة الدنيا ، ليكون برقتهم وليكون لباسهم المضيء ، في ظلمات الحشر وأهوال يوم القيامة .

وفوق هذا كله ، ولكي لا يستفيد الظلمانيون أية استفادة من أهل نور الله ، يرتفع بينهم جدار يفصل بين الفريقين ، جدار عالٍ له بابٌ ، لإمكان أن يلج منه من كان متخلفاً من أهل النور لسبب أو لآخر ، أو لقلّة النور التي معه .

أما باطن الجدار الذي من جهة المستنيرين بأنوار الله ، ففيه الرحمة ، أي الطمأنينة والسعادة ، وعناية الله ورعايته ورأفته وكرمه ، وأما ظاهر الجدار المقابل لأهل الظلام ، فيأتيهم من قبله العذاب ، ومن أنواعه الفزع القابض على الأعناق ، والعمى المفروض عليهم بسبب عدم وجود النور وبالتالي انعدام الرؤية . ثم الصدمة من جواب إخوانهم الذين من الواضح أنهم معروفون لديهم في الحياة الدنيا : { يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ } والغرور هو الشيطان الرجيم .

أما مصير الذين جعل الله لهم نوراً وألبسهم لباس التقوى ، فنعم الله تبارك وتعالى ، ورضاه ورضوانه .

وأما الذين لم يجعل الله لهم نوراً ، فقد خاطبهم سبحانه بقوله في سياق الآيات التي رأينا : { فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } .

## الحجاب والمجتمع :

=====

أيهما أكثر دلالة على المجتمع الفاضل ، نساء محتشمات عاملات بتعاليم الله من حيث المظهر والمسلك ؟ أم نساء هن أقرب إلى العري الفاضح ، الذي من جهة يسبب أذىً شديداً للفضلاء والأتقياء ، ومن جهة ثانية إغراءً للمراهقين وضعاف النفوس ، يفعل فيهم فعلاً سلبياً بدءاً بتخريب نفوسهم مروراً بتخريب أبدانهم وانتهاء بما نرى من الفوضى الأخلاقية والاجتماعية التي تمارسها حضارة القرن العشرين وما يليه ، تحت عنوان الحرية ، ولكن تبين حتى عند كثير من أنصارها من المنصفين الشجعان أنها حرية مدمرة وقاتلة .

فلتصلي شكراً لله ، كل امرأة وكل فتاة لم تتركب قطار هذه الحرية الذاهب بالذين ركبوه من النساء والرجال .. إلى الجحيم .

وليصلي شكراً لله ، كل رجل تعقل وتبصر واستجاب لأمر الله تبارك وتعالى ، فنجنا من الحريق والغرق ، وأنجى من معه في دائرة مسؤوليته ، فكان مصداقاً حراً لقول الله جل شأنه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . سورة التحريم الآية ٦ } .

## الفصل الرابع

من هم أصدقاؤك

{... وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى}

سورة طه آية ٤٧

من أخطر العلاقات الإجتماعية في ظل عبادة الإنسان لربه ، مفهوم الصداقة ، أو الخلة . لأن الله سبحانه جعل لها مفهوماً مميزاً وتعاليم ، من تجاوزها أو أهملها أو أعرض عنها واتبع هواه ، خسر مقعد الصدق عند ربه ، وسقط إلى حيث لا تحمد عقباه .

من هذه التعاليم أو الإنذارات ، وبالكلام الإلهي المكثف الجميل ، قوله تبارك وتعالى : { **الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** . سورة الزخرف الآية 67 } .

هؤلاء الأخلاء أو الأصدقاء ، { **يَوْمَئِذٍ** } أي يوم القيامة ، { **بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } يتحولون إلى أعداء متباغضين متجافين ، يتمنى بعضهم لبعض السحق والدمار ، بعد إذ كانوا في الحياة الدنيا متحابين متصافين ، متضامنين في المواقف يسعد بعضهم بعضاً ، فلماذا هذا الانقلاب العجيب الذي يحل بهم يوم القيامة ، يوم الفصل إما إلى جنة إما إلى نار ، ثم يكونون هم من أهل النار . { **إِلَّا الْمُتَّقِينَ** } .

هذه العبارة في الآية ، قوله تعالى : { **إِلَّا الْمُتَّقِينَ** } هي مفتاح الإجابة ، ومفتاح الصداقة الحقيقية المرجوة . إذ نفهم منها كاستثناء في الآية أن الأخلاء أو الأصدقاء الذين كانوا متحابين في الدنيا ، ما صاروا أعداء في الآخرة ، إلا لأنهم كانوا من غير المتقين ، والمتقون ، معلوم أنهم يتحابون في الله ، وأن المؤمن الصالح التقى لا يتخذ صديقاً من الناس إلا إذا كان مؤمناً بالله وبدين الله عاملاً صالحاً تقياً مثله ، ويفهم من الآية كذلك ، أنه من غير المقبول لمؤمن تقى أن يتخذ صديقاً فاسقاً أو فاسداً أو ملحداً ، أو جاحداً بالله وبتعاليمه ، أو أنه لا يقيم صلاة ولا يوتي زكاة ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر . ومن دعاة المنكر كما هو معلوم ، أناس يقيمون فيما بينهم – رجالاً ونساءً – صداقات حميمة يوجّه فيها الطموح إلى كل شيء إلا إلى ذكر الله وإلى درجة عند الله ، تفهم ضلالات الدنيا وحيرتها والخلود في عذاب الآخرة .

وقد تبلغ درجة الحميمية بين أصدقاء العلمنة أو التحلل من الدين ، إلى درجة التعبد ولاءً للصديق أو الصديقة أو لمجموعة الأصدقاء ، وقد وصف الله تبارك وتعالى مثل هذه الخلة أو الصداقة أو العلاقات بأنها حالة وثنية ، حُكْمُ عناصرها عنده حُكْمُ عبدة الأوثان ، بقوله سبحانه :

{ **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ** . سورة العنكبوت آية ٢٥ } .

والمعنى أن المودة أو المحبة التي كنتم تكونونها لبعضكم البعض من دون أن يكون فيها نيّة التقرب إلى الله ، أو من دون أن يكون من دوافعها الحب في الله ، وموالاتة المؤمنين بعضهم لبعض عملاً بأمر الله ، هي عند الله حالة وثنية . أنواع المودة التي بينكم دون أن يكون الرابط فيها هو دين الله ، هي أوثان تعبد في الدنيا باسم الصداقة ، التي ليس فيها شيء لله ولا لدينه ، ولا لعباده وأنصاره الورعين الصالحين . قال تبارك وتعالى :

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** . سورة المائدة الآية ٥٤ } .

فصفات الأخلاء أو الأصدقاء الذين يظنون كذلك أخلاء وأصدقاء يوم الفصل يوم القيامة ، هي هذه : يحبهم الله ويحبونه أدلة على المؤمنين متحابين بينهم ، متواضعين لهم ، متعاونين معهم على البر والتقوى ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله حق الجهادين : الأكبر الذي هو جهاد النفس ، والأصغر الذي هو جهاد أعداء الله . ولا يخافون لومة لائم ، ولا يخشون أحداً إلا الله سبحانه . أما إذا كانوا أصدقاء في الدنيا ليست فيهم هذه الصفات ، كانت صداقتهم وثنية ، ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواهم النار وما لهم من ناصرين ، كما جاء في الآية الكريمة .

إن أكثر الناس يميلون في صداقاتهم إلى المظاهر الدنيوية ، المتمثلة عادة بالجاه أو المال أو أي نوع من أنواع النجاح السياسي أو الإجتماعي أو حتى العلمي ، المبني على غير الإيمان بالله سبحانه وبتعاليمه ، ولا سيما حملة الألقاب في جميع النشاطات الإجتماعية : سياسية أو عسكرية أو علمية أو مالية ، وباختصار ما يخيّل إلى أهل النظر السطحي ، أنهم مراكز القوى التي لا تقوم الحياة ولا تستقيم إلا بوجودهم .

إلَّا أَن َ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ أَوْصَىٰ مُحَمَّدًا (ص) بِغَيْرِ هَذَا النَّمَطِ مِنَ النَّاسِ ، أَوْصَاهُ بِالَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . وَأَوْصَاهُ بِعَدَمِ الْإِهْتِمَامِ بِالْمُسْرِفِينَ ، وَبِعَدَمِ الْإِنْصِياعِ لِمَطْلَبِهِمْ وَأَرَائِهِمْ . قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . سورة الكهف الآية ٢٨ . }

ففي قوله تعالى : { .. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا .. } أولاً أمر بعدم تجاوزهم إلى غيرهم ، ثانياً ، إشارة إلى أن هذا الغير يمثل زينة الحياة الدنيا ، إما بجاهه أو ماله أو مركزه السياسي أو العلمي المبني على غير دين الله ، وبالتالي يمثل حالة عدائية فيها الكثير من التكبر والتجبر والاستخفاف بفقراء المؤمنين الذين ليس لهم بريق مال أو بريق جاه أو أي بريق دنيوي آخر .

وأما قوله تبارك وتعالى في ختام الآية الكريمة : { .. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . } هم الأقسام الذين لا يذكرون الله في مجالسهم ولا يتدبرون قرآنه الكريم ولا يتداولون بآياته ولا يهتمون بأمر دينه ، ولا بشؤون المؤمنين من عباده ، وتراهم واقعين دائماً تحت وطأة ما لن يغفره الله لهم أبداً ، تحت وطأة الشرك الظاهر أو الشرك الخفي أو كلاهما معاً .

أما قوله { .. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. } فإن الله سبحانه لا يغفل قلب أحد عن ذكره بدون سبب يستوجب هذا الإغفال . ويوضح هذا الأمر قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا . سورة الكهف الآية ٥٧ . }

والمعادلة واضحة تماماً ، وهي أنهم ذكروا بآيات ربهم إما قراءة وإما سماعاً تدعوهم للنجاة من الجحيم ، فأعرضوا عنها ، أي لم يكثرثوا بها ونسوا ما قدمت أيديهم من ذنوب هم بأمس الحاجة لأن يغفرها الله لهم ، ومع ذلك أمعنوا في غيِّهم وضلالاتهم ، عتواً وجحوداً ، وعمى وصمماً ، فإله سبحانه أمضى لهم ما حزموا هم أمرهم عليه ، فحرمهم من بركة القرآن وكرامة القرآن وعظمة القرآن ، بأن جعل على قلوبهم أكنة تمنع عنها نور الله وهداية الله ورحمة الله . وسدَّ آذانهم عن سماعه ، حتى إذا دعاهم أحد إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً .

فأصبح واضحاً في ضوء هذه الآية الكريمة ، معنى قوله تعالى : { .. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . } أما عبارة : { .. وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . } أي كان من المسرفين المتجاوزين لحدود الله جلت عظمته .

طبعاً هذه الآية { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. } هي بموجب علوم القرآن ملزمة لكل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة وإلى قيام الساعة ، وقد ضرب الله للناس مثلاً عن مصداقيتها ، أنها عهد محمَّد (ص) نزلت في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وحباب وعبد الله بن مسعود وبلال الحبشي وغيرهم من فقراء أصحاب النبي (ص) ، وكان بعضهم خدماً وبعضهم رعاة غنم عند أثرياء قريش ووجهائها . وذلك أن الأقرع بن حابس وعيينة بن الحصين وغيرهما من المؤلفين لقلوبهم ، جاؤوا إلى رسول الله (ص) فقالوا : يا رسول الله إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وروائح صنانهم ، وكانت عليهم جبات الصوف ، جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك ، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء ، فلما نزلت الآية قام النبي (ص) يلتمسهم فأصابهم في آخر المسجد يذكرهم الله عز وجل ، فقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات (\*) .

في الحقيقة ، إن طبائع البشر ، ما لم تكن مهذبة بالأخلاق الدينية والتعاليم الإلهية ، فإنه يغلب عليها الميل عن الحق وعن العدل ، وعن جواهر الأمور إلى مظاهرها وأعراضها ، فَتُفْضَلُ الأغنياء بمالهم ، على الأغنياء بربهم ، وتفضل الثوب أو المظهر الذي يحكي الواجهة أو الثراء أو المكانة الإجتماعية المرموقة ، ولو كان أصحاب هذه الثياب أو المظاهر من الفساق أو المنحرفين أو الجاهلين ، تفضلهم على فقراء المال والأثاث والثياب ، ولو كانوا من أصفى الناس جوهرأ وأكثرهم قرباً من رحمة الله ورضاه ورضوانه .

هذه الظاهرة تتكرر في تواريخ البشر ، مهما توسعت الثقافات وتقدمت الحضارات ، ما دامت لا تحتكم إلى التعاليم الإلهية . وما حصل في عهد محمَّد (ص) سيد الرسل وخاتم النبيين . حصل ما يشبهه تماماً قبل بضعة آلاف من السنين على عهد نبي الله نوح عليه السلام . وقد حكى الله قصته في القرآن الكريم ، محيطاً بكل جوانب دعوته إلى الله تبارك وتعالى ورسالاته التي حمَّله إلى الناس على مستوى الأرض آنذاك .

وحيث أنه وكالعادة مع الرسل والأنبياء ، استجاب لنوح الفقراء والمستضعفون والمسحوقون من العبيد والرعاة والخدم ، فقد أبرز الله كذلك ، موقف الناس من هؤلاء ، وهذه الظاهرة هي من الجوانب المهمة في كل دعوة إلى الله ، فقال سبحانه

(\*) أنظر مجمع البيان للطبرسي المجلد الرابع ج ١٥ في تفسير الآية الكريمة .

وتبارك وتعالى في كلام عن نبيه نوح عليه السلام ، وموقف قومه منه ومن أتباعه :

{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . سورة هود الآية ٢٧ } .

جاء في لسان العرب لابن منظور : الرذل والرذيل والأرذل : الدون من الناس ، وقيل الدون في منظره وحالاته ، وتجمع على أراذل ورذلاء ورذول ورذال وأرذلون .

فإذن تلك هي طبائع البشر إذا لم تتخلق بدين الله وإذا لم تتهذب بتعاليمه . ويبدو بوضوح أن الله سبحانه في تربيته للمؤمنين ، هذه التربية الفذة التي رفعتهم وما زالت ترفعهم من مستوى البهيمية والحيرة وظلام الأنفس والكفر المؤدي إلى الجحيم ، إلى مستوى الإنسانية الحقيقية التي أَرادها الله نورانية عاقلة مؤمنة برب هذا الكون العظيم وبوعده ووعيده ، وعدله ورحمته . هذه التربية الفذة ، من أبرز عناصرها ومرآحتها ، أنه أمر فيها سبحانه بالانحياز الكلي إلى المؤمنين الصديقين من أهل طاعته ، ومعاداة الكفار الراضين لدينه ورسالاته من أهل الوثنية أو العناد أو الإلحاد . وواضح أنه سبحانه ما تشدد معهم هذا التشدد إلا إغراءً برحمته ، وما جعل ذلك إلا وسيلة من وسائل الضغط التربوي المرشد والموجه إلى ما فيه النجاة من الضلالات . قال سبحانه مخاطباً المؤمنين :

{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ .. . سورة الممتحنة الآية ٤ } .

هكذا بهذا القول الفصل والموقف الفصل ، وقف إبراهيم والذين معه من قومهم يَكُونُ لهم العداوة والبغضاء ، ما داموا يشركون مع الله غيره ، سواء كان هذا الغير أوثاناً مجسمة ، أو أوثاناً معنوية ، كما رأينا في الآية { .. إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ .. } . أو أنهم يدعون الله ويدعون غير الله من خلقه ولو كانوا من الصالحين ، أو أنهم يسترزقون الله ويسترزقون غيره ، من الأنبياء أو الأولياء الماضين الذين أقاموا لهم أنصَاباً وتمائيل . لقد عرف إبراهيم من ربه ، أن كل هذا من الشرك العظيم الذي هو الظلم العظيم ، لذلك اشتراط ومن معه على قومهم ، أن لا يوادوهم ولا يوادعوهم إلا إذا آمنوا بالله وحده لا شريك له ، سواء كان الشريك معنوياً ، كالمودة بين الأصدقاء الدنيويين ، أو مادياً كالبشر المميزين أو الحجر أو غير ذلك من أنواع الشرك الظاهر والشرك الخفي .

هذه الأسوة ، موقف إبراهيم ومن معه من قومهم ، والتي أمر الله المؤمنين أن يتأسوا بها ، يعني أن يقفوا من أقوامهم مثل موقف إبراهيم وصحبه ، هي أسوة في الحقيقة ذات حدين : حد فيه تنبيه عقلي وضغط أدبي ومعنوي على غير المؤمنين ، ليعودوا عن غيهم واستكبارهم ويفوزوا بالنجاة من الضلالات ومن عذاب الله . وحدٌ فيه تمحيص للمؤمنين : هل يطيعون الله ربهم وهل يثبتون على أمره ولا يخافون لومة لائم ، فإن فعلوا كانوا من الناجحين في هذا الإمتحان وكانوا من الصديقين . وكانوا من مصاديق قوله عز وجل :

{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . سورة المجادلة الآية ٢٢ } .

ويبدو أن هذا الامتحان ، لا بد أن يشكل مرحلة من حياة كل مؤمن ، حتى ينجح فيه فيستكمل إيمانه . فإذا نجح كتب الله في قلبه الإيمان وأيده بروح منه ، وهي درجة عالية من درجات الوصول إلى الحق .

ولعل بعض المؤمنين ، بينما هو مستجيب لأمر الله بكل أبعاده وجوانبه ، مطيعاً مخلصاً ، صادقاً صديقاً ، قد يستشعر في نفسه حينياً لبعض من يقاطعهم بمودته أو بمخالطته لهم ، من مثل أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو قريبٍ أو حتى عامة القوم ، ما دام هؤلاء جميعاً لا يؤذونه ولا يقاثلونه في الدين . هنا يظهر إعجاز القرآن ورحابة هذا الدين العظيم وكماله . فإن الله سبحانه وتعالى أدرج آيات في سياق آية الأسوة هذه ، فيها متنفسات لأهل طاعته والحريصين على تنفيذ أوامره ، وفيها إجابات على جميع ردود الفعل النفسية عند المؤمنين وتساولاتهم في مجالات سلوكهم وتحركاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وحتى عند غير المؤمنين المقابلين لهم في الطرف الآخر . قال تبارك وتعالى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . سورة الممتحنة الآية ٦ } . هذه الآية محطة من الإعلام الإلهي بين آية التشدد التربوي في المقاطعة لغير المؤمنين الموحدتين وبين آيات التنفيس والتراحم ، مفادها المهم جداً والمؤثر جداً عند العقلاء وأصحاب النظر ، أن الله عز وجل ، إنما يريد بهذه التعاليم الضبط والربط في قضايا التعامل والسلوك الفكري والاجتماعي ، مصلحة الإنسان ورحمته وخلاصه ، وأنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين . إذا امتنع الناس عن حمده وشكره ، فإنه يحمده بذاته ويحمده خلقه في عوالمه التي لا تنتهي ولا تحدد ولا يدركها عقل بشر ، وهذا معنى قوله تعالى : { .. فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } .

ثم تأتي الآيات التي فيها الرجاء بانتها المقاطعة ، لدخول الأقارب والقوم ، بعضاً أو كلاً في دين الله وخاصة في توحيد الله ، وفيها في نفس الوقت أصول التعامل أو شروط التعامل الاجتماعي مع هؤلاء وهؤلاء . يقول تبارك وتعالى :

{ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَرِهْتُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . سورة الممتحنة الآيات ( ٧ - ٩ ) } .

فقوله تعالى : { عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَرِهْتُمْ مَوَدَّةً .. } أي بينكم وبين الكفار وأهل الشرك عامة ، وذلك بأن يدخلوا هم في الإيمان وفي تفهم المؤمنين ، فتتقلب العداوة بزوال أسبابها إلى مودة ، كما فيها تطيب لنفوس المؤمنين بعد أن جاهدوا أنفسهم ولزموا حدود الله ، إنتصاراً لأمر الله ، أما قوله تعالى : { .. وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } . ففيها غاية الطمأنينة إلى قوة الله وقدرة الله على تغيير الأمور من أسوأ حال إلى أحسن حال ، غفور للتوابين ، رحيم بهم كما بعامة المؤمنين .

أما قوله تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ .. } سواء آمن هؤلاء أم لم يؤمنوا ، المهم أنهم لم يواجهوكم بقتال ولا بعداوة ، فلا بأس بالتعامل معهم بالبر الذي هو الخير والإقسط الذي هو العدل الذي يحبه الله ويحب أهله ، وذلك قوله تعالى : { ...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } .

يبقى قوله تبارك وتعالى : { إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ .. } التولي هنا ، الرضى بحكمهم والرضى بصادقتهم والإطمئنان إليهم ، فهؤلاء يبقون أعداءً حتى يعتذروا هم إليكم ، ويقروا بما اقترفوه بحقكم من ظلم وأذى وعدوان ، ويظهروا ندامتهم على ذلك ، ومع الندامة الرضى والمودة لكم ، فإن لم يفعلوا يبقون أعداءً حاقدين يجب الحذر منهم والبعد عنهم . { .. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . } والظالمون عليهم غضب الله ونقمة في الدنيا وفي الآخرة .

يبقى أن نلفت إلى أن البعض قد يظن أن هذا التشريع إنما هو مختص بعهد النبي محمد ﷺ (ص) وبقومه وأصحابه ، وإنما كان لتنظيم وضعهم ومجتمعهم فقط . فهذا الظن فيه تضيق شديد على عالمية القرآن وعالمية التشريع . والحقيقة أنه لازم ملزم إلى قيام الساعة ، ونظرة إلى التاريخ بمراحله ، وإلى الحاضر على مستوى العالم ومستوى مجتمعاتنا الراهنة ، نجد أن ظروف الدعوة إلى الله وإلى دينه العظيم وكتابه المجيد ، وإلى توحيده ونفي الشرك عنه ونفي البدع عن أصالة هذا الدين ، تتكرر ، ويتكرر معها عداء الأعداء عالمياً ومحلياً ، وأحقادهم ومؤامراتهم ، وشن حروبهم على المسلمين والمؤمنين من كل حدب وصوب . وهم يجدون من يتعامل معهم من العملاء من أهل الحقارة والكفر والخساسة . لذلك ليس لنا ملجأ في حيرتنا في التعامل مع جميع هذه الأصناف ، إلا الله عز وجل وكتابه المجيد وتعاليمه المنجية من الخطأ والزلل ، والمثبتة على طاعته ورضاه ، والضامنة للصالح والفلاح ، في الدنيا والآخرة .

## الفصل الخامس

### ماء السّماء

{ .. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. سورة هود ٧ }

{ .. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ  
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. سورة فاطر ٢٧ }

## من أصول المعرفة : اليقين بإدارة الله للكون وما فيه

من المؤسف جداً ، أن مناهج التعليم عالمياً ، تقدم إلى الطلبة في شتى مراحل الدراسة والإختصاصات ، المواد العلمية ، وقوانين المادة ، وشتى الحقائق الكونية المدركة ، دون نسبتها إلى خالقها وموجدتها ، والذي يدير بها ويدبّر أمر البشر والكون جملة وتفصيلاً . وعدم ذكر الله ، وعدم نسبة فضله وتحقيق الحقائق والجمال الفوق العبقري إليه ، كفر أيما كفر ، وجود ونكران حقٍ واتباع باطل ونكران جميل . وهو يعاقب على ذلك . قال تعالى :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . سورة طه الآيات ( ١٢٣ - ١٢٦ ) . }

فالعيش الضنك ، أي الصعب المعقد ، الذي فيه الأرق والقلق ، والحيرة والضياع في الدنيا ، والعمى المذل المكبل يوم القيامة ، ذلك كله ، هو نتيجة للإعراض عن ذكر الله ، إقراراً بنعمته وإخلاصاً لوحدانيته .

ومثال من الأمثلة التي لا تكاد تحصى على ذلك . مثل تعليم الدورة المائية على مستوى السماء والأرض ، بين تبخر من البحار والأنهار إلى تحولها إلى غيوم إلى تكاثفها في شتّى رياح باردة عليها ، ثم هطولها أمطاراً . ولا يتوقف التعليم في شتى مراحل الدراسة عند هذا الأفق من المعرفة ، بل يتعداه إلى غطرسة العلم الذي قال وما يزال يقول : والإنسان كذلك يخلق دورة مائية على مستوى السماء والأرض . بلى ، هو بحر ماءً بنسبةٍ ما تحت وطأة الحرارة ، وجعل منه غيماً بنسبة ما وبرده بطريقة ما فنزل مطراً . وهذه لعبة كنا نلعبها في المراحل الابتدائية وفي البيوت ، إلا أن لعبة العلماء المتعطرسين ووراءهم جماهير الفتوحات العلمية المنقطعة في نظرهم عن الله ، هذه اللعبة أكبر قليلاً .

نسوا أن النواميس العلمية التي استعملوها ، إنما كانت جاهزة أظهرها لهم مخترعها الذي هو الله سبحانه ، والذي هو مخترع جميع قوانين وقواعد وأسس الإختراعات والفتوحات العلمية الذي توصل إليها ، بالتقليد والتطبيق ، العلم المدعي أنه الخالق .

ولنحاول الآن ، أن نحكي حكاية ماء السماء الذي خلقه الله تبارك وتعالى ، والذي لن يستطيع خلق مثله بآثاره الإنس والجن وجميع خلق السماوات والأرض ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

الماء الذي قال الله سبحانه إنه أنزله من السماء ، أخرج به من الثمرات ما لا يكاد يعد ولا يحصى ، رزقاً للعباد ، على مستوى الأرض وأجيال البشر وغير البشر ، واستعراضاً للقارات الخمس وسكانها اليوم ، نجد المليارات تستمتع وتغتذي بأنواع هذه الثمار ، لولا بعض التصحر في مناطق كانت خضراء خيرة نضرة ، وانقلاب الخصب إلى الجذب والري إلى الأرض الظمأى . هذا إلى أن الله في ذلك حسابات أخر .

لنتصور أن المطر انحبس عن كوكبنا الأرضي هذا ، وأن التصحر زحف على بقاع الدنيا هذه الخضراء ، وجفت الأنهار والينابيع والمياه الجوفية ، فماذا يستطيع العلم الذي ادعى أنه يخلق مطراً أن يفعل . وهو في الحقيقة لم يستطع أن ينفذ أية منطقة في العالم تصحرت أو ضربها الجفاف .

والله سبحانه لم يترك هذا الإنسان الذي خلقه عاقلاً وحمله مسؤولية عقله ، دون أن ينصب له الشواهد ، ويعرفه على الأضداد ، تحت عناوين الحسن والقبح ، والحق والباطل وغير ذلك في مجالي المحسوس والمجرد . وما دام الكلام عن خلق ماء السماء وآثاره البالغة في الأرض والإنسان وعمامة الكون كما سنرى إن شاء الله ، فقد خلق الله الصحاري الكبرى على هذا الكوكب السيار ، وعرضها برمالتها ومناهاتها ، وعطشها وجديها ، واستحالة العيش في بعضها ، لأسباب أبرزها رمال متحركة أو رياح وأعاصير دائمة الهبوب أو غير ذلك . لا ماء مخصب ، إذن لا زرع ولا ضرع ، إذن لا إنسان وبالتالي لا حياة ، فإذن تلك هي الآية الكبرى من آيات الله ، الخلاصة العجيبة على مستوى السماء والأرض : لا حياة بدون ماء السماء .

ومن أين ، وكيف الحياة بدون ماء ؟!

نبات الأرض الذي لا عيش لإنسان ولا لحيوان بدونه ، لا ماء من السماء ، إذن لا نبات : لا غابات ولا حقول ، ولا أنهار ولا ينابيع ولا جداول ، ولا رغيف من أي نوع ، وباختصار شديد : لا يبقى على الأرض ما يؤكل أو ما يشرب . بما فيه الثروة الحيوانية المائية .

فالبهار كذلك ، تمويلها من ماء السماء .

أنهار العالم تصب في البحار ، وفي العالم أنهار ضخمة تسير فيها السفن وتقام على شطآنها الموانئ ، وما أكثرها وما أغزرها ، نذكر منها على سبيل المثال : النيل أطول أنهار العالم والأمازون أضخمها والمسيسيبي والنيجر والراين والدانوب إلى مئات الأنهار في كل قارة من القارات التي تشكل هذا الكوكب .

وهذه الأنهار هي بجملتها وتفصيلها من ماء السماء . تهطل الأمطار وتتكدس الثلوج ، وبين انسراب الأمطار وذوب الثلوج إلى خزائن الينابيع الهائلة عمقاً واتساعاً يتكون المخزون العظيم الذي يمد الأنهار على اختلاف أطوالها وأحجامها . فإذن هو ماء السماء منه الأنهار ومنه البحار .

ومن عجيب صنع الله تبارك وتعالى ، في هذه الدورة المائية بين البحار والأنهار ، أن معظم الحيوانات التي يزعمونها بحرية فقط ، قد أثبت البحث العلمي الرائع ، أنها إنما تهاجر من البحار ، في رحلة عجيبة شاقة صاعدة في الأنهار المتحدرة من سفوح الجبال العالية ، متعرضة للأخطار المميتة ، حتى تصل إلى مطمئن الينابيع ، لتنفس هناك وتموت راضية هنيئة في أوطانها الأصلية ، حتى إذا كبرت

الفرخ بملايينها انحدرت في أنهارها إلى البحار والمحيطات ، لتبقى ما يشاء الله لها أن تبقى ، ويُصاد منها ما يُصاد . ثم من شاسع المسافات وعميق اللجج تنفصل الجماعات ، وتعود كل جماعة إلى مصب النهر الذي أتت منه ، لتعيد الكرة التي كررتها أمهاتها ، دون أيما دليل يعرفه الإنسان ، تفرق به الجماعة المائتة بين نهرها وبقية الأنهار المشرورة مصباتها على اتساع المحيطات .

فسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وماء السماء عافية للنفس والبدن ، فرضه الله وضوءاً لمقدمات الصلاة ، ومن أسرارها أن اسم ماء الوضوء ( بضم الواو ) وضوء ( بفتحها ) وكلمة وضوء مشتقة من الضوء ، وبالتالي اشتقاق عملية الوضوء كلها ، ظاهرها وباطنها . أما الظاهر فمعلوم ، وهو تطهير وإنعاش للبدن ، { .. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. } . أما الباطن ، فيبدأ بعقد نيّة التقرب إلى الله تبارك وتعالى ، فيكون فيه غسل الوجه عن التوجه عن المخلوقين ، من أجل حصر التوجه إلى الله وحده ، عقلاً وقلباً وسمعاً وبصراً ، وبكل حاسة . ويكون فيه غسل اليدين عن مدهما لغير ما يرضي الله ، وعن رفعهما للدعاء والقنوت رجاء غير الله . فالماء مع عقد نيّة التوجه إلى الله هو حالة ضوئية نسبية في الحياة الدنيا ، وهو حالة نورانية حقيقية يوم القيامة ، ولنعي ذلك بوضوح ، لنأمل هذه الآيات الكريمت :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغُفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . سورة التحريم آية ٨ } .

والحكاية المطمعة المفزعة ، التي يحكيها لنا الله بالأسلوب القرآني الحكيم ، قوله تعالى :

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . سورة الحديد الآيات ( ١٢ - ١٥ ) } .

ولذلك حبب الله لرسوله (ص) وللمؤمنين إسباغ الوضوء ، وهو بعد الوضوء ، غسل الوجه مرتين بماءٍ غزير وغسل اليدين إلى المرفقين .

في معركة بدر الكبرى ، جعل الله ماء السماء عنصراً من عناصر النصر المبين . فذكر سبحانه في القرآن الكريم أنه أنزل على جنده المسلمين من السماء ماءً ليظهرهم به ويذهب عنهم رجز الشيطان ويربط به على قلوبهم ويثبت به الأقدام .

وفي أهم آية تتعلق بالماء ودرجاته ، ونواميسه وقوانينه وكيميائه ، تلك التي يذكر فيها سبحانه أنه عندما خلق السماوات والأرض كان عرشه على الماء . وقد قيل في معنى الآية عدة أقوال ، إلا أننا واعتماداً على قوله تعالى : { .. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. } نعتقد أنه سبحانه إنما أراد بقوله : { .. وَكَانَ

عَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. } أي كان بناؤه للسموات والأرض على أساس أسرارهِ في الماء وفي كيميائته وفي تحولاته بين تبخر وتكثف ، وما ينتج عن ذلك من طاقة ، وما ينتج عن الطاقة من مادة . قال تبارك وتعالى :

{ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفِظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . سورة فصلت الآيات ( ٩ - ١٢ ) . }

ولنفهم أن كلمة دخان هنا ، هي حالة مائية متحولة من نشاط ومعادلات فيزيائية وكيميائية . نقرأ معاً نصاً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، طبعاً هو استفاده من النبي محمد (ص) . والنص هو بعض من كلام حول خلق العالم ، قال (ع) ، في سياق أدلة ساطعة عن وحدانية الله تبارك وتعالى :

" أنشأ الخلق إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً ، بلا رويّةٍ أجالها (١) ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة (٢) نفسٍ اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها ، ولأم (٣) بين مختلفاتها ، وغرّز (٤) غرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالماً بها قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وانتهائها . عارفاً بقرانها وأحنائها (٥) . ثم أنشأ - سبحانه - فتق الأجواء ، وشقّ الأرجاء ، وسكانك (٦) الهواء ، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره (٧) ، متراكماً زخاره (٨) . "

(١) الروية : الفكر وأجالها : أدارها ورددتها .

(٢) همامة : مصطلح عند متكلمي المجوس .

(٣) لأم : قرن .

(٤) غرّز : أودعها طبائعها .

(٥) قرانن : جمع قرونة وهي النفس . والأحناء : الجوانب .

(٦) سكانك : جمع سكاكه بالضم وهي الهواء الملاقي عنان السماء .

(٧) تيّاره : موجه .

(٨) زخار : الشديد الزخر .

حمله على متن الريح العاصفة ، والززع (١) القاصفة ، فأمرها برده ، وسلطها على شده ، وقرنها إلى حده . الهواء من تحتها فتيق (٢) ، والماء من فوقها دفيق (٣) . ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبتها (٤) ، وأدام مرّبها (٥) ، وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها بتصفيق (٦) الماء الزخار ، وإثارة موج البحار ، فمخضته (٧) مخض السيّاء ، وعصفت به عصفاً بالفضاء ، تردُّ أوله إلى آخره ، وساجيه (٨) إلى مائره (٩) ، حتى عبّ عبابه ، ورمى بالزبد ركامه (١٠) ، فرفعه في هواء منفثق ، وجوٍ منفثق (١١) . فسوى منه سبع سماوات ، جعل سفلاًهنّ موجاً مكفوفاً (١٢) ، وعلياًهنّ سقفاً محفوظاً ، وسمكاً مرفوعاً ، بغير عمدٍ يدعمها ، ولا دسار (١٣) ينظّمها . ثم زينها بزينة الكواكب ، وضياء الثواقب (١٤) ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً (١٥) ، وقمرأ منيراً : في فلك دائر ، وسقفٍ سائر ، ورقيم (١٦) مائر . "

- (1) الزرعع : الريح التي تزعزع كل ثابت .  
 (2) فتيق : مفتوق .  
 (3) دفيق : مدفوق .  
 (4) اعتقم مهيبها : جعل هبوبها عقيماً والريح العقيم التي لا تلقح شجراً ولا سحاباً .  
 (5) مريها : مصدر ميمي من أرب بالمكان لازق فالمرب الملازقة .  
 (6) تصفيق الماء : تحريكه وتقليبه .  
 (7) مخضته : حركته بشدة كما يخض السقاء .  
 (8) الساجي : الساكن .  
 (9) المانر : الذي يذهب ويجيء .  
 (10) ركامه : ما تراكم منه بعضه على بعض .  
 (11) منفهق : مفتوح واسع .  
 (12) مكفوف : ممنوع من السيلان .  
 (13) الدسار : واحد الدسر وهي المسامير .  
 (14) الثواقب : المنيرة المشرقة .  
 (15) مستطيرا : منتشر الضياء .  
 (16) الرقيم : إسم من أسماء الفلك . سمي به لأنه مرقوم بالكواكب .

لعل ابن ابي الحديد أفضل من فسّر كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في « نهج البلاغة » . ومع ذلك فإنه فيما يتعلق ببعض القضايا العلمية ولا سيما علم الفلك ، فإن تفسيره كان قاصراً ، نسبة لقصور علوم عصره (١) في هذا العلم ، ولو كان ذهبياً في بقية العلوم . إذ أن علم الفلك لم يصبح عملياً وتحت المشاهدة البصرية إلا في القرن السادس عشر الميلادي ، حيث اكتشف الإيطالي غليليو أول تلسكوب رصد به بعضاً من حركات مجموعتنا الكوكبية ، وظل هذا العلم يكبر ويتطور ، حتى سعدوا به إلى القمر وكشفوا اللثام عن الكثير من أسرار ما تحت السماء الدنيا . لذلك — في شرح كلام أمير المؤمنين عن خلق العالم — سأواكب العلامة الفدّ ابن ابي الحديد في شروحه اللغوية ، مسقطاً الشروح الظنية التي كانت سائدة في عصره عن مفهوم السماوات والشمس والقمر والكواكب وبقية العناصر . وبعد ذلك إن شاء الله ، أقيم مقارنة بين المفهوم الإسلامي لخلق العالم ، والذي تضبطه النصوص الإلهية ، وبين الإعتقاد الظني المتداول بين كثير من علماء القرن العشرين ، والذي اتفقوا على تسميته بالإنفجار الكبير ( BIG BANG ) .

أما قوله عليه السلام : " أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً " .

فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء كقوله سبحانه : { .. لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } . سورة فاطر الآية ٣٥ { .. لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. } . سورة المائدة الآية ٤٨ .

وقوله : " بلا روية أجالها " ، فالروية الفكرة ، وأجالها رددتها ، ومن رواه أحالها بالحاء ، أراد صرفها . وقوله : " ولا تجربة استفادها " ، أي لم يكن قد خلق من قبل أجساماً حصلت له التجربة التي أعانته على خلق هذه الأجسام .

وقوله : " ولا حركة أحدثها " ، فيه رد على الكرامية الذين يقولون : إنه إذا أراد أن يخلق شيئاً مباحناً عنه أحدث في ذاته حادثاً ، يسمى الإحداث ، فوقع ذلك الشيء المباحين عن ذلك المعنى المتجدد المسمى إحداثاً .

وقوله : " ولا همامة نفس اضطرب فيها " ، فيه ردٌ على المجوس والثنوية ، القائلين بالهمامة ، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحة

---

(١) : عاش في العصر العباسي الثاني وتوفي حوالي ٦٥٦ هجرية .  
ما يقال : إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام .

وأما قوله : " أحال الأشياء لأوقاتها " ، فمن رواها : " أحلَّ الأشياء لأوقاتها " ، فمعناه جعل محل كل شيء ووقته كمحل الدين . ومن رواها : " أحال " ، فهو من قولك : حال في متن فرسه ، أي وثب وأحاله غيره ، أي أوثبه على متن الفرس ، عداه بالهمزة ، وكأنه لما أقرَّ الأشياء في أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيره على فرسه .

وقوله : " ولأم بين مختلفاتها " ، أي جعل المختلفات ملتزمات(١) كما قرن النفس الروحانية (٢) بالجسد الترابي ، جلت عظمتها .

وقوله : " غرَّز غرائزها " ، المروي بالتشديد ، والغريزة : الطبيعة ، وجمعها غرائز ، وقوله : " غرَّزها " ، أي جعلها غرائز ، كما قيل : سبحان من ضوأ الأضواء ! ويجوز أن يكون من غرزت الإبرة بمعنى غرست ، وقد رأيناها في بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : " والزمها أشباحها " ، الضمير المنصوب في " ألزمها " عائد إلى الغرائز ، أي الزم الغرائز أشباحها ، أي أشخاصها ، جمع شَبَح ، وهذا حق لأنَّ كلاً مطبوع على غريزة لازمة(٣) ، فالشجاع لا يكون جبناً ، والبخيل لا يكون جواداً ، وكذلك كل الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : " عالماً بها قبل ابتدائها " ، إشارة إلى أنه عالم بالأشياء فيما لم يزل . وقوله : " محيطاً بحدودها وانتهائها " ، أي بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : " عارفاً بقرائنها وأحنائها " ، القرائن جمع قُرُونَة ، وهي النفس ، والأحناء : الجوانب ، جمع حنو ، يقول : إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحها ، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلقة بها والصادرة عنها .

---

(١) ب " ملتزمة " وما أثبتته عن أ .  
(٢) لنا اعتراض على المثل . انظر كتابنا " العقل الإسلامي " .

(3) : حصر الكلام عن الغرائز بالإنسان ، والمقصود خلاف ذلك ، فالإنسان مكلف بموجب العقل وأوجب عليه سبحانه التربية ، أما الغرائز فلما دون الإنسان من مخلوقات .  
ورجعاً إلى كلمة : " هَمَامَة " ، في قوله عليه السلام : " ولا همامة نفس اضطرب فيها " ، فقد حكى زُرْقَان (1) في كتاب : " المقالات " ، وأبو عيسى الوراق والحسن بن موسى ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلخي في كتابه في : " المقالات " ، أيضاً عن الثنوية : أن النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظلمة والإغارة عليها ، فخرجت من ذاته قطعة - وهي الهَمَامَة المضطربة في نفسه - فخالطت الظلمة غازية لها ، فاقتطعتا الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه ، وخرجت هَمَامَة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت هَمَامَة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهاماتان تتقاربان وتتدانيان وهما ممتزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ، حتى انبنى منهما هذا العالم المحسوس . ولهم في الهَمَامَة كلام مشهور ، وهي لفظة اصطلاحاً عليها ، واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهَمَامَة بمعنى الهمة - كما زعم القطب الراوندي - والذي عرفناه الهَمَّة والهَمَّة بالكسر والفتح ، وتقول لا هَمَامَ لي بهذا الأمر ، مبني على الكسر كقطام ، ولكنها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

## الكون حيٌّ عاقل :

=====

بما أن كل شيء خلقه سبحانه هو حي بنسبة أو بأخرى ، بدليل النص القرآني وثبوت النظريات العلمية ، فنستطيع أن نقول في الآية الكريمة : { .. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. } سورة الأنبياء الآية ٣٠ { أنه جعل كل شيء في السماوات والأرض من الماء ، حتى النور والنار .

أما النص القرآني الدال على حياة الأشياء ، وحتى على وعيها وإدراكها ، وإن اختلفت بذلك النسب والمقادير فقوله تعالى :

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . سورة الإسراء الآية 44 } .

(1) هو زُرْقَان المتكلم تلميذ إبراهيم بن سيار النظام ، وقد حكى زُرْقَان عن النظام أقوالاً في الفرق بين الفرق 50 - 51 ، وذكره المسعودي في التنبيه والإشراف 342 .

ففي قوله : { تُسَبِّحُ لَهُ .. } التسبيح نوع من ذكر الله يحدث عليه الإعجاب والإعظام والإكبار والشوق إلى الله سبحانه ، وفي جملة معانيه تنزيهه وتمجيده . وهذه المعاني يتعاضم معها الحب لله ، كلما تعاضم الإدراك ، وبنسبة القصد والتركيز ومراتب المخلوقين في سلم الوجود .

أما قوله تعالى : { .. السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .. } فقد أجمل فيه سبحانه العناصر الثلاثة التي تتكامل فيما بينها مؤلفة هذا الكون ، والتي إذا نقص منها أحد عناصرها فقد الكون حقَّ قيمته ، فلا تقوم أرض بدون سماء تتفاعل معها حسب ما هندس الله عز وجل وقدر وقضى ، وبنفس المقتضى لا تقوم سماء بدون أرض . ثم لا يكون لهما قيمة بدون سكان يروحون ويجيئون عليهما وبينهما . هذا في

وجدان العقل العادي . أجمل سبحانه القول ثم فصلّ متابعاً في آيته الكريمة : { .. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. } المعنى ، ما من شيء في الكون إلا يسبح بحمد الله ، أي معجّباً منزهاً ممجداً ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، وهذا طبيعي جداً ، فالناس وهم من صنف واحد هو صنف البشر ، لا يفقهون لغات بعضهم البعض ، فكيف وقد اختلفت الأصناف ، أصناف الخلق ، واختلفت معها اللغات بين سماوية وأرضية وحتى أبجدية . وبين ما هو مسموع وما هو غير مسموع ، أو حسب التعبير العلمي : ما هو في مستوى الصوت أو فوق مستواه أو تحت مستواه .

والخلاصة ، بما أن كل شيء يسبح بحمد الله ، فكل شيء ، وبالضرورة ، يعي ويعقل ، وما دام كل شيء يعي ويعقل ، فكل شيء هو حيٌّ ، وما دام الكون مؤلف من الأشياء ، وهو في ذاته شيء مجمل ، فإن الكون كله بجملته وتفصيله هو حيٌّ وعاقل .

ولا بدّ هنا من القياس المنطقي ، فالمعلوم أن الإنسان هو الأرقى في المخلوقات في ظاهر هذا الكون . يأتي دونه في الدرجة : عامة الحيوانات ، التي نعلم أنها تعي وتدرک ولكن بنسبة أقل على اختلاف أصنافها . يأتي بعدها النبات ولا خلاف في ظهور الحياة فيه ، وغموض الوعي والإدراك . ولكن التأمل من جهة والتجارب من جهة ثانية ، يثبتان وعياً ولو غريزياً للنبات ، يعلم ذلك علماء النبات وكذلك الأذكىاء من المشتغلين في أنواع الزراعة .

وما دام هذا التدرج من حيث نسب الحياة والوعي ، قائم بوضوح ، بين الإنسان والحيوان والنبات ، فلماذا لا نلحق به الجمادات ، أو ما تعارف الناس على تسميته بالجمادات ، اعتماداً على الظواهر من جهة ، وعلى محدودية البصر الإنساني من جهة ثانية ؟

هنا جاء دور العلم الفذّ ، الذي قيّضه الله سبحانه للإنسان { عِلْمَ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ } . سورة العلق الآية ٥ } . جاء دور العلم ليكشف ويثبت أن الجمادات ليست جمادات .

فقد تبين منذ النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد انفلاق الذرّة ، أنّ كل شيء ظاهر في الكون ، كل مجسم ، من سائلٍ أو غازي ، أو جامد أو متحرك ، هو ذريٌّ أو نووي نسبة إلى نواة الذرة .

وداخل الذرّة — على صغرها المتناهي — عالم مذهش مذهل ، نموذج مصغّر عن مجموعة شمسية مثل مجموعتنا هذه التي في الطرف الجنوبي من مجرة درب التبانة . شمسها النواة التي فيها البروتون الذي حير العلم والعلماء ، حيث أنه لا يموت أبداً ، بينما كل شيء في الذرة يموت دونه .

ويدور حول هذه الشمس - النواة - ما أسموه بالالكترونات كما تدور حول شمسنا الكواكب السيارة ، ولكن سرعة الألكترونات هائلة ، ولكنها تزيد وتنقص حسب أوضاع أجسامها تبعاً للحرارة أو البرودة . كل نواة فيها وحولها حركة دائبة ، وكل جسم في الكون من الزهر إلى الصخر ، إلى العطر إلى الحديد ، مروراً بالإنسان ، هو نوويٌّ ، فإنّ هو متحرك بحركة دائبة ، وتبدو ذاتية — أي بدون طاقة مفتعلة — فإنّ هو حيٌّ . وربطاً بالنصوص الإلهية ، وكون كل شيء يسبح بحمد ربه ، فإنّ هو مدرك ، وإنما — كما ذكرنا - حسب درجته التي درّجها الله سبحانه فيها ، في هذا الوجود .

بقي أن نلفت ، إلى أنه لا يجوز لنا أن نقول هذا " شيء " إلا لما وقعت عليه المشيئة ، أي لما شاءه الله تعالى أن يكون وأن ينسب إليه . فلا يجوز أن ينسب إلى الله أي فعلٍ من الإنسان مشين ، أو أية

قذارة من القذارات . وقد خلق الله الإنسان في الأصل نظيفاً نورانياً ، يغتذي ولا يقدر ، كما الجنين في بطن أمه . ولكن كانت المعصية ، ثم على أثرها الإهباط . فكان على الإنسان أن يجهد ليرتقي من جديد ، من المادية وإفرازاتها ، إلى النورانية ونظافتها وطهارتها . والإنسان مندوب لهذا الترقى في الدنيا قبل الآخرة . وهذا ميسر له إذا عرف كيف يحب الله ، وكيف يفنى في فناء الله . فإذا ابتعثه الله في الدنيا من جديد ، علّمه الترقى وأعاناه على الوصول .

## الفصل السادس

{ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . سورة الغاشية - الآية 18 }

## { .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. سورة فاطر الآية ٢٨ }

هذه الآية قالها عالم الكيمياء هبة الله المشرقي لزميله عالم الفلك الإنكليزي ، فأسلم . وكان السبب في ذلك ما يلي :

" جيمس جونز " وهو من أشهر علماء الفلك في القرن العشرين ، خارجاً من جامعة كمبردج حيث يدرّس فيها هو والمشرقي ، وكان الجو ممطراً بغزارة ، فالتقاه زميله هبة الله على باب الجامعة والمطر يتقطر من وجهه وأذنيه ، بينما مظلته تحت إبطه مع كتاب ضخم ، فسأله المشرقي : إلى أين ، قال إلى الكنيسة ، قال ولماذا ولا أعلمك من المصلين ولا المتدينين . قال أصبحت منهم وأنا ذاهب لأسجد لله سجدة طويلة وأقول له ما أعظمك ! ما أعظمك يا رب ! . قال المشرقي والمطر ما زال ينهمر عليهما غزيراً ، وما هذا تحت إبطك قال الإنجيل ، قال وهذه ؟ فالتفت جيمس جونز فوجد أنها مظلته ، لم يفتن لاستعمالها وهو بأمس الحاجة إليها لأنه كان ما زال شاردأً ذهنه في الفلك وتعقيداته وعجيب نظامه وعظمة خالقه ومبرمجه ومدبره وحافظه ، والذي هو الله تعالى لا شريك له ولا مساعد ، ومن يستطيع أن يساعد في حمل ثقل واحد من أثقال هذه الغابات النارية — النورانية — أو أن يلمّ بأسفارها واتجاهاتها وحركاتها ناهيك عن خلقها على عظامها وعجائبها بين حرفين : الكاف والنون . ومن العدم ، فقد أثبت العلم أن المادة ليست أزلية ، لا سيما بعد اكتشاف " القانون الثاني للحرارة الديناميكية " . Second law of Thermo Dynamics ، هذا القانون يبرهن أن الحرارة تنتقل دائماً من ( وجود حراري ) إلى ( عدم حراري ) والعكس مستحيل .

وبناءً على هذا الاكتشاف العلمي الرائع ثبت أن موجودات ما تحت السماء الدنيا من نجوم وكواكب وأجرام سماوية تتناقص كفاءتها مع الزمن ، ولا بدّ من أن تتساوى في وقت ما - إذا شاء الله - حرارة جميع الموجودات ، وعندئذ ، بعد استقرار هذا الوضع من الناحية العلمية ، تنتهي الحياة أو تتوقف على هذه الأرض وتحت هذه السماء . نحن استطردهنا .. وتركنا جيمس جونز بيتسم ، إذ انتبه لشروده عن مظلته حتى تبلل ولم يشعر ، ودعا صديقه ليشرح له في لقاءٍ عصر ذلك اليوم ، سبب إيمانه العميق والفجائي .

ومع تناول الشاي أخذ عالم الفلك يتحدث عن بعض وجوه هذا النظام الإلهي العظيم ، للسماء وكواكبها ونجومها ، وعالم الكيمياء القرآني ، يستمع ويوافق ، حتى وصل إلى درجة لم يعد رأسه يحتمل ، من عجائب تحركات الأجرام السماوية وتعقيداتها وأرقامها وأبعادها . فأشار إلى صديقه أن كفى ، ثم استأذنه بأن يتلو عليه آية من القرآن الكريم . قال :

قال الله تبارك وتعالى :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَمْرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . سورة فاطر الآيات ( 27 - 28 ) . }

فاستعادها جيمس جونز وتمعنَّ فيها ، وتداول مع هبة الله بشأن تاريخها وتفسيرها . إلى أن انتهى إلى القرار بأن هذا القرآن هو يقيناً من لدن الله تبارك وتعالى ، مقرأً بأن محمَّداً (ص) هو رسول الله . فبادره المشرقي بقوله : على هذا الأساس أنت أسلمت يا صديقي . قال : إذا كان الإسلام هو الإقرار بوحداية الله كما في كتابكم والإيمان بالقرآن منزلاً من لدن الله تبارك وتعالى وبمحمَّداً رسولاً من عند الله ، فأنا أسلمت حقاً . فقال له : هل أكتب ما جرى بيننا وأنشره ؟ قال : اكتب وأنشر . وأنا شاكر لله وبذلك فخور .

لماذا { .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. } ولا سيما الذين يتتبعون في الآفاق وفي الأنفس عجائب خلق الله وغرائب آياته ، وبالأخص منهم علماء الفلك ؟ ذلك لقوله تعالى : { لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .. سورة غافر آية 57 } .

## فماذا في السماء ؟

في علم الفلك أن عدد نجوم السماء مثل عدد حبات الرمال الموجودة على سواحل البحار . من هذه النجوم ما هو أكبر من الأرض ، لدرجة أنه يمكن أن يوضع في واحد من النجوم العملاقة ملايين من حجم أرضنا هذه .

ورغم أن العلم بشكل عام وعلم الفلك خاصة لم يستطع أن يتوصل إلى معرفة حدود هذه السماء الدنيا ولا يعرف عن حدودها شيئاً . ولكن لا بأس أن نستأنس بنظرية أينشتين الرياضية ، فقط لنأخذ فكرة وعبرة عن عظمة هذا الكون الرحب الفسيح الذي يعجز الخيال والتصور عن رصده ، فضلاً عن عجز الأرصاد الضخمة والأجهزة المتقدمة .

يقول هذا العالم الفذ : لتتصور طائرة خيالية تسير بسرعة 186 ألف ميل في الثانية . وأن هذه الطائرة تطوف بنا حول هذا الكون الموجود الآن . إن هذه الرحلة ستستغرق (1,.....,.....) سنة . يضاف إلى ذلك ، أن هذا الكون ليس جامداً ، وإنما هو يتسع ويتمدد كل لحظة ، حتى أنه بعد (1, 3,.....,.....) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين . وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية ، أن تكمل دورتها حول هذا الكون أبداً . وإنما ستبقى تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم .

نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة الاف نجم ، عندما تكون السماء صافية ، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (2,.....,.....) أي مليوني نجم ، حين نستعمل تلسكوباً بسيطاً . واليوم ، أصبح لدى الدول المهتمة بمثل هذه العلوم ، تلسكوبات متقدمة ضخمة ، ترصد بلايين النجوم ، ومع ذلك فهي تعترف أنها ما تزال مقصرة عن إدراك ما في هذا الكون ، وعن معرفة حدود هذه السماء الدنيا .

إن أقرب جرم متحرك بالنسبة إلينا ، هو القمر إذ يبعد عنا (240) ألف ميلاً وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته في مدة 29 يوماً ونصف يوم . وكذلك تبعد أرضنا هذه عن شمسنا (93,.....,.....) ميلاً ، وهي تدور حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة . وتستكمل هذه الدورة مرة واحدة في السنة . وكذلك توجد تسعة كواكب ، ضمنها الأرض ، تدور كلها حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب ،

بلوتو ، الذي يدور في دائرة (.....،5،7) ميلاً حول الشمس . وحول هذه الكواكب ، تدور عشرات الأقمار غير قمرنا .

## بعض الحقائق عن شمسنا :

- تبعد عنا شمسنا هذه التي في السماء الدنيا 93 مليون ميل .
- لولا قبضتها الممسكة بالكواكب الدوّارة ، لانطلقت هذه الكواكب في الفضاء الكوني .
- لولا حرارتها وضوؤها لعمّ الأرض الظلام والجليد المقيم ، ولانعدمت الحياة على الأرض .
- قطرها صف من الكرات الأرضية عددها 109 .
- حرارة سطحها 6000 درجة مطلقة مما يجعل المعادن فيها إذا وجدت تنصهر وتتحول إلى غاز .
- حرارتها الداخلية .....،14 مليون درجة مطلقة ( أي على مقياس الدرجات الذي يبدأ من الصفر المطلق وهو - 273 درجة مئوية ، أي نهاية ما تصل إليه برودة الأجسام ) .
- مثل شمسنا في السماء الدنيا مليارات ، وأكبر منها بملايين المرات ولكنها لأبعادها الهائلة ، ترى نجوماً ، أو نقاطاً ضوئية . وأقرب نجم أو شمس إلينا ، هو أبعد من شمسنا 30 ألف مرة .
- عناصرها 80 % هيدروجين ، 18 % هيليوم ، 2 % عناصر أخرى .
- الهيدروجين المدّخر في الشمس يكفي لـ 1500 مليون سنة قبل أن يتحول لهيليوم .
- تستغرق أشعتها لتصل إلينا 5,8 دقائق .
- 1,300,000 مرة أكبر من الأرض ، يعني تستوعب إذا تصورناها مجوفة 1,300,000 كرة أرضية .
- إذا تصورناها في كفة ميزان عملاق ، فعلينا أن نضع في الكفة المقابلة ...333 كرة أرضية حتى تتساوى الكفتان . وهذا ما يسمى بالوزن أو الكتلة .
- كثافتها (1,41) هي قريبة من كثافة الماء التي هي (1)
- جاذبيتها أقوى 28 مرة من الأرض . بحيث أن ما يزن 7 كلف على الأرض ، تزن 200 كلف على الشمس . لذلك، لكي ينفلت الصاروخ من قبضتها ، يلزم أن تكون سرعته 386 ميل في الثانية ، أي أسرع 55 مرة من قوة انفلاته من الأرض .

## وبعض الحقائق عن القمر :

- متوسط بعده عن الأرض ...،24 ميلاً .
- سرعة دورانه في فلكه 287,2 ميلاً في الساعة .
- قطره يساوي 160,2 ميلاً .
- المساحة المرئية منه 59 في المائة .
- أكثر الفوهات اتساعاً 100 ميلاً .
- أعلى الجبال ...،2 قدم أي ...،7 م . عمره نحو ..4،5 مليون سنة .
- درجة الحرارة على الجانب المضاء بالشمس 120 درجة سنتغراد .
- درجة الحرارة على الجانب المظلم ( - 150 ) درجة سنتغراد .

## { وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . سورة الغاشية الآية 18 } :

عندما كان الناس يظنون أن الأرض هي مركز الكون . كان المعتقد أن النجوم مجرد مصابيح أو فوانيس سماوية معلقة في قبة السماء من أجل أن تنير الأرض . وبالتدرج استطاع العلماء من أمثال غاليليو وكوبرنيكوس ونيوتن إقناع الناس أن الأرض ليست هي مركز الكون . ولكنها مجرد جزء صغير جداً في هذا الكون العملاق .

وهكذا تمكن الإنسان من أين يرى عبر أبعاد متزايدة من الفضاء بواسطة المناظير الفلكية المكبرة ، التي استعملها أول مرة في القرن السادس عشر الميلادي غاليليو بعد أن هداه الله إليها ، في الوقت الذي قدّره وقضاه هو سبحانه .

## شموس بعيدة عن كوكبنا الأرض ملايين السنين :

الأبعاد التي بين النجوم أو الشمس كبيرة جداً إلى حد عندما نعبر عنها بالأميال أو الكيلومترات ، فينبغي أن نضل نرصد ملايين الملايين أو المليارات . ولذلك وحتى لا يدوخ العلماء بهذه الأرقام أخذوا يقيسون المسافات والأبعاد بالسنين الضوئية . ومع ذلك ظلوا واقعين تحت وطأة الأرقام المليونية .

والقياس بالضوء ، يختصر المقاييس العادية اختصاراً شديداً . فالسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة من سنّي الأرض . علماً بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة مسافة ( ...، 300,000,000 كلم ) أو ( ...، 186,000 ميل ) . بحيث تتمخض السنة الضوئية عن رقم خيالي من الأميال هو في الحقيقة ست ملايين ملايين ميل أو حوالي عشر ملايين ملايين كيلومتر . ويمكن باستخدام المراصد المتقدمة الحديثة التعرف على نجوم أو شمس تقع على بعد آلاف ملايين السنين الضوئية .

وكما هو معلوم ، شمسنا هي أقرب النجوم إلى الأرض . ورغم ذلك فإن ضوءها يستغرق 8،5 دقائق ونصف حتى يصل إلينا . وخارج مجموعتنا الشمسية يسمى أقرب النجوم إلينا قنطورس ، وهو على بعد 4،4 سنوات ضوئية منا . ولو تخيلنا أننا نستطيع السفر بسرعة الضوء وأقلعنا وعمرنا عشر سنوات فلن نصل إلى ذلك النجم الجميل المسمى الدبران قبل أن نبلغ الثامنة والسبعين من العمر . وبعض النجوم التي يمكن أن تراها بعينك المجردة تقع على بعد آلاف السنين الضوئية . وعلى ذلك ، وبغض النظر عن السرعة التي تنطلق بها ، فإنك لن تستطيع أن تصل إليها في حياتك .

ومن الأهمية بمكان ، أن نقدر ما تعنيه هذه الأزمنة والمسافات بالنسبة إلى مواقع النجوم . فنحن نعلم أن مواقع النجوم تتغير طوال الوقت . وأن النجوم تتحرك بالنسبة لبعضها البعض . ولكن كيف نستطيع الحكم على موقع أي نجم ؟ هل عن طريق النظر إليه ؟ كلا . لأن ضوءه الذي نراه إنما استغرق زمناً طويلاً حتى وصل إلينا . وخلال ذلك الوقت تحرك النجم وغير موضعه . ولذلك فمن اللازم أن نحسب السرعة التي يتحرك بها ، ومن ثم نعود بموضع النجم إلى مكانه الحقيقي . وعلى ذلك يتبين لنا أن لكل نجم موضعين هما : الموضع الذي نراه فيه . ثم الموضع الذي يشغله حقيقة . فعندما ننظر إلى أكثر النجوم بعداً عنا في الفضاء ، نراها على الحالة التي كانت عليها خلال أماد سبقت بكثير تكامل تكوين الأرض . ( وليس خلقها ) .

ولنحاول أن نتخيل صورة مبسطة للسماء الدنيا بمصاييحها . فأصغر ما فيها من أشياء هي تلك الشهب ، والنيازك ، والمذنبات ، والقمر ، ثم الكواكب السيارة ( مثل الأرض والزهرة وعطارد ) وهذه الأشياء تلف وتدور حول نجم مركزي ( مثل الشمس في حالتنا ) . ويبدو أنه من اللازم ، أن يتبع كل نجم كواكب سيارة ، وإنما هذه الكواكب لا ترى بالمرصاد إلا بصعوبة كبيرة ، لأنها لا تشع الضوء ذاتياً . إلا أن بعض العلماء ، اكتشفوا وفي السنة 1999 كواكب سيارة تدور حول نجومها أو حول شمسها خارج مجموعتنا الشمسية .

ومعلوم أن النجوم ، تكون مع بعضها البعض ، مجموعات كبرى تسمى المجرات ، بينما تدخل كل المجرات معاً في بناء السماء الدنيا .

## الشموس أنواع عديدة :

قبل أن نتحدث عن أنواع الشموس أو النجوم ، ينبغي أن نذكر شرطاً عظيماً من

أشراط الساعة ، وهو في قوله تعالى :

{ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . سورة القيامة الآيات

( ٧ - ٩ ) } والشرط الذي أعنيه بين هذه الثلاث شروط هو قوله سبحانه : { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } إذ المعلوم من القرآن الكريم أنهما لن يجتمعا ، لقوله تعالى : { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . سورة يس الآية 40 } .

فالقصد إذن من قوله تعالى : { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } هو جمعهما أو جمع كل منهما جمعاً لغوياً ، وذلك بعد إفراد كل منهما قبل الكشف العلمي الفلكي ، وهذا من إعجاز القرآن . فقبل هذا القرن العشرين ، كانت لفظة الشمس أو القمر تعني شمسنا وقمرنا بالنسبة لأرضنا هذه الدنيا . أما وقد تبين أن في السماء شموس وأقمار ، فأصبح لزاماً علينا ، أن نفهم أن كلمة الشمس إنما هي اسم علمٍ لشمسنا ، وهي اسم جنس لقبية الشموس ، وكذلك القمر بعدما اتضح أن هناك كذلك أقمار عديدة لبعض الكواكب السيارة من أخوات كوكبنا هذا الذي بقمر واحد . وهذا الإيحاء اللغوي شائع في اللغة العربية ، فكلمة الإنسان تعني — إذا أردت بها جميع أفراد الإنسان — كما أنها تعني فرداً واحداً إذا أردت بها ذلك ، وكذلك كلمة صديق وعدو وأدم ، وسبأ وعاد وثمود .. ومثل ذلك شمس وقمر .

ونتابع في آيته الكريمة المعجزة : { وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ } .

فالنجوم أو الشموس ، يمكن أن تقسم إلى أنواع مختلفة ، تبعاً لألوانها ودرجة حرارتها ، اللذين بدورهما كثيراً ما يتبعان أحجام الشموس . فالشمس ، شمسنا ، عبارة عن نجم أصغر ( وهو أكثر أنواع النجوم شيوعاً ) . وتبلغ درجة حرارة هذا الخليط من النجوم المتوسطة الحجم نحو ...6، درجة سنتيغراد

. وثمة فصيلة أخرى من النجوم ، وهي فصيلة النجوم الحمراء . درجة حرارتها أقل ( ...، 3 درجة سنتيغراد ) وغالباً ما تكون عظيمة الحجم ، ومن ثم يطلق عليها إسم العمالقة الحمراء . وفي الطرف الآخر لمقياس الأحجام تأتي النجوم أو الشمس الزرقاء ، التي تميل إلى أن تكون أصغر حجماً وأكثر ارتفاعاً في الحرارة ( نحو ...، 15 درجة سنتيغراد أو أكثر ) .

وكل الشمس تفصل بينها مسافات كبيرة جداً ، حتى إنه قد يمضي زمن مثل .. 5 بليون سنة ، قبل أن يصطدم نجم بنجم آخر ، ولكنها مع ذلك ، فإنها تكون جزءاً من مجرتنا ، التي بدورها ما هي إلا واحدة من بين مجرات هذه السماء التي تقدر بالملايين .

ونحن نقع — أي مجموعتنا الشمسية — على وجه التقريب ، على بعد ...، 3 سنة ضوئية من مركز المجرة . ومن السهل أن نرى كيف تزداد كثافة النجوم داخل المجرة بازدياد القرب من مركزها . والآن تصور أن عليك أن تنتظر عبر المجرة إلى الجانب الآخر الأكثر بعداً ، عندها سوف ترى عدداً هائلاً من النجوم ، القريبة أو البعيدة ، وذلك في حزمة سعتها في مثل سمك المجرة .

والآن أخرج في ليلة صافية ، وحاول أن تستعرض مجرتنا هذه . فإنك سترى الطريق اللبني كما سماها الإغريق .

وأول من وصف حزمة الضوء العريضة التي تعرف باسم الطريق اللبني أو درب التبانة هو ديموكرينس ( وهو نفس الإغريقي القديم الذي كان أول من صاغ النظرية الذرية ) وقد اقترح وذهب إلى أن الطريق اللبني إنما يتكون من عدد وفير من النجوم ( أو الشمس ) بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بينها . ولقد أثبتت المناظير الفلكية الحديثة صحة ما ذهب إليه .

## { إذا الشمس كورت . سورة التكوير الآية الأولى } :

وتلف المجرة بشموسها كلها وتدور حول نفسها بمعدل قدره 140 ميلاً في الثانية . وتستغرق ما يقرب من 230 مليون سنة لكي تتم دورة كاملة . ولسوف يصيبك الدوار إذا أقدمت على التفكير في كل الاتجاهات التي تدور فيها وتلف في وقت واحد .

وفي هذا العصر يستطيع المرء باستخدام المناظير الكبرى الفلكية القوية أن ينفذ ببصره من مجرتنا ليرى مجرات أخرى . ولتلك المجرات مناظرها الرائعة فبعضها يشبه العجلات الكبرى بينما يشبه بعضها الآخر المغازل الجميلة .

## { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . } (\*) :

{ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ } و { وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ } أي فتحة الأوزون ، وأصبح مفروغاً منها . وقد تلاها فتحات في أرجاء السماء ، كل فتحة بمساحة قارة .

يبقى قوله تعالى : { وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ } .

فقد اكتشف علماء الفلك أن الكواكب لا حصر لها وهي تتناثر بسرعة خارقة متباعدة عن بعضها البعض . ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار متناثرة في الهواء . فلو استطعت أن تتخيل هذا في شكل أعظم ، لأمكنك أن تحظى من الفهم بشيء عن السيارات والكواكب في الكون ، مع الفرق الهائل المتمثل في أن ذرات الغبار تتناثر ويتصادم بعضها مع بعض . ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تسير في أعالي البحار متباعدة ، حتى أن إحداها لا تعرف شيئاً عن الأخرى .

وكذلك في قوله تعالى :

## { وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ . سورة التكوير الآية 2 }

الإنكدار في اللغة هو السقوط ، يقال انكدر الطائر إذا أصيب جناحه أو جرح فيجنح أو يسقط .

(\*) سورة الإنفطار الآيات ( ١ - ٢ ) .

ومعلوم بالنسبة للسماء أنها كرة محيطة بنا ، وأن الناس هم المخاطبون بلغة القرآن إضافة إلى معشر الجن . وبما أن الناس منتشرون حول كوكب الأرض وهو كروي أيضاً فإن أي ذهاب في السماء إلى أية جهة من جهاتها هو سقوط بالضرورة بالنسبة لقسم من الناس . مثال ذلك : الصاروخ المنطلق صعداً من القطب الشمالي في الأرض ، هو في حالة سقوط بالنسبة للذين هم في منطقة القطب الجنوبي .. وهكذا ..

ومن بين الحقائق الهامة جداً المتعلقة بالمجرات أنها كلما ازداد بعدها عنا ، كلما تراءى لنا أنها منطلقة بسرعات أكبر . وفي الواقع نجد أن المجرات الأكثر بعداً عنا إنما تتحرك بسرعات تبلغ من الكبر الحد الذي يصل بها إلى سرعة الضوء ، بحيث لا نستطيع أن نراه قط . ويطلق العلماء على تلك المجرات اسم : ( حدود الكون المرئي ) . وهي تسمية لطيفة تعترف ببساطة بعجزهم عن معرفة حدود هذه السماء .. الدنيا ..

## الفصل السّابع

أهمية القائد عند الله

فهو يقود إما إلى جنة إما إلى نار

## " كما تكونون يولئ عليكم " قالها رسول الله محمّد (ص) .

هذا الحديث يمكن أن يكون إجابة على السؤال : لماذا يرضى الله بقيادة للشعوب والعساكر ، ملوكاً وغير ملوك ، وهم من أهل الطغيان أو الفساد أو الجور ، فضلاً عن شركهم أو كفرهم ؟

ولماذا لا يهيه الله سبحانه للشعوب قادة صالحين ، يقودونهم على صراطه المستقيم ؟

هذه التساؤلات صحيحة ، وكذلك الأجوبة ، انطلاقاً من هذا الحديث المنطقي ، الذي يصدقه القرآن الكريم : " كما تكونون يولئ عليكم " .

فنحن لكي لا نستعرض أمثلة من التاريخ الماضي أو المعاصر ، وما أكثر المصاديق والنماذج ، في طبائع الشعوب وملوكهم وقاداتهم ، مما نعي ونرى من الماضي والحاضر ، نكتفي بمثال واحد من كتاب الله ، يكفينا الغوص حول أسرار هذه الأسئلة المعقدة .

مصر ، كانت في حقبة من الزمان ، مركز الحضارة في العالم ، وقد حكم المصريون الوثنيون وإلى أماد متطاولة أكثر العالم المعروف آنذاك سواء مما حولهم من أفريقيا من جهة ومن آسيا من جهة أخرى . أي ما يعرف بمنطقة الشرق الأوسط . ويبدو بقوة ، أن أخبارهم التي ذكرها القرآن ، عن بعض مراحل تاريخهم ، تصوّر حقيقة شعب منقادٍ بأهوائه ومزاجيته ووثنيته ، إلى ملك ، هو نصّبه ، فقاده عبر انتصارات عسكرية وكذلك حضارية .. إلى جهنم .

والسؤال هنا ، ما دام الله عادلاً ورحيماً ، فلم لم يجعل قائدهم أو مليكهم أو يجعلهم هم من المهديين الصالحين ، فيحكموا العالم بالعدالة والرحمة والدعوة إلى التوحيد .. توحيد الله .

في الحقيقة ، كما هو واضح في القرآن ، أن الله سبحانه فعل ، إذ لما وجدهم كذلك شعباً وملوكاً ، جفاةً طغاةً يؤلهون فراعينهم الدهاة المتجبرين المتكبرين المفسدين في الأرض ، أرسل لهم رسولا لينقذهم مما هم فيه ويهديهم إلى منطق العدل والعقل وإلى رحمته . أرسل لهم موسى عليه السلام :  
ففي القرآن الكريم قوله سبحانه :

{ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب . سورة غافر الآيات ( ٢٣ — ٢٤ ) } . واضح هنا ، أن المقصودين كانوا برسالة الله تبارك وتعالى ، هم زعماء البلاد : الرجل الأول ، أو الرياسة الأولى في الأمة ، والرجل الثاني في الحكم ، ثم إلى مركز السيطرة المالية والإقتصادية المتمثلة بقارون .

وواضح كذلك في تاريخ الحكومات الاستبدادية وحتى الديمقراطية السائدة كما رأينا ونرى في القرن العشرين ، أن الحكام الذين هم من الدرجة الأولى يشكلون ما يشبه العصابة ، يتعاضد فيها سلطان النفوذ مع سلطان المال ، وما دام لا يلجم هذه الأنواع من التحالفات أو العصابات ، رادع ديني أخلاقي ،

فإنها تتحول إلى مافيات إرهابية بثياب رسمية ، تحكم البلاد والعباد ، وتقود الشعوب ، معظمها - كما سنرى في القرآن - إلى جهنم .

ولا ننسى أن هذا التحالف ، قد يكون مع رجال دين نافذين مثل رؤساء الأديان وسدنة المعابد والهيكل وبيوت العبادة سواء على مستوى الوثنية ، أو بعض ، بل أو كل الأديان السماوية إذا أفرغت من جواهرها ، وعمل بها بالبدع والنفاق والتستر باسم الدين أو بثياب الدين .

وقليلة جداً هي الثورات الشعبية في التاريخ القديم أو الحديث ، التي انتفضت فيها الجماهير ضد طواغيتها ، ولعلّ أبرزها وأعظمها في التاريخ ثورتان ، الثورة الفرنسية التي دمدت على التحالف المتمثل بالسلطة ورجال المال أي الإقطاع ، ورجال الدين الذين زوروا الدين المسيحي وسخروا الكنيسة لجشعهم وبدعهم .

ولا بدّ أن نلفت إلى أن الثورة الفرنسية ، لأنها لم تقم على أسس روحية ، بل هي تنكرت أصلاً لهذه الأسس ، لعدم قدرتها آنذاك على تفسير الدين المسيحي الحقيقي ، ولنقمتها الشديدة على رجال الكهنوت . فقد وقعت في مطبات وكوارث وكثير من سفك الدماء والإنقلابات المتتالية منها عليها ، حتى انتهت بعد مخاضات عسيرة ، إلى صيغة علمانية ، استبعدت فيها الدين عن الدولة .

أما الثورة الثانية ، التي أثرت عميقاً ، على السياسة العالمية ، وزلزلت أركان الاستبداد الاستعماري ، بجميع أشكاله العسكرية والثقافية والاقتصادية ، والتي أنعشت تطلعات الشعوب المصعوقة بالحضارة المادية ، والمسحوقة تحت عجلات قطارها السريع ، فهي الثورة الإسلامية في إيران . ورغم أن الثورة كانت معجزة بإطارها العام ، وإنما كان ضمن هذا الإطار معجزات كثيرات ، لعلّ أبرزها سرعة استقرارها ، والفشل المتكرر والمتلاحق لغزوها عسكرياً ومخابراتياً واقتصادياً وثقافياً وعلى كل صعيد . { .. } **وَأَيِّنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ ..** سورة الحج الآية ٤٠ { صدق الله العزيز الحكيم .

**" كما تكونون يولّى عليكم "** كذلك كان هذا الحديث الشريف انطباقياً على الثورة الشعبية الإسلامية في إيران . فإن نسبة التدبُّن في الشعب الإيراني المسلم ، وتاريخ التدبُّن والروحانية في هذه الأمة العريقة بحضارتها وعقلانيتها ، كل ذلك جعل من نتائج ثورتهم أن ولّى الله سبحانه عليهم من هو أهل لهم وهم أهل له ، ولا أعني واحداً فقط بشخصه وصفات القيادة الرائعة التي اختصه بها الله سبحانه أعني الإمام الخميني (س) . وإنما أعني كذلك كل رجل دين شارك في الثورة أو أيدها ولو بقلبه { **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا** **وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** . سورة الأحقاف 19 } وكذلك كل مسلم ومسلمة ، وحتى من خارج الحدود الإيرانية ، فالثورة كانت بطلة ، معجزة ، وكان بطلاً كل من هلك لها وكبّر وصاح بشعارها : **الله أكبر** . وهو التوحيد الأعظم .

فالقيادة الحكيمة المجتمعة فيها كل أو معظم الصفات التي تمكنها أن تقود شعباً أو أمة أو أية مجموعة بشرية إلى شرف الدنيا والآخرة ، ليس مقدراً لها أن تنجح ، إذا لم تجد بيئة صالحة وأنصاراً صالحين ، نوعية وعدداً .

والعكس صحيح ، إذا وجد الصالحون الكافون لتغيير وضع من طغيان وفساد ، إلى عدل وصلاح ، ولم يكن بينهم قيادي موفق من الله وملهم ، فإن المجتمع يبقى في نوع من الفراغ وفقد الراعي في المجال الإنساني .

ولأهمية القيادي عند الله تبارك وتعالى ، إذ أنه قد يقود قوماً إما إلى جنة إما إلى نار . فقد رأينا أن الله سبحانه أرسل إلى ثلاثة من القادة ، الذين يحكمون أمة ضخمة ، بل أمماً ، أرسل إليهم وبالتالي إلى شعبهم رسولاً من أولي العزم ، هو موسى عليه السلام .

ولكن طواغيت الأمة هؤلاء ، وكأكثر طواغيت الحكم في بلاد الدنيا ، أخذتهم العزة بالإثم ، فكذبوا موسى ، وأنكروا رسالة الله إليهم وإلى شعبهم ، وتعالوا وتجبروا ، رغم آيات معجزات ، أباها لهم الله سبحانه على يد موسى (ع) . فأضلوا شعبهم وقادوه - كما سنرى - إلى الهلاك ثم إلى النار والعذاب المؤبد .

وللمقارنة وأخذ العبر ، نرى موسى (ع) في المقابل عبداً لله مطيعاً ، يحرص بكل ذرة في كيانه على طاعة مولاه الله عز وجل . فيقود قومه إذ اتبعوه ، ويخلصهم بعون الله وقضائه من الذل والقتل والمهانة التي كانوا يرزحون تحت وطأتها في حكم فرعون .

قد يقال موسى نبي وفرعون ليس بنبي ، فنقول هناك جوابان : الأول أن الناس سواسية في الفهم والاعتقاد والاتباع ، وبكلمة واحدة هم سواسية في الاختيار ، فلماذا اتبع فريق فرعون واتباع فريق موسى؟! والجواب الآخر هو إنه حتى النبي ذو العزم المميز والصفات القيادية العالية ، قد يخونه أتباعه ويكفروا وينفروا ، كما فعل بنو إسرائيل حيث عبدوا عبداً معدنياً نحته لهم أمام أعينهم أحد الصناعات .

يبقى الكلام المهم ، عن مدى التأييد الإلهي لنوعية القائد أو خذلانه في الدارين . والخذلان في الدار الآخرة أمرٌ وأخرى .

ففرعون وزملاؤه في الحكم ، برغم ما هو عالٍ في الأرض ، قوي بعصابته ، وجيشه واتساع ملكه وسلطانه ، وعبادة شعبه له ، فقد حطه الله من شأقه ، هو وزبانيته وجميع أتباعه وعامة شعبه الذي أساء الاختيار . فكفروا حتى بما أبصرت أعينهم ، فضلاً عن منطق العقل ، وعظائم ما خلق لهم الله في السموات والأرض .

فذلوا بعد عز وعيش كريم ، ثم إلى أين بعد الهلاك ؟

وفي ثلاث آيات بينات تختصر أبعاد الحدث التاريخي الذي أراد منه سبحانه أن يكون عبرة للحكام ولتابعيه فيما بعد من حياة البشرية . وتلخص مدى مسؤولية القيادي ومدى مسؤولية من يتبعه من الناس ، وضرورة أن يرى كل إنسان مصيره ، هل هو إلى عذاب دائم أم إلى نعيم مقيم .

وهذه الآيات هي قوله تبارك وتعالى :

{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى . فَاَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى . سورة طه

الآيات ( 77 - 79 ) . {

فمن قوله تعالى : { **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ..** } تستفاد عبرة عظيمة يجب أن يتوقف عندها كل قائد وكل مقود أو تابع . وهي أن يكون القائد ربانياً متبعاً لتعاليم الله باسمه يقود وإلى صراطه يدعو وفي سبيله يجاهد ، ويقود الذين يقودهم - عالماً عارفاً بالله - إلى شرف وكرامة الدارين الدنيا والآخرة .

أما قوله تعالى : { **.. فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ..** } فهي طريق الحياة الواضحة المعالم ، التي يسلكها السالكون ، وهم على يقين وعلى بينة من استقامتها وسلامتها ، لكي لا يغرقوا في بحر الحياة ومناهاته وظلمة لوجه وعنف أمواجه .

وقوله تعالى : { **.. لَا تَخَافْ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى .** } فيها إخبار لموسى عن حاله ، فالله أعلم بنفس موسى من موسى بنفسه ، فهو سبحانه إذن طمأنه إلى هذه الحقيقة ، وهي أنه في هذه الأونة البينة الخطر ، وبعد أن كان موسى يخاف في بدء تدرجه في تكاليف النبوة والرسالة . أصبح اليوم أكثر إدراكاً ويقيناً بأن الله عزت عظمته معه ، حاضر بقوته المطلقة وعزته التي لا تحاول ولا تطاول ، وقد رأى بالأمس كيف دكَّ أمامه الجبل دكاً وخرَّ موسى صعقاً ، وكيف أنه جل شأنه خذل السحرة وأذهلهم وهدم عزة فرعون التي أقسموا بها ، ورأى موسى .. ورأى .. ما جعله اليوم أثبت أركاناً وأعظم يقيناً بنصرة ربه له وبخذلان عدوه ، فهو إذن لا يخاف أن يلحق به فرعون وجيشه ولا يخشى من البحر ومفاجآته ، بعد أن جمَّده الله له وادياً بين جبلين كأنما بنيا من الحجارة .

واندفع هذا القائد بين الجبلين متوكلاً على الله ، لا يخاف دركاً ولا يخشى ، واندفع وراءه قومه ، كذلك متوكلين على الله كما علمهم هذا القائد الفذ ، وكذلك غير هيايين ، لكثرة ما رأوا من أفضل الله عليهم ومن آياته وعجائبه .

وهنا يظهر مدى تأثير القيادة سلبية كانت أو إيجابية ، على حق كانت أو على باطل ، والنموذجان في بحثنا هذا حاضران موسى عليه السلام وعدوه عدو الله فرعون . هذا قاد قومه إلى ولاية الله ورضاه ورضوانه ما داموا في طاعته ، وذلك قاد قومه إلى العداوة لله وإلى غضبه وانتقامه .

وهنا تظهر بقوة ، الضرورة ، ضرورة المعرفة ، أولاً معرفة الله جلَّ وعلا ، ثم بعدها بقية المعارف ، وأعلاها بعد معرفة الله ، معرفة القائد لنفسه ، أعلى حق هو أم على باطل ، أفي طاعة ربه هو وعلى بينة منه ، أم أنه يخبط خبط عشواء ، فيلقى بعدها في جهنم . وكذلك مدى مسؤولية الأتباع وضرورة أن يترثوا طويلاً قبل اتباع أي قائد أو زعيم أو إمام ، وأن يعرفوا بمستوى اليقين لا الاشتباه ، ولا الظن ، إلى الله ورضوانه يقودهم أم إلى الهاوية .

والمثال على الحالة السلبية ، هذا أحد الطواغيت ، جعله الله سبحانه نموذجاً يعتبر به ويقاس عليه : قال تعالى في سياق الآيات :

{ **فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** } .

هكذا في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل . فلماذا نقم فرعون وهامان وقارون وقومهم من موسى ؟ نعموا منه أنه يؤمن بالله العزيز الحميد ، نعموا منه ومن أتباعه ذلك . وكالعادة بين أهل الباطل وأهل الحق . أرسل فرعون جنوده بأثر موسى وقومه ، والتحق هو بهم بكوكبة من فرسانه . وكذلك بصدده سنة الله في أعدائه ، حيث يخذلهم ويذلهم ويخزيهم ، فقد خذل فرعون وتابعيه وأذلهم وأخزاهم ، إذ أدخلهم من حيث أخرج موسى وقومه من بين الجبلين المائيين ، فأنجى هؤلاء ، وأطبق الجبلين على فرعون وجنوده ، بعد أن تكاملوا عدداً في هذا الوادي من الخضم الزاخر ، هكذا خضم الحياة الدنيا وأوديته وجباله وأمواجه ، فقادته وأتباعه ينجون بولائهم لله وخشيته وحبه ، وقادة وأتباع يهونون في الأودية ، أو تمزقهم الأمواج العاتية ، فيكون لهم خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب أليم . وذلك بكفرهم أو بشركهم أو بعدم تقصيصهم للحق وأهله .

ثم كانت في الآيات البيّنات ، خلاصة الخلاصة ، قوله تعالى:

{ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى . } . وصدق الله العزيز الحكيم .

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } عَالَمٌ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . سورة النمل الآية 59 .

الحمد لله قبل كل شيء وبعد كل شيء . الحمد لله أولاً وأخيراً وظاهراً وباطناً ، هذه الصيغة { الحمد لله } هي الثقل الوحيد في الميزان الذي يملكه الإنسان ، في إحدى الكفتين ، في مقابل عطاءات الله ونعمه التي لا تحصى ، وأنه سبحانه سخر للإنسان ما في السماوات والأرض ، في الكفة الأخرى . وماذا يستفيد الله عز وجل من كلمة { الحمد لله } ، سوى أنها إخلاص له سبحانه ، وإقرار بنعمه ووحدانيته ، وهو الملك الحق المبين ، خالق الخلق ومالك الملك ، والغني عن العالمين .

أما قوله تعالى : { .. وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. } ففيها من رحمته ورأفته وعنايته ، وحتى من حبه للمخلصين من عباده ، الشيء الكثير ، والشأن العظيم .

ولماذا ؟ للفرق بين اختياريين لرجلين كليهما من طينة واحدة ، أحدهما اختار أن يكون كافراً طاغية فاسداً مفسداً ، والآخر اختار أن يكون مؤمناً مخلصاً صالحاً مصلحاً . فالله سبحانه يلعن الطاغية ويبعده من رحمته ، ويقرب الصادق المؤمن ويصطفيه ، ويقول له سلام مني عليك ، فهل أجمل وهل أعلى من هذا السلام ، والله سبحانه ، هو السلام ومنه السلام وبه السلام .

فرعون أشرك بالله نفسه ، حتى إنه جحد الله تعالى وأعلن نفسه إلهاً .. وليس بعيداً عن فرعون كل من يجعل نفسه محور اهتمامه وشهوته وأطماعه ومصالحه وجمعه المال واستقطابه الناس ليرضي طموحه وقلبه على الدنيا ، فهو كافر من ناحية ومشرك من ناحية ، كافر بنسبتيه خالقه ورازقه ومحبيه ومميته ، ومشرك بأن جعل لنفسه عدة أرباب منها المال والجاه والناس ..

والمؤمن الصديق ، يبذل نفسه حباً بالله وجهاداً في سبيل الله ويستترخص كل ما دون الله تعالى ويزهد . يعلم أن كل شيء يملكه هو ملك الله ، حتى نفسه ، لذلك تراه عند الإقتضاء يجود بها غير مبال بالعواقب : " والجود بالنفس أسمى غاية الجود " .

وإذا كانت مفردات الشرك التي يتعبد لها أهل الشرك والجود ، هي هذه : الإنسان ، النفس الأمانة ، مظاهر القوى في الطبيعة ، مراكز القوى في الأرض ، ملوك ، زعماء ، وحتى الأنبياء والأولياء ، إذا عبدوا من دون الله أو دُعوا من دون الله ، كل هذه المفردات من الإنسان إلى جميع ما خلق الله في الأرض أو في السماء ، مجتمعة ومتفرقة ، لا تعادل في قاموس الألوهة والعزة والكبرياء ، إلا كلمة ، هي : باطل . قال عزّ وعلا : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } . سورة لقمان الآية 30 { وقال رسول الله محمدٌ (ص) : أصدق كلمة قالتها العرب ، هي قول لبيد : " ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ " .

لذلك قوله تبارك وتعالى : { عَالِمٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } . سورة النمل آية 63 { وتعالى علواً كبيراً ، له الحمد وله الشكر كما حمد نفسه وكما شكر نفسه وكما ينبغي لكرم وجهه .

## الفصل الثامن

عَاللّٰهُ خَيْرٌ اَمَّا يُشْرِكُوْنَ ؟

## ءالله خيرٌ أمّا يُشركون ؟

ما دام الله سبحانه : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . سورة الحديد الآية 3 } وما دام سبحانه : { .. هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ .. . سورة الحديد الآية 4 } وما دام سبحانه : { .. مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ .. سورة المجادلة الآية 7 } هذا قوله سبحانه وهذا كلامه ، ومن قوله عز وعلا ومن كلامه : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا نُؤَسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . سورة ق الآية 16 } قال وعرف عن نفسه ، وأمر ونهى ، وفصل الآيات وكشف الحقائق ، وأشبع العقول ورؤى الأنفس وأنزل كل ذلك وأعظم من كل ذلك في كتاب مجيد ، ليس أمجد منه ولا بمجده كتاب تحت هذه السماء الزرقاء . هو القرآن العظيم .

لذلك كله ، اني أنا إذا دعوت غير الله ، لأي شأن من الشؤون أو أية حاجة من الحاجات الخاصة أو العامة ، أكون قد دخلت في الشرك الظاهر ، والشرك الخفي أدهى وأمر . ومعلوم من حكمه سبحانه ، الذي لم يفهمه بعد أكثر الذين يقرؤونه ويجودونه ويفسرونه ، وهو قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . سورة النساء الآية 48 } يتلون هذا القول ويحفظونه عن ظهر قلب ، ويشركون بهاراً ونهاراً وليلاً وبدون حياء لا من الله ولا من القرآن الذي من يفهمه نجا ومن لم يفهمه إلى الجحيم - إلا من كان معذوراً بعدم إلمامه بلغة القرآن - .

يحفظون هذه الآية كما يحفظون فاتحة الكتاب وفيها : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ويعبدونه وكأنه ليس هو في الأرض إله وفي السماء هو كذلك ، قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . سورة الزخرف الآية 84 } وإنما يحسبونه فقط في أعالي السماوات . مرات عديدة يقفون بين يديه كل يوم ليقولوا له { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ثم ينسونه ويكثرون ذكر غيره من أولياء أو أشقياء ، ويستعينون دائماً وأبداً بسواه .

إذهب إلى أي مستشفى من مستشفيات العالم الإسلامي وغير الإسلامي ، لترى أنهم كلهم — إلا من رحم ربك — يستعينون بالدواء ، والدواء غير الله ، ويستعينون بالطبيب والطبيب غيره سبحانه . ويتفذلكون يقولون إن الله خلق الداء والدواء وخلق الطبيب . قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في أبيات .

دواؤك فيك وما تبصر	وداؤك منك وما تتشعر
وأنت الكتاب المبين الذي	بأحرفه يعرف المضر
وتحسب أنك جرم صغير	وفيك انطوى العالم الأكبر

استفادها من محمّد (ص) ومن القرآن الكريم . أما من محمّد (ص) فحين أرسل له ملك القبط من مصر هديته المشهورة ، وفيها طبيب ومارية القبطية وسيف وأشياء غيرها ، تقبل رسول الله كل الهدية إلا الطبيب ، قال بلطفه المعهود : عد سالماً وحسبنا الله وقرآنه الكريم ، به نستشفى وبه نستكفي أو كما قال رسول الله (ص) .

أما القرآن ففيه أكثر من خير وإشارة إلى أن فيه شفاء للأنفس وشفاء للأبدان ، أي للأمراض النفسية والبدنية ، وكذلك أمراض الوهم التي تفتك بأكثر الناس فتكاً ذريعاً ، وهي لا تكاد تحصى . نذكر منها

على سبيل المثال : الشقيقة ( أي نوبات الصداع الشديد ) . والكآبة التي غالباً ما تؤدي إلى الإنتحار ، والأرق ( عدم القدرة على النوم ) والقلق ( وهو فقد السكينة والطمأنينة ) إلى مئات الأمراض العصبية ، التي لم يستطع الطب أن يحصر أسبابها فضلاً عن حصر أمكنتها ، لا من قبل المريض المروع ، بل من قبل الطبيب المراقب أو الفاحص . ولا ننسى أمراض الحساسية ، التي دوّخت هي وشقيقاتها العصبية والنفسية الطب والأطباء .

أما عن الأمراض العضوية وكوارثها ، فكلام لا يكاد ينتهي ، فصدور خربة ، وبطون تكاد تصيح من كلية معطوبة أو كبد مشمع أو بنكرياس تعب أو مرارة فيها حصى أو زائدة ملتية ، والتهابات وأوجاع ، حتى أن الأصوات الطبية ارتفعت تقول إن المضادات وكثير غيرها من الأدوية ، تنفع في جانب وتضر في جوانب أخرى . والحقيقة المرة أن دعوى تقدم الطب والجراحة ، والشفاء من الأمراض المستعصية ، ولا سيما الأمراض التي كانت سائدة تفتك بالبشر ، ما هي إلا دعوى وهمية غريبة عن الحقيقة . وصحيح أنها زالت أمراض ، ولكن حلت محلها أمراض أخطر وأدهى وأوسع انتشاراً ، ويكفي مثلاً على ذلك الإيدز والسرطان .

هذا ، وينبغي أن نقرر ، أن الناس الذين كانت تفتك بهم الحميات وبقيّة الأمراض التي كانت سائدة ، وادعى الطب أنه استأصلها ، هؤلاء الناس لو كانوا ربانيين ، يعرفون اللجوء إلى الله تعالى ذكره ، ويعرفون الاستغاثة به سبحانه وحده لا شريك له ، ويعرفون أنه موجود معهم ، مع كل فرد منهم ، وأنه أقرب إلى الإنسان من دمه ومن قلبه ومن نفسه ، لو وفّروه وعرفوا قدره ، وحكّموه بأنفسهم وأولادهم ، وتعهدوا أنفسهم وأبدانهم وبيئتهم كما أمرهم سبحانه ، بالوقاية والنظافة ، والإعتدال في المأكل والمشرب وتجنب المحرمات ، وغير ذلك من التعاليم الإلهية الموجودة في مظانها . لما فتك فيهم سلٌّ ، ولا حمى ، ولا من الأمراض الحديثة إيدز ولا سرطان ولا غير ذلك . ولكن { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . سورة الروم آية 41 } سابقاً أو حالياً أو لاحقاً .

فماذا في القرآن الكريم من أخبار الشفاء ؟

في رأس أسباب الشفاء وأسباب الشقاء نطلق من قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . سورة الأعراف الآية 96 } فنتأمل في هذا القول الكريم ، فنعرف من أين المرض ومن أين العافية .

هذا الكلام ، بمعظمه ، لا يفهمه ولا يعتبر به إلا مؤمنون من العارفين ، أو هم على أبواب العرفان ، ونحن نعلم بفضل من الله ، أنه سينور ويغضب كثيرين ، وذلك فقط لأنهم لا يعرفون الله ، على الأقل ، بالدرجة ، التي تمكنهم من تصديق أنه يمكن الإستغناء عن غير الله ، أما القول عن الأسباب فصحيح ، ولكن الأصح منه أنه سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب ، وكلمة (كن) عنده ، أي إرادته التي بدون حروف وبدون حدود ، هي في رأس الأسباب . قوله تعالى :

{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . سورة يس الآية 82 } .

أما ماذا في القرآن عن أخبار الشفاء فنذكر بعض ما يعيننا الله عليه :

أولاً : قوله تبارك وتعالى : { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . سورة النمل الآية 62 } .

ثانياً : قوله تبارك وتعالى : { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . سورة الإسراء الآية 82 } .

ثالثاً : قوله تبارك وتعالى : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . سورة فُصِّلَتْ الآية 44 } .

قد نحتج على أنفسنا بأية يبدو أنه سبحانه جعل فيها العسل سبباً للشفاء ، ولكن بعد التأمل فيها نجد أن الشفاء الذي جعله سبحانه في العسل ، هو مختص بالناس ، بينما الشفاء الذي جعله في القرآن ، مختص بالمؤمنين ( في آية ونزل من القرآن ) وبالذين آمنوا ( في آية فُصِّلَتْ ) .

وفي القرآن الكريم ، تفريق — غالباً يعرف بالقرائن — بين لفظة الناس وبين المؤمنين أو الذين آمنوا .

ومثال على ذلك ، يقول سبحانه في مطلع سورة الحج : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرْوَنَهَا تَذَهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } .

في الآية ، كما هو واضح ، وصف لأحوال الساعة ، التي لمجرد مشاهدتها تذهل المرضعة عن طفلها الرضيع الذي هو أهم شيء لديها في الدنيا ، وكذلك تضع كل ذات حمل حملها ، إن كانت امرأة حامل تجهض ، وإن كانت نفساً من الأنفس تحمل أي حمل باليد مثلاً ولو كان مالا كثيراً أو ذهباً أو لؤلؤاً أو ماساً فإن صاحبه يضعه من يده ، لشدة الهول والرعب وقطع الأمل نهائياً من الحياة الدنيا وكل ما فيها .

وفي قوله تعالى { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } تخصيص للناس بشدة العذاب ، أي غير المؤمنين لأنه من البديهي أن المؤمنين الحقيقيين لا يتعذبون بيوم القيامة ، وقد جاء في ذلك أكثر من نص قرآني : قال تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكَثْبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . سورة الأنبياء الآيات ( 101 - 104 ) } .

فالذين سبقت لهم الحسنى من الله جلت عظمته ، هم عامة المؤمنين الصالحين ، وجهنم هي التي لا يسمعون أدنى أصواتها فضلاً عن انفجاراتها ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، أي يوم القيامة ، لا يسبب لهم حزناً ولا ألماً ولا أدنى حالة من حالات العذاب ، وهو ذاته اليوم الذي ترى فيه الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن حالتهم التي تشبه السكر هي من شدة العذاب .

طبعاً هناك في القرآن الكريم خطابات للناس تعني فيهم المؤمنين وغير المؤمنين ، مثل { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . سورة الحجرات الآية 13 } وغيرها كذلك . إنما كل خطاب تتجلى فيه حكمة الله ويعرف مقصده بالقرائن كما رأينا .

فأما حكاية العسل ، والشفاء الذي جعله الله تعالى فيه ، هو من واسع رحمته للناس ، الذين ليس لهم حظ أو ثقة أن يستشفوا بالأسرار التي في كلام الله أو يستشفوا بالله تبارك وتعالى ، بين رقية ، أو تلاوة ، أو دعاء مضطر ، أو حسن توكل وصبر جميل . والله المستعان في جميع ذلك ، وحده لا شريك له .

وما شأن العسل إذن بالنسبة لأولياء الله والصالحين من عباده ؟ شأنه شأن أي طعام ، حيث لا يتوخون الفائدة والنفع والغذاء من هذا الطعام أو ذلك ، يعلمون أن الفائدة في ما تستطيبه أنفسهم ، إذ يجعل الله لهم فيها موازين ، يشتهون بموجبها ما ينفعهم ، ويعرضون عما يضرهم ، وذلك من ألطاف الله وأفضاله عليهم .

إلاَّ أنَّ ، هناك قواعد صحية في القرآن وفي تعاليم الله عامة في السنن النبوية ، ينبغي العمل بها . وفي رأسها قوله تبارك وتعالى : { .. يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . سورة الأعراف الآيات ( 31 - 32 ) } .

قوله تعالى : { .. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. } أمرٌ منه سبحانه ، مخالفته معصية يترتب عليها أن لا يكون المسرف في طعامه وشرابه مستحقاً لرحمة الله ولمحبته ، فيتخلى عنه سبحانه فيقع في الضرر ، ثم في المرض .. والإسراف في المأكل والمشرب هو الزيادة عن حد الاعتدال ، جملة وتفصيلاً . جملة في مقادير الوجبات وتفصيلاً في مطيبات الطعام ، مثل الملح والبهار وغير ذلك ، ولا سيما ما يسمى اليوم السَّمَانُ الأبيض والملح والسكر . ومعلوم أنه كل شيء زاد عن حده إنقلب إلى ضده .

ولهذه الآية الكريمة حكاية طريفة ، نوردها لنعلم أنها تمثل في الحقيقة خلاصة الطب الوقائي ، وأن الطب الوقائي هو أولى وأعظم من جميع أنواع الطب الذي عرفته البشرية .

ففي مجلس للخليفة المعتصم ، كان الطبيب المشهور ابن بختيشوع ، طبيب البلاط العباسي . وكان في المجلس علماء وقادة وأعيان . تكلم ابن بختيشوع قال : ما وجدت في دينكم شيئاً من الطب . وإنما العلم علمان : علم أديان وعلم أبدان ، فما وجدنا عندكم من علم الأبدان شيئاً . فصمت المجلس وأخذ المعتصم يستعرض القوم ليرى هل من معلق على هذا التحدي . استأذن ليجيب ، عبد الله بن الحسين بن طاهر ، وكان

قائداً عسكرياً وفتياً ، قال : جُمع الطب كله عندنا في نصف آية من كتاب الله : قوله عز وجل : { .. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. } وجمع الطب كله في حديث لرسول الله (ص) قوله : المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء واعط البدن ما عودته . وسكت . فأطرق ابن بختيشوع طويلاً . ثم رفع رأسه وقال : والله ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً .

يقول المتنبى ليقدر أن الموت لا يفرق بين الأدنى والأعظم من الناس ، دالاً على عظمة جالينوس وشهرته في تاريخ الطب :

" يموت راعي الضان في جهله مية جالينوس في طبه " .

ومعلوم اليوم ، كم من القيمة للطب الوقائي في الدول المتقدمة . معتبرين أن الالتزام به يحول دون التعرض لأنواع الأمراض التي تجتاح العالم .

تبقى الوصايا الملهمات التي حكاها الله سبحانه ناسباً إياها إلى خليفه إبراهيم عليه السلام قوله :

{ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . سورة الشعراء الآيات 78 - 82 } .

## الفصل التاسع

### فهم الوجود

بين موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام

خاطب الله رسوله محمّداً (ص) قال :

{ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . سورة آل عمران الآية 84 } .

الشاهد في الآية الكريمة { .. لَا نُفَرِّقُ .. } وهي أمر لجميع المؤمنين أن لا يفرقوا بين جميع الأنبياء عليهم السلام ، بحيث يقول بعضهم ، نتبع هذا ولا نتبع ذاك ، ونؤمن لهذا ولا نؤمن لذلك .

وعدم التفريق هذا ، ليس معناه أن الأنبياء والرسل جميعاً هم سواسية من حيث القيمة وقوة النفس ودرجة التأثير ، والمكانة عند الله عز وجل ، وبالتالي لزوم أن يحقق بذلك الناس ، فيستفيدوا من الخصائص العليا ، عند من فضلهم الله سبحانه .

قال تعالى :

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... سورة البقرة آية 253 } .

ومن أبرز الذين فضلهم من الأنبياء ، أولئك الذين جمعهم في هذه الآية الكريمة مخاطباً بها رسوله محمّداً (ص) :

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . سورة الشورى آية 13 } .

وحيث أن الله سبحانه أبرز من الكتب المنزلة التوراة ثم ألحق بها الإنجيل ، وأسماها { الكتاب } وأسمى أتباعها { أهل الكتاب } ثم أنزل القرآن وجعله مهيمناً بمضامينه على { الكتاب } أي على التوراة والإنجيل . وحيث أن التوراة انزلت على موسى والإنجيل على عيسى ، والقرآن على محمد عليهم السلام أجمعين ، وحيث أن هذه الكتب هي المتداولة بين الأمم اليوم ، والمعروفة وحدها ككتب سماوية ، وحيث أن الله تعالى قرّر في القرآن المجيد الحقيقة التالية عن القيمة الأعلى والأبقى للقرآن الكريم ، في قوله تعالى :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. سورة المائدة آية 48 } .

لذلك كله ، وبإذنه تعالى ويفضل منه سبحانه ، عزمنا متوكلين عليه ، أن نتكلم في المقولة المتداولة بين أهل العرفان ، والتي مفادها ما يلي :

" إن موسى عليه السلام نظر بعين الكثرة ، وأن عيسى عليه السلام نظر بعين التوحيد ، وأن محمّداً صلى الله عليه وآله نظر بهما جامعاً " .

ومفاد ذلك ، أن موسى (ع) نظر بعين الكثرة مستعيناً بالله سبحانه ، وأن عيسى (ع) نظر بعين التوحيد مستعيناً على الكثرة ، وأن محمداً (ص) نظر بهما جامعاً كما يحب الله سبحانه ، وذلك هو الكمال الأكمل في المخلوقين .

كان موسى يرى أن الله في جانب ، والوجود ومفردات الوجود في جانب آخر ، لذلك ، وهو — على اعتقاده — كفرد من أفراد الوجود ، سأل ربّه سبحانه قال : { .. رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . سورة الأعراف آية 143 } .

أما لماذا سأل موسى ربه ذلك ، فلأنه لم يكن يعلم أن الله سبحانه محيط به وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأنه سبحانه محيط بالكون وبكل شيء في الكون ، وأنه الأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .

أما لماذا لم يشرح له الله سبحانه كل ذلك . فنلاحظ حسب القرآن الكريم ، أن بعض الأنبياء يسألون عن أمور ، أو يصرحون لله تعالى عن أمور تدل على فارق عظيم بين ما أتاهم الله سبحانه من العلم ، وبين ما أتى محمداً (ص) من جواهر الحقائق عن ألّهانيته ومثال على ذلك ما حصل لموسى بعد أن { .. نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . سورة القصص آية 30 } وبعد أن جعل معه أخاه هارون رسولاً وأرسلهما إلى فرعون وقال لهما — بعد أن ذكّر موسى بعنانيته به وحفظه له في أعجب الظروف — منذ قذفته أمه في التابوت ثم في اليم ، ثم إلقاء اليم له في الساحل . ثم أخذ فرعون عدو الله وعدوه له ، ثم إرجاعه إلى أمه ، ثم قتله الرجل ، ثم لبثه في أهل مدين واكتمال تعلمه عند شعيب النبي (ع) قال لهما سبحانه : { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . سورة طه الآيات ( 43 - 46 ) } .

فبعد هذا كله ، وبعد وجوب ملاحظته أن الله في كل مكان وأنه معه ومع أخيه ومع كل الناس ، يراهم ويسوسهم ويفعل ما يريد ، سأل ربّه سبحانه قال : { .. رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ .. سورة الأعراف الآية 143 } .

ومثل هذا قوله عندما قتل الذي من عدوه ، قال : { .. هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. } ومعلوم عند من لهم حظ من الإيمان ومن المعرفة أن الشيطان غير مستقل بعمله ، وإنما هو في سلطان الله تعالى ، يصرفه عن يشاء ويقضيه لمن يشاء وقد جعل له حدوداً وقوانين ، يستحيل عليه تجاوزها . وإن لم يكن موسى يعلم في تلك الفترة أنه نبيٌّ ، فهو معلوم عند الله سبحانه ، وهو مؤمن وله شيعة آنذاك من المؤمنين ، فكيف يقبض له الله شيطاناً يفتنه عن دينه ويوقعه في جريمة قتل ، وهو في نظر الله يرعاه وبهيئته لأعباء الرسالة التاريخية في عمر البشرية .

إنما الله ، وهو مسبب الأسباب ، جعل قتله الرجل — وهو من أعداء الله — سبباً لخروج موسى من المدينة ، وخائفاً يترقب ، وليذهب إلى مدين بعينها ، وليصل إلى شعيب ، وليقضي عنده العشر سنوات ، بما فيها من العلم والأخلاق والمقدمات لتلقي النبوة وتكاليف الرسالة .

ومع ذلك ، لم يعلق الله عز وجل ، على اعتقاد موسى بأن قتله الرجل كان من عمل الشيطان ، وأكثر من ذلك فإن الله سبحانه يوجز الموقف ، حسب نظر موسى ، قال سبحانه :

{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . سورة القصص الآيات ( 15 - 16 ) . }

موسى أراد أن يغفر له قتله الرجل ، ولعلَّ الله جل وعلا أراد أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقرر سبحانه الحقيقة الجميلة : أنه هو سبحانه الغفور الرحيم .

وقريب من هذا كلام الله تبارك وتعالى عن النبي أيوب (ع) قال عزَّ شأنه : { .. وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . سورة ص آية 41 } .

ففي هذه الآية على أيوب (ع) مأخذان : الأول ، أنه نادى ربَّه ، وهو عليه السلام ، لو كان يعرف مكانة ربه منه كما عرفها محمدٌ (ص) ، وهي أن الله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد ، لكان ناجاه ، أو دعاه ، بدلاً من أن يناديه نداءً ، لأن النداء ، معلوم أنه للبعيد .

لمَّا أنزلت آية : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. } سورة البقرة الآية 186 { على رسول الله محمدٌ (ص) ، كان أعرابي سأله قبيلها هذا السؤال الذكي : يا رسول الله ، ربنا قريب فنناديه ، أم بعيد فنناديه ؟ فكانت الآية الكريمة .

على أنه مذكور في القرآن أن الله نادى آدم وزوجه ونادى موسى ، فهذا حق الله وفيه مطلبان . الأول فيه إشارة إلى أن آدم وزوجه أصبحا في مقام البعد عن الله تعالى بعد أن قال : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. } سورة البقرة آية 35 { حيث كانا في مقام القرب المعنوي من الله عزت عظمته ، فلما وقعت المعصية ، وأصبح الفريقان ، رجالاً ونساءً ، في مقام البعد المعنوي : { .. وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ التَّكْوَمِ الشَّجَرَةِ .. } سورة الأعراف الآية 22 } .

أما المطلب الثاني ، فهو أن الله جلت عظمته ، من واقع علمه اللانهائي وكبريائه ، يخاطب أنبياءه ورسله على قدر أفهامهم ، ومن خلالهم البشر ، تبعاً لتطور فهم البشرية في مراحل نموها ، ومعها تطور فهم الأنبياء . فالبشر في كل مرحلة ، لن تكون أفهامهم ، في أحسن حالاتهم ، إلا دون فهم أنبيائهم ، كل في مرحلته ، وهذه هي حكمة الله البالغة .

لذلك نرى أن الله سبحانه ، كان ينادي من أنبيائه من يناديه ، وقد نادوه جميعاً ، إلا محمّداً (ص) فقد ناجاه ، ولذلك هو جعله خاتم النبيين وأعز المرسلين ، وجعل رسالته خاتمة الرسالات ومهيمنة على جميع ما قبلها ، وجعل قرآنه كافياً شافياً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى قيام الساعة .  
وصحيح أنه سبحانه ، قرّب موسى (ع) نجياً ، وإنما عندما أنزل عليه التوراة ، وحصرها في جانب الطور الأيمن ، أي طور سيناء ، وهو الجبل المعروف في نواحي مصر في صحراء سيناء . قال تعالى :

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . سورة مريم الآيات (51 — 52) } وكان ذلك مرة ، عندما لقنه التوراة وأكتبه إياها خلال أربعين يوماً ، ودفعة واحدة .

أما محمّداً (ص) فإنه أوحى إليه القرآن دفعة واحدة في ليلة واحدة ، أو في بعض ليلة ، وأين كان ذلك؟! رفعه ربه سبحانه وتعالى ، إسراءً ، إلى ما فوق السماء السابعة ، ولقنه القرآن فوق الأفق الأعلى ، حيث دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وذلك قوله تبارك وتعالى :

{ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْئُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . سورة النجم الآيات (3 - 10) } .

ويلاحظ الفارق العظيم بين الموقعين : الموقع الذي أنزلت فيه التوراة على رسول الله موسى (ع) ، وهو جبل الطور في صحراء سيناء على كوكبنا هذا الأرضي ، تحت السماء الدنيا ، والموقع الذي أنزل فيه القرآن المجيد على رسول الله محمّداً (ص) وهو فوق السماء السابعة . ثم مستوى المناجاة هنا ومستوى المناجاة هناك . فنقول هذا تلمساً للحقائق بالمنطق البريء ، وتوخيّاً لطاعة الله جلّ جلاله . غير ناسين — في هذا المجال — قَوْلِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، الأول : { .. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ .. } أي بين أحد من أنبياء الله ورسوله . والآخر : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. } وهو حكمه تبارك وتعالى ، وهو خير الحاكمين .

هذا ، ولقد أحصي في القرآن الكريم ثلاثمائة وثلاث وثلاثون مرة كلمة : { قُلُوبٌ } أي يا رسول الله يا محمد ، خلال تنزيل القرآن عليه ، نجومياً ، عبر ثلاث وعشرين سنة ، فضلاً عن بقية أنواع الخطاب . ليس فيها مرة واحدة ، نادى ربه فيها نداءً ، ولا ربه عزّت عزته ناداه .. من بعيد .

ونسجل على الأنبياء عليهم السلام الذين أورد الله تعالى عنهم في القرآن العظيم أنهم نادوه سبحانه :

- { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. سورة هود آية 45 } .
- { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . سورة مريم الآيات (2 - 3) } .
- { وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. سورة الأنبياء آية 76 } .
- { وَيُؤَيِّبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. سورة الأنبياء آية 83 } .
- { وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . سورة الأنبياء الآية 87 } .

- { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . سورة الأنبياء الآية 89 } .
- { .. وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ .. . سورة ص الآية 41 } .

ونذكر الذين أورد الله أنه هو سبحانه ناداهم ، طبعاً في مقابل أنهم نادوه تبارك وتعالى :

- { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . سورة الشعراء الآية 10 } .
- { .. وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ .. . سورة الأعراف الآية 22 } .
- { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. . سورة الصافات الآيات ( 104 - 105 ) } .

يبدو بقوة أن الله عز وجل ، ومنذ بداية البشر ، فصل أنبياءه ورسله ، كلاً على قدر قومه الذين أرسل إليهم من جهة ، ومن جهة ثانية على قدر الرسالة التي أرسل بها . مع أفضلية على القوم وليس - طبعاً - على الرسالة .

والأفضلية ، تارة تكون بنسب بسيطة ، فأكثر أنبياء بني إسرائيل ، بدءاً بأبيهم إسرائيل الذي هو يعقوب ، ومروراً ببنية الأسباط الإثني عشر ، ثم عشرات الأنبياء ، منهم من سماه القرآن الكريم وذكر أهم مناقبه ، ومنهم من سماه ولم يذكر عنه إلا أنه كان من الصالحين ، وكثير منهم لم يتعرض لهم لا بالأسماء ولا بالصفات . إلا أنه كان جليلاً إبراز موسى ربطاً بالتوراة ، وإبراز عيسى ربطاً بالإنجيل ، وهو عليه السلام آخر من ابتلاه الله تبارك وتعالى بفضاظة بني إسرائيل وقسوتهم وعصيانهم لله تعالى ولرسله عليهم السلام ، وبتحريف كلام الله ، ويقتلهم النبيين ، ويقولهم على مريم عليها السلام بهتاناً عظيماً ، حتى بعث الله رسوله محمداً (ص) ، النبي العربي ، رحمة للعالمين .

وحيث قلنا إن الأفضلية بين أكثر أنبياء بني إسرائيل وبين عقلاء الناس ، طبعاً المؤمنين ، كانت بسيطة ، فلا بد أن نعطي أمثلة على ذلك . وحيث أن الكلام في هذا كثير ، لذلك نكتفي بلمحات عن إسرائيل ذاته أي يعقوب (ع) وبنية الأسباط الذين ذكر الله سبحانه أنه جعلهم كذلك من الأنبياء :

إن يعقوب كذب عليه عشرة من أبنائه وغدروه وأخذوا أخاهم ليقتلوه ، موهمين أباهم أنهم ذاهبون ليلعبوا ويستبقوا . وأول بادرة كانت من يعقوب ، وهو يحب ولده يوسف - حباً مميزاً فوق العادة - أنه قال : إنني أخاف أن يأكله الذئب . والحق هنا يقال ، لو أن مسلماً عادياً قال كذلك ، وهو يعلم أن الله معه ومع ابنه ، ولو كان هذا في بحر وذاك في بر أو في سماء ، للمناه على قوله واعتبرنا ذلك نقصاً في إيمانه .

الثانية ، ولعلها أكبر ، أنه بعد أن فعل إخوته فعلتهم ، وألقوا أخاهم في الجب ، وعادوا إلى أبيهم ليكون محتالين بدمٍ كذب على قميص مدّعين أكل الذئب له ، وكان هو ، أي يوسف ، قد أنجاه الله بأن أرسل له سيارة من الناس أخذوه ، واستقرّ في مصر . هنا بدأ يعقوب (ع) بالبكاء .. ثم ما رقأت له دمة طيلة سني غياب يوسف ، ويقال إنها خمس وعشرون سنة - تقريباً - حتى ابيضت عيناه من الحزن .

وهنا مناقشة ثانية ، وهي أنه لو فعل كذلك رجل مؤمن اليوم ، وقع له تماماً ما وقع ليعقوب وابنه وجملة بنيه ، ثم فعل فعل يعقوب ، فبكى خمساً وعشرين حتى ابيضت عيناه من الحزن . بدعوى شدة حبه

لولده ، للمناه كذلك لوماً شديداً ، واتهمناه كذلك بنقص في إيمانه ، وفندنا له هذا النقص في عدة أمور ، أهمها :

هذا السؤال : أين حسن التوكل على الله الذي يصحبنا جميعاً كمؤمنين ؟ ثم بعد أن طال غياب يوسف ، كان لا بدّ من أحد احتمالين أولهما وهو الملزم ليعقوب أن يعتقد بدرجة اليقين ، وهو سلامة يوسف ، وأنه في مكان ما على هذه الأرض وفي أحسن حال ، وذلك لما يعرفه يعقوب عن إيمان يوسف ، كصبي مميز ، ثم الرؤيا التي قصّها يوسف على يعقوب ، ومضمونها أنه سيعمّر حتى يسجد لله بين يديه ، أبوه وأمه وأخوته الأحد عشر .

والاحتمال الثاني : أن يعتقد يعقوب عدم صحة الرؤيا وأنها أضغاث أحلام ، فيكون بذلك خرج هو من النبوة وأخرج معه يوسف على الأقل من صفة التميز عند الله تبارك وتعالى . فيصبح بذلك يعقوب في حكم الرجل العادي المهزوز بالإيمان .

ومع هذا الإحتمال الثاني ، نضل نلوم هذا الرجل العادي المؤمن ، إذا استمر يبكي طيلة خمس وعشرين سنة حتى تبيض عيناه ، وأول ما نحذّره منه كونه يأتّم بذلك حيث يضر نفسه بدون مبرر قاهر ، ثم نقول له ، إما أن يكون ولدك قد مات فهو في رحمة الله ، أو هو ما زال حياً في رعاية الله ، وأين الصبر بالله ، والثقة بالله ، وأين التصديق بوعود الله للمؤمنين ، .. وبشّر الصابرين .

وقد يداخل الرجل العاديّ الإيمان فكرة ثالثة ، هي أن ابنه قد ضلّ ، فلا هو ميت في رحمة الله ولا هو حي في رعاية الله ، فنقول له ، وقد أعطاك الله في هذا المجال سلاحاً ولا أقوى : الدعاء . فإمّا أن يفعل فيه ، فيستجيب لك الله ويهديه ، وإمّا أن يكون كابن نوح عليه السلام ، الذي اختار – والموج يتلاطم – جبلاً يعصمه من الماء ، بدلاً من سفينة أبيه والمؤمنين . فكان من المغرّقين . وعرفنا الله بعد ذلك أنه كان عملاً غير صالح . فلا يؤسف عليه .

نبي اليهود : موسى (ع)  
ونبي المسيحية : عيسى (ع)  
ونبي الإسلام : محمّد (ع)

كيف كانوا يرون الله عزّ وجل . ؟

أولاً موسى عليه السلام :

هو نبي الله ورسوله إلى فرعون وقومه ، وهو من أكثر الأنبياء بروزاً في تاريخ الرسالات ، وهو نبي اليهودية ، أحد الأديان ، أو الأصح إحدى الشرائع الموجودة على الأرض اليوم ، إلى جانب المسيحية والإسلام .

معلوم أن موسى تربى في مصر ، بين قصر حاكم البلاد والعباد : فرعون ، وبين قومه بني إسرائيل الذي كان يقيم بهم علاقة سرية حميمة ، ومعلوم كذلك أن الله سبحانه ، هياً له - تعليماً آخر دينياً إلهياً في مدين - عند نبي الله شعيب (ع) . ثم نبّاه أثناء رجوعه إلى مصر ، في بعض الطريق . وحملّه الرسالة . إلى فرعون وقومه وتخليص بني إسرائيل من فرعون وطغيانه إذ هو لم يؤمن ، وزاد سبحانه ، فأيده كذلك بنبوّة أخيه هارون .

فبناءً على الآية الكريمة : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. } ، سنجد تفاوتاً مهماً بين موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام تقرره المقارنة ، وللسيرة المباركة لكل منهم .

فالبنسبة لما ذكرنا من أن موسى (ع) نظر بعين الكثرة وأن عيسى (ع) نظر بعين التوحيد وأن محمّدًا (ص) نظر بهما جامعاً ، نرى أن موسى (ع) على أساس هذه الحقائق ، كان قومياً إسرائيلياً ، فهو ، كاد - لولا أمر الله تعالى له بمواجهة فرعون ورهطه - يحصر الدعوة والرسالة ، بقومه الإسرائيليين . ومع ذلك ، لم يفلح معهم ، رغم أنهم كانوا يشكلون له قاعدة شعبية معقولة ، قبل تكليفه بالرسالة ، ثم بعد تكليفه بها . فلا هو حملهم على أن يكونوا ، مثلاً ، ثواراً إنقلابيين ، باسم الله وباسم دينه ، على الحكم الكافر الطاغوتي ، ولا فكر أن يجعل منهم - وهو في مصر - أمة مقاتلة . وصحيح أنه كان وقومه أمة مستضعفة في مصر ، إلا أنهم كانوا جماعة متماسكة قومياً ودينياً .

بينما كان محمّد (ص) وحده في مكة ، بدون أدنى قاعدة شعبية تنصره أو تدفع عنه طواغيت قريش وعدوانيتهم ، كان محمّد (ص) وحده أمة مستضعفة في مكة ، ثم أصبح والناس الذين أسلموا معه ، الأمة التي فتحت العالم ، ومدنّته ، وشرفته بعبادة الله العظيم ...

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، إضافة إلى تجنيب موسى قومه الجهاد في سبيل الله ، مراعاة ربما لجبنهم أو طبيعتهم الأنانية ، فإن اعتقاده بالله عز وجل ، إضافة إلى ما قلناه سابقاً ، كان ذا أفق ضيق ، بالنسبة لأفق محمّد (ص) أو آفاقه المفتوحة بدون حدود ، ولنفهم ذلك بوضوح ، نورد هذا النص القرآني :

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَانِطُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ . فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . . سورة الشعراء الآيات ( 52 - 62 ) . }

الذي نريده من هذه الآيات المباركات ، الآية الأخيرة ، أي قول موسى (ع) { .. كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . }

هذا عجب من موسى (ع) بالنسبة لمحمّد (ص) . فلو كان الموقف لمحمّد (ص) لما تفرد بنسبة الله تعالى إليه وحده ، أي لكان قال إن معنا ربنا سيهدينا ، أي معه ومع الناس ، وسنرى ذلك الفارق أنه كبير جداً وخطير جداً بين القولين ، يعني بين المفهومين ، عندما نأتي إلى الكلام عن محمّد (ص) . ونحن لكي لا نطيل الكلام في مقارنة بين الأنبياء الثلاثة ، نكتفي بهذا القدر من الأفكار المكثفة والرصد الموجز .

## ثانياً : عيسى عليه السلام :

نبي الله ورسوله عيسى (ع) كان من حيث التوجه والتعاطي مع الرسالة بعكس سلفه موسى (ع) ، فهو من جهة قد حصر نشاطه وما كان يتبلّغه عن ربه ، يائتي عشر رجلاً تقريباً ، كان يتجاوزهم أحياناً في ظروف أشبه بالحاكمات في جموع من الناس ، أو إلى معجزات على صعيد أفراد مثل شفاء الأكمه والأبرص وإحياء موتى بإذن الله .

ومن جهة ثانية ، لم يعتن عيسى بقومه كإسرائيليين ، أي لم يتخذ موقفاً قومياً كما فعل موسى (ع) ، وكذلك لم يوجه الناس توجيهاً ثورياً ، أو بطولياً في الدفاع عن دين الله . سأل : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، والحواريون هم تلامذته المعروفون الإثنا عشر . هؤلاء كانوا في حياته عليه السلام أنصاره إلى الله تعالى ، وقد خرج واحد منهم بخيانته التاريخية ، فبقي أحد عشر رجلاً إضافة إلى أمه القديسة مريم عليها السلام وبضعة عشر رجلاً وامراً ، ثبتوا كمؤمنين ، وليس كصحابه .

ومن جهة ثالثة ، ولعلها الأهم ، وبقينا هي الأهم ، أعني مفهومه عن الله تبارك وتعالى ، فهو شبيه من حيث قصوره وضيقه بمفهوم موسى (ع) وهذان المفهومان مكرّسان في التوراة وفي الإنجيل ، وتبعاً لذلك في صلوات اليهود والمسيحيين . مع ما في عباداتهم من التعقيد في الطقوس والوسائط والرتب الكهنوتية ، وهذا كله بخلاف عبادة المسلم البسيطة غير المعقدة ، وكذلك فهمه عن الله الواحد الذي لا شريك له ، وكذلك عدم وجود الوسائط بينه وبين ربه . المسلم ينظر إلى الأنبياء والأوصياء والأولياء ، معلمين وقادة ، ولا ضرورة لتوسطهم بينه وبين الله جلت عظمته ، وهذا معلوم ومشهور في صلاته التي

يصليها كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها . وهو يخاطب الله عز وجل كل يوم في كل صلاة عدة مرات ، خطاباً مباشراً ، مع فهمه ويقينه أن الله معه ، أو قريب منه يراه ويسمعه . بينما عيسى عليه السلام علم الناس أن يقولوا في صلاتهم : ربنا الذي في السماوات . كان يرى الله بعيداً عن الناس .

وإليك هذا المثال عن علاقة المسلم المباشرة بربه تبارك وتعالى ، في وصية الإمام علي(ع) لولده الحسن (ع) :

"واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، قد أذن لك بالدعاء ، وتكفل لك بالإجابة ، وأمرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه .. ولم يمنعك إذا أسأت من التوبة .. ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يعيرك (1) بالإنابة .. ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى .. ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ، ولم يناقشك بالجريمة (2) ، ولم يبيئسك من الرحمة .. بل جعل نزوعك من الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسناتك عشرا .. وفتح لك باب المتاب ، إذا ناديته سمع ندواك (3) ، وإذا ناجيته علم نجواك (4) ."

## ثالثاً : مفهوم محمّد (ص) عن الله تبارك وتعالى :

ففي هذه الآيات البينات التي كان يتلقاها ويبلغها ويعمل بأنوارها الكاشفة :

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . سورة الحديد الآيات (1 - 4) }

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . سورة الشعراء الآيات (217 - 220) } .

{ .. أَنْ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . سورة الأنفال الآية 24 } .

{ أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا . سورة الطلاق الآية 12 } .

{ .. أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . سورة فصلت الآية 54 } .

- (1) لم يعيرك بالإنابة : من عير الدينار بالدينار إذا وزن به .
- (2) الجريمة . الكسب ، ومفروضه هنا الكسب الحلال . والجريمة : الكاسب على أهله .

(3) سمع ندواك : دعائك .

(4) نجواك : دعاؤك الخافت .

وقبل أن نتابع سرد بقية الآيات ، نتوقف وجوباً لفهم الآيات التي ذكرناها ولعلّ أدهاها للتأمل والتفكير والسفر في مضامينها ، قوله تبارك وتعالى : **{ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }** . فأما قوله تعالى : **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ** فمعلوم عند العقلاء أنه سبحانه كان ولم يكن قبله شيء وهو الحي القيوم الباقي الذي لا يموت وليس بعده ولا فوقه شيء . وأما قوله تعالى : **{ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ }** أي وهو **الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ، فالظاهر هو المرئي والمحسوس ، والباطن هو المدرك من الوجود وأشياءه ومفرداته وغير المدرك . ويتبادر على هذا الأساس أن الله تعالى هو الوجود وهو الكون جملة وتفصيلاً ، وهذه حقيقة محدودة ، ما دام للكون حدود ، وبما أن الله سبحانه بكل شيء محيط ( كما سيأتي من الآيات ) فهو محيط بالكون بظاهر الكون وباطنه . وهو سبحانه بنوره غمر الأشياء واستغرق جواهرها ، متميزاً عنها بألوهيته ولا نهائيتها عبر الأكوان وفوق الأكوان ، فهو غيرها ، وهي غيره ، مشهودة منه ، لا يفوته من كلياتها ولا من جزئياتها مثقال ذرة ، ولا مثقال جزيء من الذرة ، ولا جزيء جزيء ، من أدقّ وأعجب ما خلق وبرأ وصوّر ، مما دون عرشه وملكوته ، ولا شيء فوق عرشه وفوق ملكه وملكوته إلا هو . وهذا معنى قولنا : الله أكبر ، أي أكبر من الوجود والعوالم والأكوان ، وأكبر مما يصل إليه الظن أو الخيال أو التصور ، ويقف الظن ويقف الخيال ، ويقف التصور ، وحيث يقف كل واحد من هذه القوى ، التي هي أسرع من الضوء ، في مرحلته عاجزاً أو متعباً ، مهما أبعد وتعالى ، يجب أن يقرّ كما يقرّ العلم اليوم ، شاعراً بضعفه ، مستصغراً أدواته وتقنياته ، مستقلاً كثرته ، مستهيناً بصلفه وكبره ، مبعثراً أرقامه .. يقول عن وعي أو عن غير وعي : **الله أكبر !** ... وهنا إما أن يستمر في دوخته ، وإما أن يسعد بعقله ، فيطيل السجود لله تعالى ، من خشيةٍ ومن رهبةٍ ومن حب ، فيكون من المهتدين .

وأما قوله تعالى : **{ .. وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }** . عليم بكل شيء ، كذلك باطن الشيء وظاهره ، مما دقّ وصغر وتناهى في الصغر ، مما أحاط الإنسان بوجوده أو لم يحط بوجوده بعد ، وكذلك مما كبر وعظم ، عليم بمبادئ تركيب الأشياء وفاعليتها وتفاعلها فيما بينها ، بسلبياتها وإيجابياتها ، وتألفها وتضادها ، بفيزيائها وكيميائها والكترونياتها ، مما علّمه للإنسان عن بعض أسرارها ومما لمّا يعلمه بعد ، ومما لن يعلمه أبداً من مكنون أسرارها ، عن أشياء الكون المدرك ، وهو قليل ، والكون غير المدرك بعلوم الإنسان وحواسه وأدواته وهو أعظم . **{ .. وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }** : لناخذ مثلاً عن بعض وجوه علمه سبحانه : إنسان ما فيه علة يحاول أن يحصيها ويحاصرهما ليعالجها . في علوم الإنسان المتقدمة ، لا بدّ له للوصول إلى غايته من ورشة عمل ؛ مختبر لتحليل دمه وإفرازاته ، أجهزة تصوير ، أشعة على أنواعها ، رنين مغناطيسي ... إلى آخر ما توصل إليه ، وسيتوصل إليه — ربما العلم . مع ما يرافق ذلك من أخصائيين وأطباء وأنواع اختصاصات متعددة ، هذا ، ما عدا السهو منهم والخطأ الكثير ، فضلاً عن مرور الزمن ، وطول المعاناة ، وكثرة التقارير ، والأرقام وأسماء المواد . وهل يكون على صراط الله أثناء ذلك ، العليل ؟ هيهات ! ... أما الله تعالى : **{ .. وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }** في هكذا حال ، وفي غيره من الأحوال . وعلمه دفعي ، كاشف لكل ما يكشفه علم الإنسان وأجهزته ، في أيام وشهور وربما سنين ، وكذلك ما لا يستطيع الإنسان كشفه ، كل ذلك هو عند الله في كتاب مبين ، وظنّ في الكتاب هذا ما شئت ، من حيث عظمة الإبداع والشمول والإحاطة بالكليات والجزئيات وتفاعلاتها السابقة والآنية والمستقبلية ، كل ذلك يتم عنده سبحانه في جزيء من اللحظة ، إضافة إلى شفاء عاجل مضمون ، بكلمة كن فيكون . هذا إذا لجأ إليه صاحب العلة ، ولم يلجأ إلى غيره ، لأنه لا يقبل التشريك بينه وبين غيره ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

